115

مكتبة الأسرة 1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الخاصة

عاشوا فى خيالى

418

عبد الوهاب مطاوع





الهيئة المصرية العامة للكتاب

عبد الوهاب مطاوع
عاشوا فى خيالى
مكتبة الأسرة ١٩٩٩



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل ـ للشاب ـ للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة

1999

مهرجان القراءة للجميع



١٢٥ قرشاً

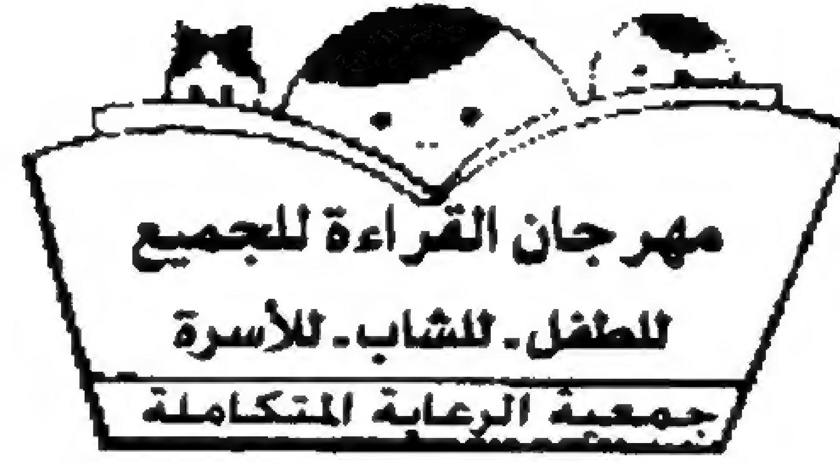
عاشوا فى خيالى

طبعـــة خاصـــة
تصدرها الدار المصرية اللبنانية
ضمن مشروع مكتبة الأسـرة

عاشوا فى خيالى

عبدالوهاب مطـاوع

الناشر
الدار المصرية اللبنانية



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الخاصة)

عاشوا فى خيالى

عبدالوهاب مطاوع

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان: **محمود الهندى**

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

مقدمـــة

أما هؤلاء الذين عاشوا ومازالوا يعيشون فى خيالى فهم الأشخاص الذين قرأت لهم . . وقرأت عنهم . . وقضيت بعض ساعات العمر وأنا أعايش أفكارهم . . وأتجادل مع نفسى حولها وحولهم .

وحين جلست لكى أعد فصول هذا الكتاب للنشر ، تزاحمت الشخصيات والأفكار أمامى ، وحِرْتُ ماذا أختار منها للكتاب ، وماذا أدعه حبيساً وراء أسوار خيالى كما هو ، إلى أن يجد فرصة الخروج للعلن فى كتاب جديد . وبعد «جدال» طويل بينى وبين هذه الشخصيات والأفكار فى مخيلتى انتهيت إلى اختيار هذه المجموعة الصغيرة منها لهذا الكتاب ، ووعدتُ «بقيّتها» بألا أدعها حبيسة داخل جدران مخيلتى إلى الأبد ، وأن «أفرج» عنها تباعاً فى كتاب تلو الآخر ، كلما سمحت الظروف .

ولا عجب فى ذلك ، فالإنسان يعيش فى خياله كما يعيش بين الآخرين ، وله أصدقاؤه «وخصومه» فى الفكر والخيال كما أن له أصدقاء وخصوماً فى الحياة .

والفارق الـوحيد بين النوعين هو أن أصدقاء الخيال وخصومه أكثر

رفقاً بالإنسان من أصدقاء الواقع وخصومه ، وأنه يستطيع أن يتجنب أذاهم ، بأكثر مما يستطيع أن يفعل فى واقع الحياة .

ولأننى أعيش مع خيالى بأكثر مما أعيش فى بعض الأحيان مع واقع الحياة ، فإن دائرة أصدقاء الفكر والخيال عندى عريضة ، ودائرة الخصوم الذين أرفض أفكارهم و«أجادلهم» فيها بعنف فى خيالى أيضاً متسعة!

ولقد فكرت فى أن أشركك معى فى بعض هذه الصداقات والخصومات الفكرية والأدبية .

ولست أريد لك من ذلك إلا أن ترث صداقاتى وتستمتع بها فى خيالك كما استمتعتُ ، ولا أريد لك أن تشاركنى عداوتى لبعض ما قرأت وأثار رفضى واستيائى ، إلا إذا شاركتنى الرأى فيها ، وانتهيت بشأنها إلى مثل ما انتهيت إليه من مواقف أو «قرارات» !

وشكراً لك فى كل الأحوال .

عبد الوهاب مطاوع

ريشة فى الهواء !

ريشة فى الهواء هائمة فى الخلاء تحملها الرياح من مكان إلى مكان . تحط هنا أو هناك . . فوق عشب أخضر مغسول بماء الندى ، أو فوق الوحل . . تقع فى يد إنسان رقيق المشاعر، فيمسكها برفق ويحفظها فى كتاب . . أو تقع تحت أقدام إنسان مهرول فيدوسها بالأقدام .

هذا هو أنت . . وأنا، وكل إنسان فى الوجود ! . . ريشة فى هواء الكون تحملها رياح الأقدار، وتتحكم فى مصائرها، فتحمل لها السعادة أو الشقاء .

هل شاهدت ذلك الفيلم الأمريكى الجميل «فورست جامب»؟ .

إنه يحكى قصة صبى شبه متخلف ذهنياً ، بطىء الفهم، محدود الذكاء. . أحبته أمه حباً صادقاً ، وحرصت على تعليمه فى المدارس العامة وليس فى مدارس المتخلفين ، وأشعرته دائماً بأنه طفل عادى، لا يختلف عن الآخرين فى شىء . . لكن زملاءه ـ كعادة الأطفال غالبا فى أعمارهم الصغيرة ـ لا يقدرون له ظروفه الخاصة . . ولا يتورعون عن السخرية منه والاستهزاء به ، ماعدا طفلة صغيرة اسمها « جينى »، ظروفها العائلية مؤلمة ، تترفق به وتعامله معاملة طيبة؛ فتصبح صديقته الوحيدة فى الحياة بعد أمه .



وهو صبى مسالم، سليم الطوية، يحب الدنيا والناس، ولا يحمل ضغينة تجاه أحد، ولا يتأخر عن مساعدة أى إنسان ، فلماذا يضطهده هؤلاء الملاعين ؟ .

لقد اعتادوا أن يتحرشوا به . . ويطاردونه ليضربوه؛ فلا تملك صديقته الطفلة إلا أن تهتف به صارخة كل مرة « إجر . . فورست . . إجر . . » ، ولأنها صديقته . . إذن فهى تريد مصلحته . . ومادامت تطلب منه الجرى؛ إذن فليجر، رغم الجهاز التعويضى الذى يستعين به على تقويم ساقيه، فراراً من الأولاد المشاغبين؛ فيكون اضطهاد هؤلاء الصبية الملاعين له سبباً خفياً لخير عميم كان ينتظره فى عالم الغيب .

لقد تخلص من هذا الجهاز إلى الابد ، وأصبح يمشى ويجرى كغيره من الأطفال. وكما كان اضطهاد هؤلاء الصبية له فى طفولته سبباً فى تخلصه من ساند الساقين، فلقد كان اضطهادهم له وهو طالب بالمدرسة الثانوية سبباً آخر فى خير لم يخطر له على بال . . فلقد كان يتمشى ذات أصيل مع صديقته الوحيدة «جينى »، فظهر نفس هؤلاء الملاعين مرة أخرى، وبعد أن كانوا يطاردونه فى طفولته بالدراجات ، فيجرى بكل قوته ويسبقهم . . جاءوا يطاردونه هذه المرة وهم يركبون سيارة . . فصرخت صديقته كالعادة : إجر فورست إجر ، فجرى بكل قوته، ولاحقه الآخرون بسيارتهم ، فاضطر إلى أن يقتحم ملعباً للرجبى ، أى «الكرة الأمريكية » خلال مباراة رسمية، واخترق المستطيل الأخضر بسرعته الخارقة فسبق كل اللاعبين . . وأذهل مدرب الفريق ! . . إن

لعبة الرجبى تعتمد على السرعة المطلقة . . فاللاعبون يسلمون الكرة لأسرعهم، ويطلبون منه أن يجرى بأقصى سرعة ليصل بها إلى خط النهاية، ويحاول لاعبو الفريق الخصم أن يعرقلوه خلال الطريق، ويستردوا منه الكرة قبل أن يعبر الخط ! .

إذن . . هاتوا هذا الشاب الأحمق الذى يجرى بسرعة رهيبة ! . أصبح فورست لاعبا أساسيا فى فريق المدينة للرجبى . . يسلمه اللاعبون الكرة ويقولون له : إجر فورست ! ؛ فيصدع بالأمر ، ويجرى كالفهد. . وهيهات أن يلحق به أحد .

لقد كان زملاء المدرسة يؤذونه ، ويطاردونه . . فإذا بهذا الأذى يطلق إحدى مواهبه، ويحمل إليه الخير العميم. . فقد أصبح نجما من نجوم الكرة الأمريكية « الرجبى ». وبفضل تفوقه فى هذه اللعبة؛ ألحقوه بالجامعة مجانا. . وساعدوه على نيل شهادته منها، وأعطوه مرتباً كبيراً، ومكافآت سخية لا يدرى هو من أين جاءته، ولا لماذا يعطونها له ؟ .

بعد الجامعة، أدى خدمته العسكرية . . وذهب مع القوات الأمريكية إلى فيتنام ، وحين نزل فى المطار وركب سيارة الأتوبيس العسكرية ليذهب إلى وحدته، لم يرحب أحد من الجنود الأمريكيين بجلوسه إلى جانبه ، سوى عسكرى أسود زنجى الملامح اسمه « بوبا »، فجلس إلى جواره . . وأصبح منذ تلك اللحظة صديقه الوحيد فى الحياة بعد أمه وبعد « جينى » ، يتدربان معاً ويتناولان طعامهما ويتسامران، أو يتحدث «بوبا» على الأصح ويسمع فورست، لأنه لا يتكلم عادة

إلا لضرورة قصوى . وبوبا عامل على مراكب صيد الجمبرى، ويحلم بأن يشترى بمكافأة نهاية الخدمة العسكرية مركبا صغيراً لصيد الجمبرى، ويعرض على فورست أن يشاركه فى هذا المشروع بعد انتهاء خدمتهما، فيجيبه بالموافقة ! . لماذا وافق ؟ . وهل صيد الجمبرى هو طموحه فى الحياة . . ؟. هل أجرى حسابات اقتصادية للمشروع؛ فأغرته بالموافقة عليه ؟ . لا شىء من ذلك لكن بوبا صديقه، ومادام صديقه؛ فهو يريد الخير له ، كما أنه يعرف أكثر منه . . إذن فهو موافق بلا مناقشة، ولا حسابات، ولا تخطيط مسبق ! . وهل كان يخطط من قبل لأن يكون لاعب كرة معروفا، وهو الذى لم يلعبها قبل ذلك، ولم يكن يعرف حتى قانونها ؟ .

إنه ريشة فى الهواء تحركها رياح الأقدار كيفما تشاء. ومادام سليم الطوية، ويحب الخير للآخرين، فلماذا يخاف من المستقبل ؟ .

وبسبب صداقته لبوبا . . أصبح فورست ـ شبه المتخلف ذهنياً ـ بطلا قومياً فى أمريكا ، من حيث لم يرغب أيضاً ولم يخطط لذلك . . فلقد وقعت وحدته العسكرية فى كمين فى أدغال فيتنام، وانهال القصف الوحشى عليها ، فكاد يبيدها عن آخرها . ونجا فورست بسرعته المذهلة فى العدو . . لكن أين بوبا ؟ . إنه لا يزال فى دائرة القصف والموت ، وهو صديقه، فهل يتخلى عنه ؟ . فليعد إذن إلى الكمين، ويتعرض لخطر الموت لينقذ صديقه . ورجع بالفعل ، وقبل أن يجد « بوبا » سمع أنينا خافتا من إحدى الجهات؛ فتوجه إلى مصدره، فإذا به أحد زملائه الجنود

الجرحى، فلم يتردد فى حمله على كتفيه، والعودة به عدوا، إلى أن وضعه فى مكان آمن . . ورجع لينقذ بوبا، فسمع صراخ جندى آخر يستنجد به، فأنقذه، وجرى به إلى الأمان ، ورجع من جديد لينقذ صديقه . . فأنقذ ثالثا، ورابعا، وخامسا، بينهم الضابط قائد فصيلته . . قبل أن يعثر على بوبا فى النهاية مصابا إصابة خطيرة ويرجع به إلى الأمان . . فلا يطول بقاؤه على قيد الحياة. ويموت بوبا على صدره، ويبكيه صديقه الأمين بحرارة تذهله حتى عن إصابته هو نفسه برصاصة فى ظهره ! .

لقد أراد إنقاذ حياة صديقه؛ فأنقذ ستة من زملائه من الموت ، وأصبح بطلاً قومياً . وفوجىء وهو بالمستشفى بمن يبلغه بأنه قد حصل على ميدالية الشرف العسكرى ، وبأنه سيكون أحد من يستقبلهم رئيس الولايات المتحدة ويصافحهم بنفسه عند عودته لبلاده ! .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يستقبله فيها رئيس الولايات المتحدة مع غيره ويصافحه فيها بنفسه، ولن تكون أيضا الأخيرة ، فقبل ذلك استقبله جون كنيدى ضمن لاعبى فريق « كل الأمريكيين » الذى يضم أفضل لاعبى الرجبى بالبلاد ! . وسوف يستقبله الآن ليندون جونسون، ويصافحه كبطل من أبطال الحرب، وسوف يستقبله أيضاً بعد فترة أخرى ريتشارد نيكسون، الرئيس الذى جاء بعد جونسون ضمن فريق تنس الطاولة، الذى كان أول فريق رياضى يزور الصين فى بداية الاتصالات بين أمريكا والصين ! .

لكن ما صلته هو بتنس الطاولة ، وقد كان لاعب كرة أمريكية؟ .

لقد تعلمها بالصدفة أيضا وهو مقيم بالمستشفى العسكرى ليقطع بها أوقات فراغه الطويلة . قال له الضابط: امسك المضرب هكذا . . اضرب به الكرة هكذا . . ففعل . . فإذا به يجيد اللعبة خلال وقت قصير ويتفوق فيها، وإذا به يؤدى فيها ألعابا استعراضية تثير متعة المشاهدين، فيلعب بمضربين، ولا يخطىء الكرة مهما كانت بعيدة ، وإذا بهم بعد تنظيم جولة مباريات استعراضية له فى الوحدات العسكرية، يختارونه ضمن فريق الولايات المتحدة الذى كلف بالسفر إلى الصين فى أول لقاء رياضى بين البلدين بعد طول قطيعة !، مع أنه لم يخطط لذلك، ولم يكن يحلم به . . لكن يكفيه فقط أنه شاب طيب القلب، سليم الطوية، يؤدى كل ما يكلف به من مهام بكل ما يستطيعه من إجادة أما النتائج، فلا شأن له بها! .

لقد عاد إلى بلاده واشترى بكل ما كان معه مركباً صغيراً لصيد الجمبرى، وراح يجوب به البحر باحثاً عن رزقه ، فلا تخرج الشباك إلا بحذاء قديم، أو بعض الأعشاب البحرية. وقبل أن ييأس من المشروع نهائياً ، انضم إليه مساعد جديد؛ فشد من أزره واغراه بالاستمرار . . إنه الضابط الشاب الذى أنقذه فورست من الموت فى فيتنام وبترت ساقاه، وخرج إلى الحياة كارها كل شىء ، حتى فورست نفسه الذى أنقذه من الموت لكى يعيش معاقاً ، وقد كان أحرى به أن يتركه لمصيره المحتوم ! . ولقد وعده بأن يعمل مساعداً له ذات يوم إذا اشترى سفينة

الصيد التى يحلم بها . وقد اشتراها بالفعل ، فجاء ليفى بوعده .

ويهب إعصار ذات ليلة، فتفزع كل مراكب صيد الجمبرى إلى المرفأ، تحتمى به منه، أما مركب فورست والضابط «دان» فتبقى فى البحر وسط الإعصار الرهيب لسبب عجيب ! . إن الضابط دان تتملكه رغبة انتحارية خفية فى الموت، والتخلص من إعاقته وحياته المحطمة ، أما فورست، فلا يسمح له مستوى ذكائه بتقدير حجم الخطر الذى يترصده فى الإعصار؛ فيستجيب لدان حين يرفض العودة للمرفأ فى بداية الإعصار . ولا عجب فى ذلك. . فهو صديقه، وما دام كذلك، فلابد أنه يريد له الخير ! . . وبدلا من أن تتحقق رغبة دان الخفية فى الموت يصمد المركب الصغير للإعصار، فى حين تتحطم كل مراكب صيد الجمبرى الأخرى وهى راسية بالمرفأ ! .

وتخرج الشباك لأول مرة فى مركب فورست بصيد وفير، وينفرد فورست وحده بالعمل فى صيد الجمبرى لفترة غير قصيرة، فى حين تتوقف المراكب الأخرى؛ فيربح الكثير والكثير؛ ويؤسس ـ بمساعدة « دان » ـ شركة للصيد؛ ويمتلك ١٢ مركباً يديرها عنه « دان » الذى استرد الآن رغبته فى الحياة! .

ويسمى فورست شركته باسم « بوبا ـ جامب »، لأنه قد أشرك معه فى ملكيتها أسرة بوبا صديقه الأسود صاحب الفكرة، وأعطى لأمه وإخوته أرباح أسهمه ! .

أما صديقة الطفولة والصبا والشباب « جينى »، فقد أطلق اسمها على كل مراكب الصيد: جينى ١ ، وجينى ٢ ، وجينى ٣، وهكذا . . وأما هى ، فلتطب لها الحياة حيث تكون . . . فلقد جالت هى الأخرى جولتها فى الحياة، وأدمنت المخدرات بعض الوقت، وأحبت غيره من الشبان، مع احتفاظها بصداقته، وتعرضت لأذاهم فى بعض الأحيان؛ فكان فورست لا يتحمل رؤية أحد يؤذيها، ويفتك بمن يتعرض لها بالأذى .

وكانت قد أنجبت طفلا من فورست، وأخفت عنه أمْره، وانتقلت إلى مدينة بعيدة، وعاشت مع طفلها . . ثم مرضت مرضا خطيرا ، فقررت أن تستريح على كتف الإنسان الوحيد فى الحياة الذى أحبها بصدق، ولم يحب سواها؛ فاستدعته إليها وطلبت منه أن يتزوجها، ورجعت للإقامة معه فى بيته، ثم ماتت، تاركة وراءها طفلها مع أبيه .

فهل عندك تفسير لكل ما شهدته حياة هذا الشاب الطيب من توفيق وصعود وثراء، رغم نقص قدراته الذهنية وقلة حيلته ، سوى أننا جميعا ريشة فى الهواء، تتلاعب بها رياح الحياة؟! .

إن هذه القصة خيالية، لكن شبيهاتها وأشباه فورست فى الحياة كثيرون . والتسليم بهذه الحقيقة لا يتعارض أبداً مع التسليم بدور الإرادة والكفاح والإصرار فى صنع النجاح ، وإنما يضيف فقط إلى هذه العوامل الأساسية عاملاً أهم وأعمق أثراً ، هو عامل التوفيق الإلهى، وضرورة التسليم بالإرادة الإلهية فى كل ما يصيبنا من خير أو فشل .

ألست تعد أحياناً عدَّته . . وتخطط له جيداً ، وتجرى له كل الحسابات الدقيقة ، ثم تفاجأ فى النهاية بنتائج مخالفة تماما لكل ما سعيت إليه، رغم الإعداد الجيد والتخطيط المحكم ؟ . وهل يعنى ذلك ألا نخطط، وألا نجرى حساباتنا لكل شىء قبل الإقدام عليه ؟ أبدا . . إنه يعنى فقط أن ندرس جيداً كل الاحتمالات، ونجرى كل الحسابات ، ولكن بغير أن نبالغ كثيراً فى التحسب للأشياء، وبغير أن نغالى كثيرا فى التحوط والتردد والتحسب، ثم نحزن بعد ذلك حتى الموت لكل فشل يصيبنا، كأننا نتجاهل عامل التوفيق الإلهى . . ونتجاهل أيضا أن هناك دائما ما يسمى «بالألطاف الإلهية »، وهو ذلك التدبير الإلهى، الذى قد يأتينا أحيانا بما نكره، ليحقق لنا فيها بعد أجمل ما نحب، لو صبرنا على ما كرهناه . . ولو لم نفقد إيماننا بأن كل ما يصيب المؤمن خير؛ . . إن أصابه خير شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابه شر صبر . . فكان خيرا له ، كما يقول مضمون الحديث الشريف .

ولأن بعض البشر قد لا يصدقون ذلك فى بعض الأحيان، ويتصورون فى أنفسهم القدرة على كل شىء ، ويتوهمون أنهم أحق وحدهم بالنجاح والتوفيق ، لأنهم « الأذكى » و « الأشطر » والأكثر مكراً ، فإن الله سبحانه وتعالى قد يضع أمامهم وأمامنا أحياناً أمثال فورست جامب فى الحياة، الذى نجح ، من حيث لم يرد النجاح ، ولا كان يقدر عليه ، وأثرى من حيث لم يطلب الثراء، ولا كان يملك أسبابه، أو يقدر عليه، لكى يذكرنا بهذه الحقائق كلها وينبهنا إلى أن نقف عند « حد الأدب »

حين نرى هذه النماذج فى الحياة؛ فلا نتساءل كيف نجحوا وفشلنا . . أو كيف أثروا . . وعجزنا ونحن الأذكى . . والأقدر . . والأجدر بها نالوا من أسباب الحياة، وإنما نعمل ونكافح، وندعو الله أن يؤيد عملنا بتوفيق من عنده ، ثم نرضى بعد ذلك بالنتائج كيفما جاءت ، ونواجه الحياة والبشر بصدر سليم، فنطلب الخير لأنفسنا وللآخرين، ولا نستكثر على أحد ما سخت عليه به الحياة ، لأنه سبحانه مالك الملك وواهب كل شىء .

ألم يقل الحق سبحانه وتعالى فى مضمون الحديث القدسى : « وعزتى وجلالى لأرزقن من لا حيلة له . . حتى يتعجب أصحاب الحيل » . إذن فكيف كان أصحاب الحيل سيتعجبون ويسلمون بالإرادة العليا التى فوق إرادتهم ، لو لم يكن فى الحياة أمثال فورست ممن يرزقون وينجحون ويوفقون فى حياتهم ، وهم بلا حيلة، سوى توفيق ربهم لهم ؟ .



المعطف

قرأت هذه القصة القصيرة منذ ثلاثين عاماً ، ولم أنس تفاصيلها أبداً . . ولم أفقد إعجابى بها حتى الآن . . بل لعله يتزايد مع مرور الأيام ، كلما تأملت بعض أحوال البشر والمجتمعات !

أما القصه القصيرة ، فتحكى عن لحظة عابرة فى حياة إنسان قد تشهد مثيلاً لها فى حياتك اليومية ذات يوم ، وتبدأ بمفتش شرطة بدين متعجرف ، يسير بكبرياء فى الطريق ، مرتدياً معطفه الرسمى ، ومن خلفه بنصف خطوة يسير مساعده . والاثنان فى طريقهما إلى مركز الشرطة القريب ، فشاهد المفتش جَمْعاً من الناس يلتفون حول رجل وكلب صغير مقيد بحبل ، والرجل يصرخ ويسب ويلعن ويتوجع ، فشقَّ مفتش الشرطة الزحام ، متحفزاً لأداء دوره الخطير فى التصدى لكل ما يعكر صفو الأمن . . وأفسح له الواقفون الطريق فى احترام شديد ، إلى أن وَاجه الرجل الصارخ ، وسأله فى تكبر عن سبب صراخه ولعناته ، فروى له الرجل أن ذلك الكلب الذى يربطه بالحبل قد هاجمه ونهش إصبعه ، وأنه عامل بسيط الحال ، يعتمد على يديه فى كسب رزقه ،

وسيعجز عن العمل لمدة أسبوع على الأقل حتى تشفى يده بسبب ذلك الكلب اللعين . . فاستاء مفتش الشرطة لما سمع ، واستنكر أن يعرّض بعض الناس حياة الآخرين للخطر باقتنائهم لمثل هذه الكلاب المتوحشة. وانتفش غاضباً وهو يقول : لابد أن يدفع صاحب هذا الكلب ثمن جريمته . . إن حياة الناس ليست رخيصة ، حتى يعرضها البعض للخطر بهوايتهم اللعينة لاقتناء مثل هذا النوع المنحط من الكلاب . إن القانون لا يتساهل أبداً في مثل هذا الأمر ، ولابد أن يتحمل كل إنسان مسئوليته عن الإضرار بحياة الآخرين وأرزاقهم! .

فساد الارتياح وجوه الحاضرين ، وشعروا بالأمان فى حضرة هذا المفتش الصارم ، الذى لا يرضى بالظلم ، ولا يتساهل مع أى خروج على القانون ، ورمقه الواقفون فى الزحام بنظرات الإعجاب والإكبار . . فلتقَّاها المفتش بافتخار ، وازداد خيلاءً ، وهو يصيح بصوت أكثر غضباً: لابد من إعدام هذا الكلب المسعور . . فمن صاحبه لكى أريه العفاريت الزرق ، وأجبره على دفع الغرامة المقررة ، وأعلّمه احترام القانون ؟ .

ولم يسمع المفتش جواباً على الفور عن سؤاله من الواقفين ، فازداد غضباً ، وعلا صوته أكثر وهو يزمجر : من صاحب هذا الكلب اللعين؟! ؛ فإذا بشخص من الحاضرين يقول فى تردد وبصوت خفيض: يبدو أنه كلب الجنرال المحترم الذى يقع بيته على بعد خطوات من هذا المكان! ؛ فاذا بمفتش الشرطة « يهتز » لما سمع . . ويتشاغل

عما قال الرجل عن شخص صاحب الكلب ، الذى شاء له سوء حظه أن يكون ذلك الجنرال المحترم ، ثم يتجه بحديثه إلى مساعده ، ويقول له : ساعدنى من فضلك على خلع معطفى ! فيقترب منه المساعد ، ويعينه على خلع المعطف الثقيل ، فيقول المفتش : أف . . ياالحرارة اليوم . . إن ارتداء المعطف الرسمى يزيد من إحساسى بالحرارة فى مثل هذا الجو القائظ ، ثم « يتذكر » ما أجابه به الرجل الواقف وسط الزحام عن شخصية مالك الكلب ، فيقول له بصوت « رزين » : ماذا قلت عن مالك هذا الكلب ؟ أهو الجنرال المحترم حقاً ؟ إذن . . هو ! ، لا بأس ! .

ويستدير عنه إلى الرجل المعضوض ، ويتفحصه بنظرة « بوليسية » ملائمة ، ثم يقول له : تقول أن كلب الجنرال قد عضك ؟ . . لكن كيف استطاع أن يصل إلى يدك ، ويعضّ إصبعك ، وأنت شخص طويل على هذا النحو ، وهذا الكلب المربوط حيوان صغير للغاية ، ولا يستطيع الوصول إلى ذراعك ؟ . آه . . لابد أنك قد جرحت إصبعك بمسمار ، وفكرت أن تدّعى على الجنرال المحترم بأن كلبه هو الذى جرحك ، لكى تحصل منه على تعويض كبير . . إننى أعرفكم جيداً أيها الملاعين . . إذا أصابتكم بعض الجروح ، بحثتم عن شخص ثرى ومحترم لتدّعوا عليه بأنه المسئول عن إصابتكم ، أملاً فى الفوز منه بترضية مالية ، مهما كان قدرها ! .

وانتفش المفتش من جديد غاضباً وهو يقول له : إننى لا أسمح أبداً بمثل هذا الابتزاز ! .

وصمت المفتش لحظات ، لعله راح يفكر خلالها فى التصرف «القانونى » المناسب فى مثل هذه الحالة ، فإذا بمساعده يقترب من الكلب الصغير المقيد ، وينحنى عليه متفحصاً باهتمام ، ثم ينهض بجذعه ، قائلاً للمفتش بتأكيد : ليس هذا الكلب من كلاب الجنرال المحترم . . فهو لا يقتنى هذا النوع من الكلاب .

وتعلق المفتش بإجابة مساعده ، كما يتعلق الغريق بما يبعد عنه شبح الموت ، وسأله باهتمام شديد عما إذا كان متأكداً مما يقول ، فأكد له أنه واثق كل الثقة من ذلك .

فتنحنح المفتش ، وربت شاربه ، واسترد صرامته السابقة ، وقال كأنما يؤكد للجميع بُعد نظره ، وسلامة تقديره : لقد قدّرت ذلك منذ البداية . . فالجنرال المحترم لا يمكن أن يقتنى مثل هذا النوع الشرس من الكلاب . . فكلابه كلها من النوع غالى الثمن ، أما هذه الكلاب المنحطة ، فلا يقتنيها إلا السوقة والدهماء . . ولابد من تأديب من يطلق مثل هذه الكلاب الرخيصة على الناس .

وفى لحظات قصيرة كان قد استعاد هيئة رجل العدالة الذى لا يقبل أى مساس بالقانون ، وصاح فى الحاضرين بغضب مفتعل : من صاحب هذا الكلب اللعين ؟ ، فإذا بشخص آخر يقترب من الزحام ، فيعرف فيه مساعد المفتش طاهى الجنرال ، ويلفت نظر المفتش إليه ، فيسأله المفتش باحترام : هل هذا كلبكم ؟ فيجيبه الطاهى بالنفى ؛ فيزداد المفتش اطمئنانا ، ويهم بأن يزجر من جديد ، متوعداً صاحب

الكلب بالويل والثبور ، فإذا بالطاهى يقول له مستدركا : إنه فعلاً ليس كلب الجنرال ، لكنه كلب شقيقه الذى جاء لزيارته منذ أيام .

فيُبهت مفتش الشرطة ، ويتلفت حوله باحثاً عن مخرج من هذه الورطة السخيفة ، ثم يرفع عينيه إلى السماء ، كأنما يتأمل السحب الثقيلة التى تتجمع فى الأفق ، ويقول لمساعده بصوت رصين : يبدو أن السماء ستمطر هذه الليلة .

ثم يلتفت إليه راجياً إياه أن يساعده فى إعادة ارتداء معطفه من جديد، لأن نسائم المساء الباردة قد هبّت منذ لحظات ، فأشعرته «بالبرد» . وأعانه المساعد على ذلك ، وأحكَم المفتش معطفه حوله ، ثم تنحنح من جديد ، وقال للطاهى بلهجة رقيقة : شقيق الجنرال؟ . . أجاء لزيارة شقيقه المحترم . . وهذا هو كلبه « المسكين» الصغير ؟ ! إذن ، فخذه إليه على الفور ، وأبلغه احتراماتى له ولشقيقه المحترم . . فلابد أنه قد شعر بالقلق لغياب كلبه « الثمين » هذا ، ثم رمق الرجل المعضوض بنظرة ساخرة ، وقال له : تزعم أن هذا الكلب الصغير قد عضك ؟ يالها من كذبة حمقاء ! . هاها . . هاها . . وضحك المفتش متعجباً من غرابة هذا الاتهام الحقير ، ، ثم سلم الكلب للطاهى ، وحذر الرجل المعضوض من معاوده الافتراء على الأشخاص المحترمين بمثل هذا الادعاء الفاجر مرة أخرى ، ثم مضى فى طريقه بخطوات وقورة ، متدثراً بمعطفه ، ومطمئناً كل الاطمئنان إلى أنه قد أقام العدل ، وألزم الجميع باحترام القانون ؟ .

هذه هى القصة التى قرأتها منذ ثلاثين عاماً . وقد رويت لك ملخصها من الذاكرة . ومن عجب أننى بعد أن انتهيت من تلخيصها ، رجعت إليها فى المجلد الأول من أعمال أمير القصة القصيرة (أنطون تشيكوف) ، وقرأتها مرة أخرى ، لأعرف ماذا أسقطت منها ذاكرتى المجهدة ، فلم أجد اختلافاً يُذكر بين ما سجلته هنا ، وبين ما قرأته فى النص الأصلى للقصة ، مع أنى لست من أصحاب الذاكرة القوية . ولم أجد تفسيراً لاحتفاظ ذاكرتى بكل هذه التفاصيل الصغيرة عنها بعد هذه السنوات الطويلة ، سوى فى أن الحياة كثيراً ما تذكرنا بدلالة هذه القصة الرائعة ، وتثير تأملاتنا حول أمثال مفتش الشرطة هذا الذى يتغير موقفه من ضرورة احترام القانون ، باختلاف أقدار الأشخاص الذين ينبغى محاسبتهم عن خروجهم على هذا القانون .

ولقد اختار (أنطون تشيكوف) لقصته هذه عنوانًا معبراً ، هو «الحرباء » ، إشارة إلى سرعة تلوّن الحرباء باختلاف البيئة التى تعيش فيها ، لكنى لو خُيِّرْتُ ، لاخترت لها اسماً آخر ، قد لا تكون له نفس الدلالة العميقة ، لكنه مع ذلك قد التصق بذاكرتى منذ قرأتها لأول مرة ، وهو «المعطف » ، إشارة إلى المعطف الذى خلعه مفتش الشرطة ، حين علم أن صاحب الكلب الذى يتوعده بالويل والثبور هو « الجنرال المحترم » الذى لن يجرؤ على تطبيق القانون عليه ، مبرراً خلع المعطف بحراره الجو ، ومفسحاً لنفسه ـ خلال لحظات الخلع ـ مهلة قصيرة يلتقط خلالها أنفاسه ، وينتقل بعدها من حال إلى « حال » ، ثم أعاد

ارتداءه حين تغير الموقف من جديد ، وتورط مرة أخرى فى تهديد صاحب الكلب ، مطمئناً إلى أنه من الدهماء الذين لا خطر من محاسبتهم على جرائمهم ، فاذا به يكتشف غير ذلك . . فارتداه ليفسح بذلك لنفسه «مهلة » أخرى ، ينتقل بعدها إلى حال آخر ، بعد أن ثبتت « الرؤية »، وتأكد للجميع أن الكلب المتهم ، وإن لم يكن كلب الجنرال، فهو كلب شقيقه . وكلاهما خارج دائرة القانون ، وفوق الحساب ! .

أما المجنى عليه ، الذى يصبح ضحيةً تستحق التعاطف والتعويض، حين يكون الجانى من غمار الناس ، ثم يتحول فجأة إلى جانٍ ومتهم بالابتزاز والافتراء على ذلك الكلب الصغير المسكين ، حين يكون الجانى ممن لا يطالهم القانون . . فما أكثر أشباهه فى الحياة ، وما أكثر أشباه هذا « المعطف » الذى يُخلع ويرتدى مع اختلاف المواقف ، وتلون الآراء . . أيضاً .

لقد كتب الأديب الروسى مكسيم جوركى ذات يوم عن أدب تشيكوف الإنسانى ، فقال : عندما تقرأ قصص أنطون تشيكوف ، تحس وكأنك فى يوم حزين من أيام الخريف المائلة إلى البرودة ، حيث تبدو رؤوس الأشجار عارية من الورق ، ويبدو كل شىء فى الوجود وحيداً . . وغريباً وجامدًا ! .

أما عقل تشيكوف ، فيبدو وسط هذه الصورة كشمس الخريف ، التى لا تلسع باللهب ، لكنها رغم ذلك تضىء الطريق بوضوح قاس! .

وصدق جوركى فيما قال عن تشيكوف ، إذ إنى ما قرأت ذات يوم قصة من قصصه ، إلا وتسلل إلى نفسى « أثر » من ذلك الحزن الشفيف، الذى يثيره فى نفسك مشهد الغروب فى أيام الخريف ، وفهمت الجديد من أسرار النفس البشرية ، وازددت ضيقاً ببعض مظاهر ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

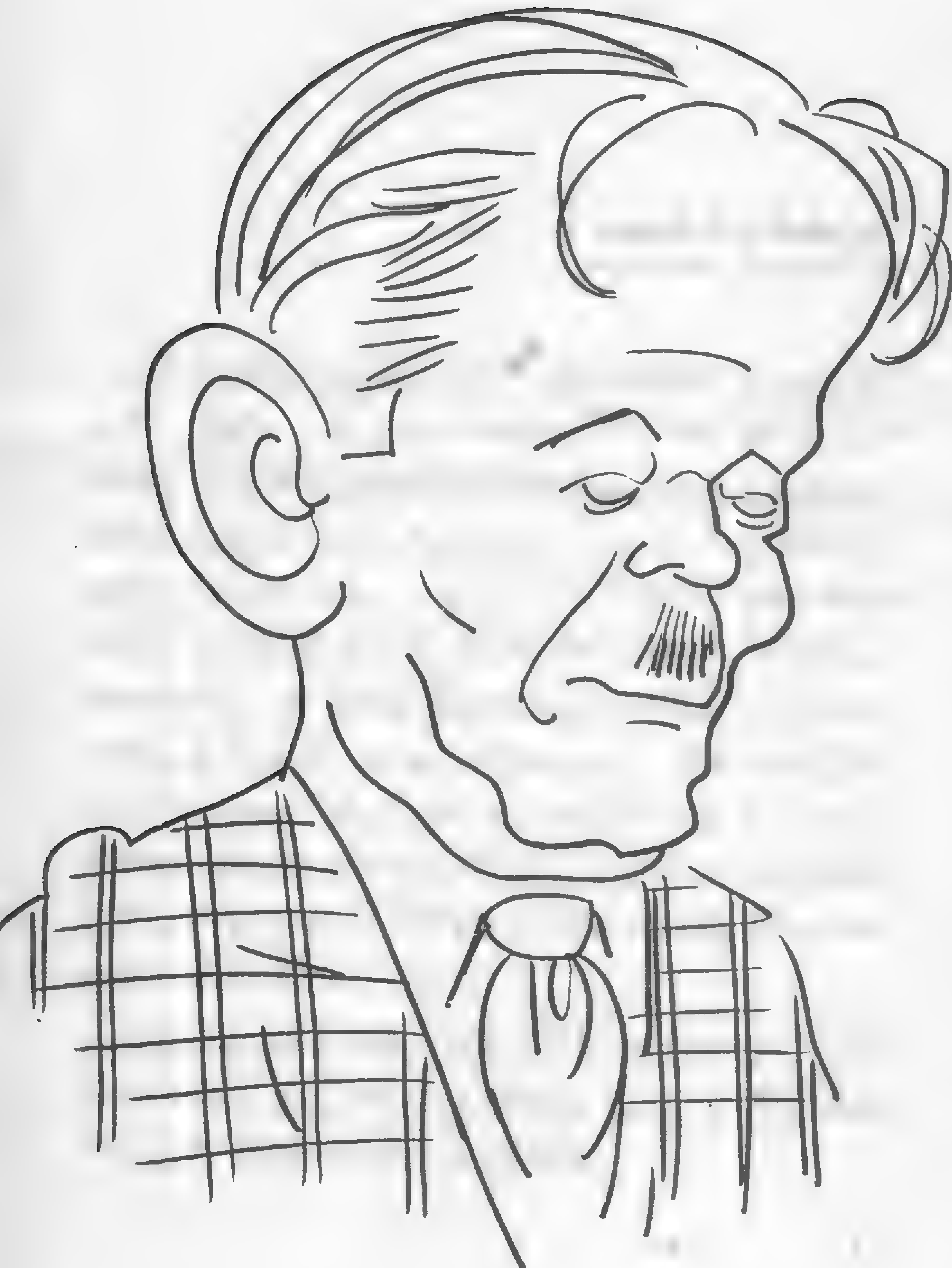
إن الأدب العظيم هو دائماً المعبر الحقيقى عن آمال الإنسان ، وتشوقه الدائم إلى العدل . . والأمان . . والكرامة الإنسانية ، والمساواة بين الجميع أمام القانون .

ولقد قالت قصة تشيكوف الساخرة كل ذلك . . بأبسط الكلمات، وأقربها إلى قلب الإنسان وعقله . . فهل عرفت لماذا لم أنسها أبداً حتى الآن ؟.

سهرة مع عبقرى !

لم تكن سهرة فى مسرح يحيى ذكراه . . ولا أمام شاشة تليفزيون تعرض عملاً من أعماله ، وإنما فى بيت صديقى الأديب أحمد بهجت . . و« الجمهور » لا يزيد عن خمسة أو ستة أشخاص . فقد كنت فى زيارته ، ووجدت لديه ابنه الشاب محمد بهجت ، وهو محرر أدبى بالأهرام ، وشاعر من شعراء العامية ، وقد جاء لزيارة أبيه مع زوجته الطبيبة الشابة، مع اثنين أو ثلاثة من أصدقاء أحمد بهجت . . والوقت بعد منتصف الليل . وقد نال منى الإجهاد وعملِ اليوم الطويل ؛ فأحسست بحاجتى إلى شىء ينبِّه حواسى ، ويجدد روحى ، فاقترحت على أحمد بهجت أن « نسهر » بعض الوقت مع « صديقنا المشترك » . . وتحمس للاقتراح ، وأشار إلى ابنه الشاب ، فنهض وراح يبحث بين رفوف مكتبه أبيه التى تغطى جدران الشقة كلها ، وعاد إليه بعد قليل بكتاب أصفر مهلهل ، وضعه أمامه .

وتناول أحمد بهجت الكتاب ، وراح يقرأ لنا منه ، ونحن نستمع إليه باستعداد نفسى مسبق للاستمتاع والابتهاج . ومن حين لآخر ينفجر الحاضرون فى الضحك ، كأننا فى مسرح فكاهى .



واستمر « العرض » حوالى ساعة ، تبادل الإلقاء خلالها الشاعر الشاب مع أبيه . . وانتهت الفقرة التى أطربتنا ونشطت روحنا ، فعدنا إلى ما كنا فيه من حديث ! .

أما الكتاب المهلهل ، فقد كان ديوان بيرم التونسى من طبعة قديمة . وأما الغريب ، فهو أن الحاضرين جميعاً قد قرأوه عدة مرات ، وبعضهم يحفظ أجزاء منه . . ومع ذلك . . ففى كل مرة نسمع فيها صوره الشعرية الساخرة . . فإننا نضحك منها . . ونعجب لها ، وهذا هو الفارق الحقيقى بين الأدب الساخر الأصيل . . وبين النكتة العابرة التى تضحك لها حين تسمعها أول مرة . . وتضيق بها إذا كررها عليك أحد أكثر من مرة .

والشىء الذى يحيرنى كلما استعدت أشعار بيرم العبقرية ، التى تمثلت فيها الشخصية المصرية بكل جوانبها ، ومازالت تشيع البهجة فى أرواحنا كلما سمعناها . . هو هذا السؤال الذى لم أجد له إجابة حتى الآن ، وهو: كيف يستطيع فنان أن يبدع مثل هذا الأدب الساخر الذى ينبض بالحب للحياة والناس . . وروحه مشبعة بكل هذا القدر من المرارة والجهامة . . بل والسوداوية ؟ ! .

وبمعنى آخر . . كيف يستطيع من لا يضحك هو نفسه أن يضحكنا؟ ! . . فالذى لا يعرفه كثيرون هو أن بيرم التونسى ـ على المستوى الشخصى ـ كان إنساناً ممرورا متجهما ، ينفر من الناس ، ولا أبالغ إذا قلت : بل ويكرههم ، ويضيق بهم ، وتغلب عليه نظرة الشك

فى نيّاتهم ضده . . فضلاً عن أنه لا يحس بجدوى التكريم الأدبى ، أو المعنوى ، ولا يشغله من أدبه إلا ما سوف يجنيه منه من عائد مادى بسيط . وإذا تحدث لأحد ، لم يكن حديثه إلا شكوى من مطربة أكلت حقوقه ، أو من الإذاعة التى أهملت أوبريت إذاعيا له . . أو من سماجة المتطفلين عليه ! .

أذكر أننى سألت ذات يوم صديقى الفنان العظيم الراحل محمد عبد المنعم رخا ـ وكان من أصدقاء بيرم ـ نفس هذا السؤال ؛ فأجابنى بأن بيرم كان مهموماً باستمرار بمطالب الحياة . . ولا يستطيع أن يكتب فى بيته ، فيخرج إلى أى مقهى ويكتب فيه . . فإذا تعرّف عليه أحد . . وابتهج لرؤيته ، واقترب منه محيياً أومعبراً عن إعجابه . . تجهم بيرم فى وجهه ، وأعرض عنه ، حتى لا يتشجع بترحيبه ويجالسه ، فيمضى الوقت فى «كلام فارغ » من وجهة نظره ، ويضيع النهار دون أن يكون قد كتب شيئاً يكسب به « رزق العيال » ـ على حد تعبير بيرم الحرفى لرخا ـ متشكيا من « سماجة » هؤلاء السخفاء ، الذين يريدون إضاعة وقته فى مثل هذا العبث .

وتذكَّرت حين سمعت ذلك أننى رأيت بيرم التونسى مرتين أو ثلاث ، صاعداً أو هابطاً سلم مبنى الإذاعة القديم بشارع الشريفين ؛ فأعطانى نفس الانطباع ، وهو أنه رجل متجهم ، عازف عن الناس ، ولا يريد أن يسمح لأحد بالاقتراب منه ، يتكتم زمجرة تنتظر اللحظة المناسبة لإطلاقها فى وجه أول مقتحم لعزلته .

وتذكرت فيها بعد ما قرأته فى آخر كُتب الأديب العظيم الراحل يحيى حقى عنه ، وهو كتابه الممتع « كناسة الدكان » ، الذى اختار له يحيى حقى هذا العنوان الفريد ، كأنها يريد أن يقول للقراء ـ بتواضعه المعروف ـ أنه لم يعد لديه ما يضيفه إلى ما قدمه من إبداع . . سوى هذه الذكريات التى يعتبرها « كناسة » عطائه الأدبى . . بعد أن أفلس «الدكان» ، وباع صاحبه الصِّنجة والميزان ! .

فقد حكى يحيى حقى أنه كان فى شبابه هو وكل أفراد أسرته من المعجبين بفن بيرم التونسى وأزجاله ، وأنه لم تكن تظهر له قصيدة زجلية جديدة فى المجلات والصحف ، وإلا واحتفلوا بها ، وتلوها فى جلساتهم العائلية ، وضحكوا لها كثيرا ، واستمتعوا بها . وكان بيرم فى ذلك الوقت منفياً من مصر بقرار من الحكومة ، ويقيم فى فرنسا ، ويعمل عاملاً فى المصانع ، أو حَمَّالاً فى الموانىء ، أو يتعطل لفترات طويلة باحثاً عن عمل . . ويعتمد فى معظم الأوقات على ما يبعث به من أزجال وأشعار ومقالات إلى أصحاب المجلات الصغيرة فى مصر . . وينتظر بلهفة ما يرسلونه إليه من جنيهات قليلة يسد بها رمقه ، أو يسدد ديونه . ثم فاض إعجاب الأديب « الشاب » يحيى حقى بفن بيرم ، فكتب عنه مقالاً نقدياً جيداً ، ونشره فى إحدى المجلات ، وأرسل المجلة إلى بيرم على عنوانه فى باريس ، بعد حصوله عليه من إدارة المجلة .

وترقَّب كلمة أو إشارة من الشاعر الكبير ، يطمئن بها إلى أنه قد قرأ مقاله عنه ، ونال بعض إعجابه ، فلم يتلق أية كلمة أو إشارة .

ومضت السنوات ، وعاد بيرم إلى مصر بعد ذلك ، وعاش لفترة متخفياً عن الشرطة ، خشية أن تعيد ترحيله من مصر مرة أخرى ، إلى أن صدر العفو عنه ، وأمن على نفسه . . فظهر فى المجتمعات الأدبية . والتقى به يحيى حقى فى إحدى المناسبات ، فاقترب منه مبتهجاً بالفرصة الذهبية التى أتيحت له للحديث مع الأديب الشعبى الذى فُتن به ؛ فصدم قليلاً فى البداية بتجهمه وعدم ترحيبه بالتعرف على الغرباء، لكن يحيى حقى تجرأ ـ رغم ذلك ـ وغالب خجله ، وذكره بأنه سبق أن كتب عنه مقالاً فى إحدى المجلات ، وأرسله إليه فى باريس منذ سنوات ؛ ففوجىء ببيرم يثور عليه فجأة ، ويصيح فيه : أهو أنت ؟ . . الله يخرب بيتك ! .

واضطرب يحيى حقى اضطراباً شديداً ، وتصور أنه قد أساء إليه فى مقاله من حيث لا يدرى ، لكن صدمته كانت أبشع حين علم منه سبب ثورته ، وهو أن بيرم كان حين وصلته المجلة إلى باريس مفلساً كالعادة ، ثم جاءه إخطار من مكتب البريد بأن له طرداً من القاهرة محفوظاً فى المكتب ، فأسرع إلى مكتب البريد ليتسلمه ، آملاً أن يكون من صاحب المجلة التى يحررها فى مصر ، حاملاً إليه حوالة بريدية ببضعة جنيهات ، وفى مكتب البريد فوجىء بأنه مطالب بدفع عشرين فرنكا كرسوم أرضية ، لأن الرسالة وصلت منذ شهر ، ولم يتيسر تسليمها له ، لأنه كان قد غَـيَّـر عنوانه عدة مرات . ولم يتردد بيرم فى دفع الرسوم، وكانت آخر ما بقى معه من نقود، وخرج من مكتب البريد

حاملاً الرسالة ، وفتحها بلهفة على بابه ، فما إن وجد فيها رسالة الناقد الشاب وعرف مضمونها ؛ حتى ألقى بها وبالمجلة على الأرض ساخطاً ، دون أن يفتحها ، وعاد إلى غرفته كارهاً الحياة والفن والناس ! . واختتم بيرم روايته للقصة قائلاً ليحيى حقى «بشماتة » غير مفهومة :

ـ هكذا تعرف أنى لم أقرأ مقالتك يا سيدى ! .

فانصرف عنه يحيى حقى مصدوماً فى هذا الجانب المعتم من شخصية الفنان الشعبى العبقرى . . ولم يفكر بعد ذلك فى الاقتراب منه مرة أخرى . . ومع ذلك . . فإنه لم يفقد إعجابه القديم به ، واستمر مفتوناً بفنه عن بعد .

وأذكر أيضاً أننى ناقشت ذات مرة صديقى «العمدة» عمدة الكتاب الساخرين فى الوطن العربى الأستاذ : محمود السعدنى فى رأى أبداه خلال ندوة له مع قراء مجلة الشاب ، كان مضمونه أن الكاتب الساخر لابد أن يكون فى حياته الخاصة إنساناً خفيف الدم والروح ، لكى يبدع فناً ساخراً يضحك الآخرين ؛ فذكَّرته بنموذج بيرم التونسى الذى كان صعباً أن «يتهمه» أحد على المستوى الشخصى بخفة الروح أو الدم ، ومع ذلك . . فقد أبدع فناً ساخراً ، بلغ القمة فى خفة الظل . . فأجابنى بأن معاناة بيرم فى سنوات المنفى الطويلة من شظف العيش ، وقرص الجوع والبرد ، ونذالة بعض أصحاب المجلات الذين أكلوا مستحقاته ، وهو غريب بائس ، لا يستطيع الدفاع عن حقوقه . . كل ذلك قد أكسبه نظرة سوداوية للحياة . . وسوء ظن غالبًا بالناس . . لكن روحه الساخرة

ظلت كامنة تحت السطح ، فأبدع ما أبدع ، رغم المرارة التى تسكنه ! .

وهذا صحيح إلى حد كبير . . لكن هذه النظرة السوداوية ظلت رغم ذلك تطل برأسها من حين لآخر فى أشعاره ؛ فتضحكك . . وتثير تأملاتك، وتعجبك فى نفس الوقت ! .

انظر إليه إذن بعد كل ما رويته لك عن جهامة بيرم التونسى فى حياته الشخصية ، كيف يستطيع فى شطرة واحدة أن يصدم مشاعرك ، ويضحكك رغم أنفك حين يستهل قصيدة له بهذا البيت «الإيمانى » الجميل :

أشهد بأن المولى قدير

صاحب تدبير

فتقول حين تسمعه : ومن ذا الذى لا يشهد له بذلك ؟! ، وتتهيأ لاستقبال الشطرة التالية ، التى لابد أنها ستكون استطراداً لهذا المعنى الإيمانى ، فإذا به يفاجئك فيها بهذه اللطمة الساخرة :

وإننا احنا ناسات خنازير

من دون الناس !

ثم يمضى فى قصيدته بعد ذلك ، منتقداً بعض العادات الاجتماعية والظواهر الأخلاقية ، بقسوة وإبداع ، فيقدم لك مثلاً صورة ساخرة لاذعة للموظف الذى يخون أمانة العمل ، فيقول :

يدخل لَفَندى على المكتب . . يدوق المكسب

ويلتقوه سِيدْ من ينهب   أربع تخماس

يدرِز جيوبه ومنديله   باللى يجيله

وأُمّه الأروبة تدعى له   فى أبو العباس ! .

أو يصور لك معاناه المواطنين مع البيروقراطية والتعقيدات الإدارية فى هذه القصة الزجلية ، التى تروى عن أسرة مات عائلها ، وترك ثمانى بنات ، وأربعة أبناء ؛ فباع أرشدهم ميراث الأسرة ، ليفتح به محلاً تجارياً يعولها من إيراده . وبدأ عذابه مع إجراءات الروتين :

قال فهمى افندى : الرفوف تبعد عن الجدران

وحسنى افندى يقول : الحيطة ناقصة دهان

وبكرى افندى حكم بالغلق على الدكان

وقال حسين بيه حسين : الفتح فى الإمكان

عبال ما فاتت سنة فى المنح والحرمان

ضاع رأس ماله ، وباع الصنجة والميزان ! .

أو اسمعه مثلاً ينتقد بمرارة الأحوال فى الأربعينيات ، فيقول :

إلا البلد يا ولاد مالها

مقلوب حالها

فى عز عصر استقلالها

شِبعتْ تشخير !

أو ينتقد تخلف المرأة فى مصر نسبياً عن المرأة الأوروبية ، التى راقب أحوالها خلال سنوات النفى فى فرنسا ، وأعجب بها ، فيقول :

يا بنت بزيادة الكافية

ونوم بلا قافية

يا شيك يا حافظة الجغرافيا

يا أم الزنّار

الجارة سمعت تشخيرك

من مناخيرك

واستعجبت من تأخيرك

والدنيا نهار !

أو يسجل غيظه من اندفاع البعض إلى الشجار والنزاع بلا سبب جدِّى ، فيقول :

من هفوه أو كلمة هايفة ننحمق ونقوم

نسب وندب ويقوم العراك بالشوم

وكل محموق وله فرقة تقوم بهجوم

من قبل ما تعرف الظالم . . من المظلوم !

ومن يقرأ ديوان بيرم ـ أو دواوينه ـ سوف يلتقى بكثير من هذه الانتقادات اللاذعة . . حتى ليهيأ للبعض أن هذا الشاعر يتعالى على قومه ، أو يكره الحياة بينهم ، خاصة حين يقارن فى بعض أشعاره بين كل ما أعجبه فى أوروبا ، وبين ما لم يعجبه فى شعبه وبلده فى قصيدته الشهيرة التى يقول مطلعها :

هاتجن يا ريت يا اخوانا مارُحتش لندن والاّ باريز

دى بلاد تمدين ونضافة وذوق ولطافة وحاجة تغيظ

لكن هذا الانطباع غير صحيح بكل تأكيد . . فقد عاش بيرم عشرين سنة فى المنفى ، لا يحلم بشىء ، سوى بالسماح له بالعودة لمصر، ليعيش فى حواريها وشوارعها وأحيائها الشعبية ، ويتنفس هواءها، ويشكو مع الشاكين من بعض أحوالها .

بل لعلك ستعجب حين تعرف أنه وهو يعيش فى بلاد «التمدين والنظافة» ، ووسط مجتمع المهاجرين المغاربة والتونسيين إلى فرنسا ، لم يكن يعتبر نفسه منهم ، رغم أصله التونسى ، وإنما كان يشكو من غربته وسطهم ، ومن نفوره من طعامهم ، ولا يرى فى نفسه إلا نبتاً مصرياً أصيلاً ، اقتلع من أرضه رغماً عنه ، وحكم عليه «بالشتل» ، أو أن يغرس فى هذا المجتمع «الغريب» عليه ! .

وينـظر حوله متحسراً على ابتعاده عن البيئة الشعبية المصرية بشخوصها ورموزها ، وحتى شرابها وطعامها ؛ فيتأوه قائلاً :

ولا سطل خروب يسعفنى

ولا ابـن نكتـة يكيّفنـى !

ويشترى جهاز راديو حين يسمع بافتتاح محطة الإذاعة المصريه لإرسالها فى الثلاثينيات ، ليستمع إلى صوت بلاده فى الغربة ، فيخيب الراديو أمله ، ويكتب شاكياً :

أرض الحبايب بعيدة   يا لهفتى عالحبايب

أو يروى كيف تسلل إلى مصر فى قصيدة «الغربة» الشهي[illegible] يقول فى مطلعها :

غلبـت أقطـع تذاكـر   وشبعـت يـارب غربـة

إلى أن يصل إلى ختامها الأخاذ للقلب والمشاعر :

وأقـولكـم بالصراحـة   اللـى فى زماننـا قليلـة
عشرين سنة فى السياحة   وأشـوف مناظر جميلـة
ما شفت يا قلبى راحـة   فى دى السنين الطويلة
إلا أمـا شفـت الملايـة   واللبـدة والجلابيـة !

وليس فى هذه المشاعر الصادقة ـ فى تقديرى ـ أى تناقض . . . فسخط بيرم على ناسه وأهله . . كان سخط المحب الذى يريد لمحبوبه أن يكون أفضل وأرفع ، وليس سخط الكاره المنتقص ، أو المحكوم بعقدة التعالى على قومه . وهذا هو الفارق بين الفنان الذى يستشعر

رسالته كمصلح اجتماعى ، حتى وإن لم يصرح بذلك ، وبين الدعىّ الذى لا يعى دور الفن فى تنبيه الشعوب وعلاج الأخطاء . . لكن ما لم أستطع تفسيره تفسيراً منطقياً مقبولاً حتى الآن ـ رغم كل ذلك ـ هو : كيف استطاع بيرم أن يفرز كل هذا الرحيق الشهى وهو متجهم . . لا يبتسم ؟! ، أو وهو يتعامل مع فنه الراقى كما يتعامل «النجار» مثلاً مع أدواته التى يكسب بها رزق العيال ؟! .

لقد روى لى الفنان رخا ـ رحمه الله ـ أنه نقل إليه ذات يوم إعجاب شاعر كبير معاصر ، وكيف أنه يراه أعظم من أنجبه شعر العامية فى الشرق .إلخ ، فاستمع إليه بيرم صامتاً متشككاً فى صدق مشاعر القائل، ثم قال له باقتضاب : ما عدوّك . . إلا ابن «كارك» ! . و«الكار» هو المهنة بلغة الحرفيين والصنايعية . . فهل تصدق ذلك ؟! .

وروى لى الفنان رخا أيضاً أن من كتب أعذب كلمات الحب التى غنتها أم كلثوم من ألحان زكريا أحمد ، قد دخل على أم كلثوم حجرتها بمسرح الأزبكية فى الاستراحة خلال إحدى حفلاتها ، حين قدمت أغنيته الرقيقة «الآهات» لأول مرة ؛ فوجد المعجبين من كبار القوم حولها يشيدون بفنها وبكلمات الأغنية الجميلة التى كتبها بيرم ؛ فتوقعت أم كلثوم أن يسعده ذلك ، أو يعلق عليه بكلمة تعبر عن رضاه أو شكره للمادحين ؛ فلم يزد عن أن قال لها بلهجة التحذير : المرة القادمة بثلاثين جنيه ! . . . أى استعدى لأن تدفعى «علاوة» خمسة جنيهات عن تأليف الأغنية القادمة . . . وكان ثمن أغنية الآهات ٢٥ جنيها ! .

والحكايات عن بيرم كثيرة . . وكلها تؤكد هذا التناقض العجيب . والغريب أنه كان ناثراً مجيداً ، كما كان شاعراً عبقرياً . وقد كتب آلاف المقالات والمشاهد الحوارية التى نشرها فى المجلات المختلفة ، وجمع بعضها فى كتاب صغير اسمه « السيد ومراته فى باريس » ، سجل فيه ما يشبه المذكرات واليوميات الانتقادية الساخرة على شكل حوار بالعامية بينه وبين زوجته . وهذا الكتاب من أجمل ما قرأت فى النقد الاجتماعى الساخر ، وفيه صور درامية أخَّاذة ، توحى لك بما يريد كاتبها ، دون أن يفصح عما يريد ، أو يصرح . .

وقد اعتبر يحيى حقى هذه المشاهد الحوارية قصصاً قصيرة ، تتوفر فيها كل شروط القصة الفنية . . ومع ذلك . . فاقرأ ماذا كتب عنه بيرم فى مقدمة طبعته الأولى : « كنت أحرر إحدى الصحف الأسبوعية فى مصر ، وأنا مقيم فى فرنسا . وبعد أن أفرغ من موضوعات الجريدة ، أكمل ما بقى من فراغها بهذه المقالات !. وفى اعتقادى أن القراء سيعتبرونها من المواضيع التى تملأ بها الصحف صفحاتها الأخيرة ، كمقالات الهواة ، والإعلانات ، ولكن شاء الحظ أن تحظى هذه المقالات ـ دون غيرها ـ بإعجاب القراء ، وأن يطبعها صاحب الجريدة فى كتاب كهذا ، ويوزعها . . بل شاء الحظ أيضاً لهذا الكتاب أن تختاره كلية برلين لتدريس اللغة العامية المصرية فى قسم اللغات الشرقية بها ، لأنها وجدته خير كتاب يصلح لهذا الغرض !» .

فهل هو «الحظ » وحده ، كما قال بيرم ، مستهينا بما كتب ، أم أنه

استطراد عجيب لنظرة «الأسطى النجار » إلى أداة هامشية من أدوات «الشغل» ، لا يتوقع أن يكون لها شأن كبير ، بالمقارنة بالشاكوش والمنشار؟ ، أم هى الموهبة الطاغية التى تسيل من قلمه ، دون جهد منه ، فتذكرنا بقول نقاد الأدب فى المقارنة بين الشاعرين العربيين جرير والفرزدق حين قالوا :

كان جرير «يخشُب» أى يرسل الشعر إرسالاً ، دون تنقيح أو مراجعة ، وكان الفرزدق ينقح الشعر ويجوّده . ومع ذلك . . فلقد كان «خشب» جرير أفضل كثيراً من تنقيح الفرزدق !.

وكيف تفسر فى النهاية قدرة بيرم على تمثُّل الشخصية الشعبية المصرية بهذه الدرجة الخرافية من الصدق العجيب ، وهو تونسى الأب والجد ؟!

أو كيف أبدع مئات الألوف من أبيات الشعر العامى الساحر والأوبريتات . . والملاحم الغنائية . . والأغانى العاطفية الراقية . . وهو يتعامل مع فنه بهذه النظرة العجيبة ، التى لاتختلف كثيراً عن نظرة الحرفيين «للكار» الذى يمارسونه ؟!.

لا تفسير عندى لذلك إلا أنها «العبقرية» التى لا تخضع لأى مقاييس أو قواعد ، والموهبة الطاغية التى تثقب الصخر ، لتطل برأسها منه ، كما يثقب ماء النبع قشرة الأرض ؛ ليسيل على سطحها . . فيرتوى منه الظامئون ، حتى ولو كره النبع ماءه ، أو لم يعرف له قدره . . أو يحتفل به .

هذا هو تفسيرى . . فهل عندك تفسير آخر ؟.



مجوز ، «أى توءم» أخرجت خلالها للحياة ١٧ «مواطناً» ، وكنت أنا عضواً فى «المجوز» الرابع والأخير من سلسلة حشو وتفريغ أحشاء المواطنة المصرية هانم مرسى نجم . . وجرت كل «الكوارث» التى رويتها يوم مجيئى للحياة ، ونزلت إلى الدنيا ، متهما بارتكاب جريمة قتل داخل رحم أمى !» .

أما السبعة عشر «مواطناً» الذين أنجبتهم أمه ، فقد بقى منهم على قيد الحياة خمسة فقط ، وسادس لم يره كاتب السيرة فى طفولته وصباه ، وإنما سمع أنه مفقود من الأسرة منذ سنوات ، وعاش يسمع من أمه تحسرها على فقده ، وأمنيتها الوحيدة فى أن تراه مرة أخرى ، قبل أن تودع الحياة . وأما الخمسة الباقون ، فقد كانت تسميهم «بقيّة الموت» ، وتفخر بهم ، رغم شكواها لطوب الأرض من شقاوة وعفرتة هذا الولد الأخير ، الذى فاقت شيطنته كل خيال .

أما الولد الشقى ، فهو شاعر العامية المصرية الفذ أحمد فؤاد نجم ، الذى حملت إلىَّ ابنته طالبة الإعلام مذكراته ، موقعه بإهداء شخصى منه ، فما إن قرأت بضع صفحات منها ، حتى عجزت عن التوقف ، وطلع علىَّ الصباح وأنا أقرأ الجزء الأول منها مسحوراً بهذا العالم السفلى الغريب الذى تتحدث عنه بصدق وجرأة نادرين ، وتنتابنى نوبات مفاجئة من الضحك الغلاب [illegible] أثناء القراءة

وإلى أن قـرأت فيما بعد مذكـرات الاديب المغربى محمد شكرى ، لم أكن قـد قرأت شيئًا شبيهًا بمذكـرات أحمـد فـؤاد نجـم ، التى أصدرها

وبهذا «الاتهام» الخطير تختتم الأم فى كل مرة سردها التاريخى لأحداث «اليوم الأسود» الذى شهد خروج هذا الطفل المشاغب إلى الحياة . وصدقت فراسة الأم فيه إلى حد كبير . . فكما رفض النزول إلى الحياة بالطريقة الطبيعية ، وفضَّل ـ كما قالت أمه ـ أن ينزل إليها «ماشياً» ، فقد عاش عمره كله ماشياً ـ كما يقول ـ فى بلاد الله خلق الله ، يلاطم الحياة وتلاطمه ، ويأبى أن يلتزم بضوابطها وقوانينها . . ويفعل ما يحلو له حين يحلو له ، مهما كان خارجاً على المألوف ، ومهما كانت العواقب! .

وأما الأم ، فلقد كانت فلاحة مصرية جميلة ، أُمِّية ،لا تقرأ ولا تكتب، لكنها محدِّثة موهوبة بالفطرة ، تجيد الكلام ورواية الحكايات والنوادر والأمثال ، وتصوير الشخصيات تصويرًا لاذعاً وصادقاً يبعث الضحكة من الأعماق ، وحين يغلبها الشجن تغنى بصوت جميل مواويل حزينة فى شكوى الزمان وغدر الأيام . وكانت جميلة أيضاً . . ذلك الجمال الطبيعى الذى لم تخالطه صنعة ، فبشرتها بيضاء ، وشعرها أصفر، وعيونها فيروزية اللون ، وقد تزوجت ابن عمها ضابط الشرطة الوسيم المتعاجب ، صاحب العلاقات النسائية العديدة ، فتحملت مسئولية الحياة صغيرة . . وعايشت الخوف من أن يتهدم عشها فى مغامرة من مغامرات الزوج الكثيرة ، فقررت أن تهزم مُجونه واستهتاره بالأبناء والمسئوليات العائلية ، ووضعت ـ كما يقول صاحب السيرة الذاتية بالحرف الواحد ، وبلغته التلقائية الفريدة ـ « ١٣ بطنا ، منها ٤

مجوز ، «أى توءم» أخرجت خلالها للحياة ١٧ «مواطناً» ، وكنت أنا عضواً فى «المجوز» الرابع والأخير من سلسلة حشو وتفريغ أحشاء المواطنة المصرية هانم مرسى نجم . . وجرت كل «الكوارث» التى رويتها يوم مجيئى للحياة ، ونزلت إلى الدنيا ، متهما بارتكاب جريمة قتل داخل رحم أمى !» .

أما السبعة عشر «مواطناً» الذين أنجبتهم أمه ، فقد بقى منهم على قيد الحياة خمسة فقط ، وسادس لم يره كاتب السيرة فى طفولته وصباه ، وإنما سمع أنه مفقود من الأسرة منذ سنوات ، وعاش يسمع من أمه تحسرها على فقده ، وأمنيتها الوحيدة فى أن تراه مرة أخرى ، قبل أن تودع الحياة . وأما الخمسة الباقون ، فقد كانت تسميهم «بقيّة الموت» ، وتفخر بهم ، رغم شكواها لطوب الأرض من شقاوة وعفرتة هذا الولد الأخير ، الذى فاقت شيطنته كل خيال .

أما الولد الشقى ، فهو شاعر العامية المصرية الفذ أحمد فؤاد نجم ، الذى حملت إلىَّ ابنته طالبة الإعلام مذكراته ، موقعه بإهداء شخصى منه ، فما إن قرأت بضع صفحات منها ، حتى عجزت عن التوقف ، وطلع علىَّ الصباح وأنا أقرأ الجزء الأول منها مسحوراً بهذا العالم السفلى الغريب الذى تتحدث عنه بصدق وجرأة نادرين ، وتنتابنى نوبات مفاجئة من الضحك الغلاب [illegible] أثناء القراءة

وإلى أن قرأت فيها بعد مذكرات الاديب المغربى محمد شكرى ، لم أكن قد قرأت شيئًا شبيهًا بمذكرات أحمد فؤاد نجم ، التى أصدرها

بعنـوان : «مذكـرات الفاجـومى» ، فى جرأتهـا فى الاعـتراف بالأخطـاء . . بـل و«بالجـرائم» والنقائـص الشخصية . . وفى صدقهـا ، وفى لغتها العجيبة الخـارجــة على المألـوف فى مواضـع كـثيرة . . ومــع ذلك . . فهى لغة فنِّية ، يصعب على أى كاتب آخر ـ سوى نجم ـ أن يكتب بها .

فهل تريد ان تدخل معى إلى هذا العالم العجيب الذى يسميّه كاتب المذكرات «جمهورية القاع» ، أى قاع المجتمع ، لتتأمل وتضحك . . وتستفيد ؟ .

إذن فاقرأ معى ما كتبه «الفاجومى» ـ وهو بالمناسبة اسم الشهرة للشاعر بين أصدقائه ـ عن أمه الجميلة التى أحبها بصدق ، وأحبته كثيراً رغم شيطنته . لقد أرادت بذكائها الفطرى أن تستحوذ على زوجها ، بعد أن أثقلته بالأبناء ، حتى لا يستمر فى شطحاته ونزواته وصعلكته المسائية فى جلسات الكيف والورق ؛ فقررت أن تجتذبه إلى بيتها من مجالس الأنس وسهرات المقاهى ، وتعلمت سراً كل ألعاب التسلية ، من لعب الورق بكل أنواعه ، إلى الدومينو بنوعيها، إلى الطاولة بكل ألعابها . . وظلت تدرِّب نفسها عليها ، حتى أتقنتها تماماً ، ثم فاجأته بلاعبة على مستوى المحترفين ، تتحداه أن يلاعبها . . وراحت تلاعبه كل ليلة ، وتهزمه ، رغم كل محاولاته للغش والخداع فى اللعب التى يلحظها الأبناء، ويضحكون لها سراً .

وكسبت هذه الجولة ضد رفاق سهرات الزوج فى مجالس الأنس . .

أما الجولة الثانية ، فقد كسبتها كذلك ، ليس ضدهم وحدهم ، وإنما أيضاً ضد قانون العقوبات ! . . فلقد كان الزوج من أهل الكيف ، فهيأت له فى بيتها مجلساً كامل الأدوات لتدخين المزاج ، ولأن الكيف يحب المشاركة . . فقد شاركته شد الأنفاس «صد رد » ـ كما يقول الفاجومى ـ وأصبحت ـ رغماً عنها ـ صاحبة مزاج ، لترضيه وتجتذبه إلى بيته وأولاده ! .

ولم تكتف بذلك ، وإنما شاركته أعباء الحياة بشرف وإخلاص ، وتنقلت معه فى كل المدن والقرى التى عمل بها كضابط شرطة ، إلى أن استقر بهما المقام أخيراً فى بلدتهما الأصلية عزبة أبو نجم ، بجوار مدينة الزقازيق .

وإلى هذه الأم الذكية بالفطرة ، والموهوبة فى الكلام . . والسخرية والحكايات يُرجع أحمد فؤاد نجم أبرز سمات شخصيته وموهبته ، فيقول : أنه تعلم «اللماضة» من أمه . . وأن أهم مواهبه ـ وهى «موهبة الحُمق والاندفاع» ـ قد ساهمت أمه ـ بتغاضيها عنها ، بل وبإعجابها أحياناً بها ـ فى ترسيخها وتنميتها لديه ، حتى شكَّلت مجرى حياته العجيبة فيما بعد! .

ودخل الولد الشقى كُتَّاب القرية . . فخصص ربع صفحات الجزء الأول من مذكراته تقريبا لشتم شيخ هذا الكتاب ، والزِّراية به! . فقد كان الشيخ ـ كما يقول الفاجومى فى مذكراته ـ يتقاضى أجره عن تعليم

التلاميذ مرة واحدة سنويا فى موسم المحصول ، فيقدم له أغنياء القرية كيلة قمح ، ومتوسطو الحال كيلة ذرة ، والفقراء كيلة شعير . . فكان الشيخ يقسم التلاميذ تبعاً لذلك تقسيماً «فئوياً» ، فتجلس فرقة القمح عن يمينه . . وتجلس فرقة الذرة فى الوسط . . أما فرقة الشعير ـ والعياذ بالله ـ فيجلس أفرادها عن يساره ، وفى مقدمتهم الطفل أحمد فؤاد نجم بالطبع ! وكان أهل اليمين هم الذين يحضرون للشيخ كل صباح ما لذ وطاب من الأطعمة . . وينالون مقابل ذلك الاحترام المبالغ فيه ، والتحيات لآبائهم وأمهاتهم ، ولا تقترب منهم عصا الشيخ بالضرب أبداً .

وكان أهل الوسط يُضربون ـ أحياناً ـ برفق فى حالة الخطأ الشديد ، أو عدم الحفظ فقط .

أما أهل اليسار ، فكانوا الهدف الدائم واليومى لشومة الشيخ الثقيلة وعصاه ، إلى جانب شتائمه الفاحشة لهم ولآبائهم وأمهاتهم كل يوم ، حفظوا أَمْ لم يحفظوا . . ويا ويلهم لو راق مزاج الشيخ ، فحكى نكتة سخيفة ، ولم يضحك لها واحد من فرقة الشعير ؛ فالشومة تنزل على رأسه فوراً ، عقاباً له على غبائه وعدم لماحيته ! .

ومن بين أفراد فرقة الشعير ، تميَّز الفاجومى الصغير بجرأته الشيطانية على الشيخ ، رغم ما ناله من هراوته ، فيصارحه برأى أمه فيه ، وكيف أنه رجل «ضلالى» . ويطارده الشيخ وهو يعلن للأشهاد أن فى هذا الولد بذرة شيطانية ، والعياذ بالله ! .

ويبدو أن ذلك صحيح بشكل أو بآخر ! . . . وإلا فكيف تفسر هذه الهواية الشيطانية التى تستولى على لُبِّ ذلك الصبى الصغير فى القرية . . وهى رجم الكلاب بالطوب ، ومفاجأتها وهى غافلة أو نائمة بحجر ثقيل يهوى على رؤوسها ، فتولى الأدبار وهى تنبح وتعوى وتئن من جراحها؟! . لقد أعلن «الحرب» على الكلاب . . وراح يطاردها فى كل مكان من القرية ، ولا يكف عن مطاردتها ، رغم ما يناله من أذاها . . ولقد لازمته هذه الهواية فيما بعد . . حين أصبح شاعراً موهوباً ، فتخصص فى رجم « الكلاب البشرية » بطوب شعره وهجائه . . وتعرض لأنيابها وأذاها معظم سنوات حياته فيما بعد .

أما هواية سرقة المانجو من حديقة الخواجة كارنو ، فقد كانت شطارةً وسَدّاً لاحتياجات غذائية .

وأما هواية سماع المواويل الريفية وحفظها وترديدها بصوت جميل ، فقد كانت إرهاصاً بموهبة الشاعر الكامنة فى أعماقه . . وموهبة المؤدى أيضاً الذى شغل المثقفين فى العالم العربى بأغانيه النارية الجريئة قبل هزيمة يونيو وبعدها . . والتى لحنها رفيق رحلته الفنية الشيخ إمام ، وراح نجم يرددها معه بصوته .

لكن هذا حديث لم يأت أوانه بعد . . ونعود الآن لنصاحب الفاجومى الصغير ، فنراه يستمتع بحياته فى حوارى القرية ويعشقها ، إلى أن مات أبوه فجأة وهو صغير السن ، والتهم أعمامه حق ورثته ، أو

لعله بدّده فى مغامراته قبل أن يموت ، فاسْوَدّ وجه الحياة أمام الأسرة ، وثقلت عليها أعباؤها .

وذات يوم جاء إلى بيت الأسرة خاله حسين ـ الذى يقيم فى الزقازيق ـ ليزور شقيقته ، ولاحظ الطفل أنه وأمه يتهامسان وهما ينظران إليه بإشفاق . . ثم بكت الأم فجأة ، ونهضت واحتضنت ابنها . . واصطحبته إلى غرفتها ، وبدلت له ملابسه ، وألبسته جلباب العيد الماضى . . واحتضنته مرة أخرى وبكت . . وقالت له أنه سيسافر مع خاله إلى الزقازيق ليلتحق بالمدرسة هناك ، ويعود إليها فى إجازة الصيف .

وخرج الخال مصطحباً ابن اخته ، الذى سار معه واجماً لا يبكى . . إلى أن رأى فى الطريق شلته من الصبية الصغار الذين كان يتزعمهم فى الغناء والشيطنة وهم يغنون بدونه ، فانسابت دموعه لأول مرة ، وناح باكياً : آه . . يا حبيبتى يا أمه ! . . فاحتضنه الخال ، وهوّن عليه حزنه ، ثم ركبا القطار معاً إلى المدرسة ! .

ولم تكن « المدرسة » التى اصطحبه إليها خاله سوى ملجأ الأيتام بالزقازيق ، دخله وعمره سبع سنوات فى عام ١٩٣٦ ، وغادره وعمره سبعة عشر عاما ، عام ١٩٤٥ . وفى هذا الملجأ حاول أن يتعلم صناعة الأحذية . . ثم خياطة الملابس ، وفشلت محاولاته فشلا ذريعا . والتقى داخله بولد آخر صغير يتيم ، قست عليه ظروف الحياة ، فأودعته أسرته نفس الملجأ ، والتحق فيه بفرقة الموسيقى النحاسية لكن قائد الفرقة

الأخرى الوترية ـ عازف الكمان الموهوب : محمود أفندى حقى ـ كان يخصّه بعطفه ، وحين يكون المنوب بالمبيت فى الملجأ ، كان يستدعيه مع الفاجومى . . ويعزف على كمانه تقاسيم ساحرة ، ثم يدعو هذا الولد اليتيم لمصاحبته بالغناء ، فيغنى معه الولد ـ وهو عبد الحليم حافظ ـ الأغانى الشائعة بصوت جميل مُثقل بالحزن والشجن ، ومن بعده يأتى دور نجم فى الغناء .

عشر سنوات كاملة عاشها أحمد فؤاد نجم فى ملجأ الايتام بالزقازيق ، لكنه لا يحكى عنها الكثير للأسف فى مذكراته ، مع أنها أثَّرت فى حياته وشخصيته آثاراً لا تمحى . وقد انضم إليه فيه بعد سنوات شقيقه محمد ، حين عجزت أمهما عن الاستمرار فى دفع مصاريف الدراسة له بالمدرسة الابتدائية . وبعد هذه السنوات خرج نجم مرة أخرى إلى الحياة الواسعة . . . فعاد إلى قريته وعمل لفترة (كلاَّفا) أى راعياً للبهائم لدى إحدى عماته ، واصطحبه شقيقه بعدها إلى القاهرة ليعيش معه على سطح أحد البيوت القديمة .

وانتهت تجربته الأولى مع القاهرة بعد فترة قصيرة ، بطرد شقيقه له ، وإعادته إلى القرية . . فبقى بها سنوات ، إلى أن عمل فى أحد المعسكرات الإنجليزية « ترزيا » . . وشارك بجرأته المعهودة فى مساعدة الفدائيين الذين كانوا يقومون بعملياتهم ضد الإنجليز فى منطقة القناة . . والتقى لأول مرة فى حياته بالمثقفين اليساريين الذين شاركوا فى هذه العمليات ، ثم ألغت حكومة الوفد عام ١٩٥١ المعاهدة المصرية

الإنجليزية ، ودعت الحركة الوطنية العمال المصريين بالمعسكرات الإنجليزية إلى ترك العمل بها . . فكان « الفاجومى » من أول المستجيبين ، وعينته حكومة الوفد عاملاً بورش النقل الميكانيكى ، لكنه ـ كالعادة ـ لم يطل به العمل بها . . فلقد ارتكب جريمة تزوير لاستمارات شراء الأقمشة بأسماء موظفى الورش لاختلاس قيمتها ، بالاشتراك مع ساع خبير باللوائح الإدارية ، وألقت الشرطة القبض عليه ، وساقته إلى التحقيق ، فشاهد زميله فى الجريمة معلقاً من قدميه ، والمخبرين ينهالون عليه بالضرب المبرح ، فلم يحتمل المشهد ، وصاح : « كفاية يا كفرة . . سأعترف بكل شىء » . . ولاحقه صوت الساعى المعلق كالذبيحة لائماً : « لماذا ؟ . . الله يخرب بيتك » . وقضت المحكمة عليه بالسجن ثلاث سنوات فى سجن قره ميدان ، فمن تظن أنه قد التقى به داخله ؟ . لقد سمع أحد رفاق السجن يتحدث بإعجاب عن لص خزائن اسمه على ، ويخلع عليه لقب « ملك الخزائن » و « عمدة السجون المصرية » . . وأثار انتباهه تشابه اسمه مع اسمه . . ثم التقى به فى أحد الممرات ، فبُهت حين رأى لون عينيه ، الشبيه بعينى أمه . وسأله عن اسمه بالكامل وهو يرتجف . . فأجابه : على محمد عزت نجم .

وصاح الفاجومى منفعلاً : وما هو اسم أمك ؟

فاجابة بصبر غريب على أمثاله : هانم !

فأحس الفاجومى بالأرض تميدبه . . وصاح بانفعال : أخويا ! .

وارتمى فى حضنه وهو يبكى بشدة ، فسأله الآخر ـ وكان رجلاً متوسط العمر ـ باندهاش : من أنت ؟

فأجابه من بين دموعه : أنا أخوك فؤاد .

فدهش الآخر ، وتمالك نفسه ، وسأله :

ـ أخويا فؤاد ؟ . . ماذا جاء بك إلى هنا ؟

فأجابه الآخر ضاحكاً من بين دموعه : جاء بى إلى هنا ما جاء بك .

وضحكا معاً ، واصطحب الشقيق الأكبر شقيقه ، وقدمه لزملاء زنزانته صائحاً بصوت جهورى :

ـ أخويا أهوه يا مجرمين ياكفرة . . يا أولاد الكلب ! .

فنهض المساجين مرحبين بشقيق العمدة . . واستمتع الفاجومى بحمايته ورعايته طوال سنوات السجن .

ألم أقل لك من قبل أننى لم أقرأ مذكرات شخصية لأديب أو شاعر فى جرأة وصراحة وغرابة هذه المذكرات ؟ ! .

جمهورية القاع

مفـــترق الطريـــق

فى عامه الأخير فى السجن الذى دخله لارتكابه جريمة تزوير واختلاس خلال عمله بورش النقل الميكانيكى ، ولد « الشاعر » لأول مرة فى أعماق أحمد فؤاد نجم ، وتحدَّد طريقه فى الحياة . . فداخل جدرانه كتب أولى قصائده . . وأعلنت الموهبة عن نفسها فى ندوات السجن الأسبوعية التى يحضرها ضباط السجن مع المسجونين .

وفى هذه الندوات لفت الشاب النحيل المشاكس أنظار الضباط بموهبته الفطرية الشيطانية فى الشعر العامى . . وفى الإلقاء المعبر . . وأعجب به ـ على وجه الخصوص ـ ضابط فنان ، كانت له محاولات أدبية فى كتابة القصة ، اسمه الرائد/ سمير قلادة غطاس ، وشاركه الإعجاب به مدير السجن، الضابط الكبير المتذوق للأدب والشعر ، اللواء / إبراهيم عزت ، فشجَّعا موهبته ، وحثَّاه على الاشتراك فى مسابقة الكتاب الأول ، التى كان ينظمها المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ، وكانت جائزتها مبلغا بسيطًا ، ثم إصدار العمل الأول للكاتب الناشىء على نفقة المجلس . وأحضر له الرائد سمير الورق ، ونسخَ له قصائده على الآلة الكاتبة ، وقدَّم مخطوط الكتاب للمجلس الأعلى .

ونسى فؤاد نجم الموضوع كله بعد أسابيع . . إلى أن فوجىء بالحرس يؤدى ذات يوم نوبة « انتباه كبير قوى » على حد التعبير الشائع فى السجن، وبدخول الضابطين عليه يهنئانه بفوزه بالجائزة .

وكان موعد الإفراج عن فؤاد نجم يقترب . . فصدر ديوانه الأول من شعر العامية المصرية « صور من الحياة والسجن » وهو ما زال سجيناً ، وكتبت له مقدمته الدكتورة سهير القلماوى ، واستقبلت الأوساط الأدبية الديوان بحفاوة ، وكُتبت عنه المقالات والدراسات فى الصحف والمجلات ، وخرج السجين « الجنائى » أحمد فؤاد نجم إلى الحياة شاعراً شبه معروف فى الأوساط الثقافية .

ويواصل الشاعر المشاكس رواية قصة حياته العجيبة فى كتابه «مذكرات الفاجومى » التى يرسم فيها صورة صادقة لقاع المجتمع المصرى، أو « لجمهورية القاع » كما يسمّيها، فيحكى أنه بعد خروجه من السجن توجه إلى مجلس الفنون والآداب ، وتسلَّم عشر نسخ من ديوانه الأول ومضى بها مزهواً ، وعلم من أحد موظفى المجلس أن الدكتورة سهير القلماوى ـ الأستاذة بكلية الآداب ، والناقدة الأدبية الكبيرة ـ ترغب فى رؤيته . . فتوجَّه إلى بيتها ، واستقبلته بترحيب كبير ، وعلمت منه ظروفه ، فكتبت له خطاب توصيه إلى الأديب الراحل يوسف السباعى سكرتير عام المجلس ، وتوجه بالخطاب إلى مكتب السباعى، وبعد يومين صدر قرار بتعيينه موظفاً بمرتب شهرى قدره ١٢ جنيها فى منظمة تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية ، التى يشغل السباعى فيها منصب السكرتير العام .

وبدأت رحلة الشاعر الجديد فى الحياة الأدبية ، وبعد أيام ذهب إلى الإذاعى الكبير طاهر أبو زيد، الذى كان يقدم فى ذلك الوقت من أواخر الخمسينيات برنامجاً إذاعيا شهيرا اسمه « جرّب حظك » ؛ فرحب به بحرارة ، وسجل له حلقتين ، روى فيهما قصة حياته ، وبعض أشعاره، وقدَّمه طاهر أبو زيد للمستمعين بكلمة تقديم حماسية ، قال فيها : تذكَّروا هذا الاسم جيداً . . . فسوف يلمع ويحلّق فى سماء الشعر عن قريب . وصاحب هذا الاسم قد دفعته ظروف الحياة إلى طريق الجريمة، ثم إلى غياهب السجن ، لكن « الشاعر » داخله انتصر على الجريمة وقسوة الظروف ، وترجم آلامه ومحنته إلى قصائد عَذْبة تقطر بالحزن والأمل فى نفس الوقت ! .

وصفق جمهور البرنامج بحرارة للشاعر الجديد ؛ وأصبح نجم شاعراً من شعراء الإذاعة ، وموظفاً فى منظمة دولية . وأقام نجم فى غرفة مستقلة بدورة مياه مشتركة مع جيرانه فى شقة ببيت الست أم عبلة التمرجية بمستشفى قصر العينى فى حى بولاق الدكرور ، الذى كان معروفاً وقتها بين القاهريين باسم « الصين الشعبية » لزحامه الشديد ، وانخفاض مستوى الحياة فيه .

وكان من الممكن أن تمضى حياته على هذا النحو إلى نهاية العمر ، فيظل موظفاً فى منظمة التضامن ، وشاعراً غنائياً ، يكتب أغانى الحب المعتادة للإذاعة ، أو لمطربى الأفراح ، ويتزوج من « عبلة » بنت صاحبة البيت ، التى حاولت إغراءه بالزواج منها « بثرائها » النسبى ، وامتلاكها

للبيت الذى يقيم فيه ، لولا أن حدث حادث آخر ؛ حوّل مجرى حياة هذا الشاعر العجيب ، وقطع ما بينه وبين ماضيه الحافل بالعذاب والأخطاء !، فلقد تعرف نجم على صديق لأحد أقاربه ، قرأ ديوانه ، وجُنَّ به إعجاباً ؛ فدعاه الصديق الجديد لزيارة شيخ كفيف من تلاميذ الملحن القديم الشيخ درويش الحريرى ، صوته مبحوح ، ولكن جميل . . وعزفه على العود ساحر ، وشخصيته فريدة . . وتبعه نجم فى شوارع القاهرة ، حتى وصلا إلى بيت قديم فى حارة صغيرة من حوارى القاهرة الفاطمية ، اسمها « خوش قدم » أى قدم الخير بالتركية ، أو « حوش آدم » كما ينطقها العامة . . وفى هذا البيت القديم المتهالك التقى بمن قُدّر له أن ترتبط حياته به ، وأن يشغلا معاً الأوساط الأدبية والثقافية فى مصر والعالم العربى لسنوات طويلة . . وأن يتزاملا فى رحلة الشهرة والتأثير والاعتقال أكثر من مرة ! .

فقد التقى فى هذا البيت المتهالك وفى شقه صائغ فقير غير متعلم ، اسمه محمد على بالشيخ إمام عيسى ، الملحن الذى رفضته الإذاعة وقتها ، ويتكسب رزقه الشحيح بالإنشاد فى بطانة منشد دينى معروف ، وبيع ألحانه له لينسبها لنفسه .

وانعقدت « جلسه الكيف » ترحيباً بالوافد الجديد ، وغنّى الشيخ إمام ألحانه ، التى لم تعترف بها الإذاعة . . وردد معه الغناء محمد على ، وشاركهم الترديد فؤاد نجم صاحب اله ءت ااقبول ، وطالت السهرة حتى الفجر ، ثم « خمدت » النار أخيراً فى موقد الفحم . . وجاء موعد

الانصراف ، فانصرف الصديق المشترك سعد الموجى ، ودعا (نجماً) للخروج معه للعودة إلى مسكنه ، لكن الشاعر المتمرد على كل القيود كان قد عرف طريقه بعد طول تخبط ، فرفض النزول ، وقرر البقاء إلى ما لا نهاية مع الشيخ إمام . . وقال لمحمد على : أُريد أن أنام هنا ، وأدفع لك إيجاراً شهرياً !

وسأله الرجل باستغراب : أين تنام ؟ .

فأجابه : فى أى مكان . . على هذا « الجوال » مثلا . . المهم أننى «قتيل» هذا المكان . . ولن أبرحه أبداً . وعاد الرجل يسأله : وماذا عن منقولاتك وملابسك فى مسكنك الآخر ؟ فيجيبه بلا تردد بأنه سيتركها لصاحبة البيت ، وفاءً لحقها عليه فى الإيجار ، وأكَّد قراره الجديد بأن أخرج مفتاح سكنه القديم ، وطوَّح به من النافذة . . وسلَّم صاحب «المطرح» برغبة هذا الصديق الجديد المجنون ، متعجباً ومؤكدًا له أنه «ثورجى » ، ورأسه « أوسخ » من رأس صديقه الآخر محمود اللبان ! .

وبدأت ثنائية نجم والشيخ إمام ، التى أثارت اهتمام المثقفين فى مصر والعالم العربى ، وأزعجت السلطات المصرية طويلاً .

ففى هذه الشقة القديمة المتهالكة ، التى تكاد تخلو من أى أثاث . . أبدع أحمد فؤاد نجم أشعاره الوطنية الملتهبة بجرأه شيطان لا يهاب سلطة الدولة ، أو القانون ، وإنما يتبع شيطان الشعر ، وحسَّ الجماهير الصادق ، مهما قاده ذلك إلى المتاعب ! .

وفيها لحن إمام أغانيه الحرّاقة الفريدة ، وراح يرددها كل ليلة مع أفراد شلة الأنس ، التى اكتملت بانضمام نجم لها . وتحوّلت صالة الشقة إلى جلسة متصلة ، تبدأ من الظهر ، وتستمر حتى مطلع الصباح ، ويحج إليها المثقفون الذين يسمعون أشعار نجم ، وألحان الشيخ إمام ، ويتعجبون من تلقائيتها وصدقها ، وقدرتها العجيبة على تحدِّى الأوضاع السائدة .

فسمع المثقفون لأول مرة أغنية تترجم ما يحسُّون به من ضيق مكتوم بالانتهازية والشللية ، وسيطرة العسكريين على مقاليد الحكم والوظائف المهمة فى مجتمعهم ؛ وتمايلوا طرباً وهم يسمعون الشيخ إمام يغنّى من كلمات نجم :

شيِّلنى وأشيلك ، دنا برضه فرحتلك
وأنا بتاعك يا بيه ، وأعرف ما أعرفش ليه
وكام عبد المعين لا بد فى المسئولين
وأنا بتاع كل حاجة ، ودراعك اليمين
وهتَّاف الوزير . . وسوَّاق المدير
ومهماز المدام . . ونبوت الغفير !

وضحكوا من أعماقهم على حكاية شعبان البقال الذى « تنظَّف وتوظَّف . . عقبال الأنجال » ، وتبيَّن بعد البحث والتحرّى أن «الحكمة

الإلهية فى نظافة شعبان » هى أن « أخانا شعبان بن بهانة . . اتجوز فنانة ، واتعيِّـن فنان » ! .

واستمتعوا بأغنية « ع المحطة » ، وما يجرى على المحطة مما يثير الضحك والاستياء والتأمل ! .

ونفَّسوا عما يحسون به من غبن وسخط ، وهم يرون « الكلمنجية » يتصدرون الصفوف فى تنظيمات الاتحاد الاشتراكى وقتها ، ويغيِّرون من هويتهم وأفكارهم السياسية حسب مقتضى الحال . . فعبَّروا عن شماتتهم فيهم بالاحتفال بأغنية نجم التى تقول :

ـ حلا ويللا يا حلا ويللا

ـ يا خسارة يا حول اللاَّ

ـ الثوْرى النوْرى الكلمنجى

ـ هلاَّب الدين الشفطنجى

ـ قاعد فى الصف الأكلنجى

ـ شكالاطة وكراميللا ! .

وتوالت زيارات المثقفين للبيت القديم فى حارة « خوش قدم » ، ومعهم جاءت أجهزة التسجيل تسجل هذا الفن الجديد وتنشره ، وتحولت شقة الصائغ البسيط غير المتعلم إلى ورشة عمل فنية . . فى النهار تشهد ميلاد القصائد وتلحينها ، وفى الليل تتحول إلى ندوة فنية وسياسية متصلة وحافلة بالمناقشات والأفكار .

وفى صمت . . راح الشاعر ـ الذى وجد نفسه فى هذا المكان ـ يرقب المثقفين ويتعلم منهم، ويضيف إلى معارفه الجديد والجديد .

وبجرأته فى الاعتراف بالأخطاء والنقائص ، روّى نجم أن حجازى الرسام سأله ذات يوم : هل قرأت أشعار بيرم التونسى ، فأجابه ـ كما يقول ـ بكبرياء مفتعل : ولم يعجبنى ! .

فإذا حجازى الذى يعرفه جيداً يضحك ويقول له : يا بن كذا ياكذاب . . سأعطيك أعمال بيرم لتقرأها « مرة أخرى » ! .

ولم يكن نجم ـ كما يعترف فى مذكراته ـ قد قرأها من قبل ، وإنما حاول التظاهر بأنه قد قرأها ولم تعجبه ، ليكتمل له المظهر الثقافى الجديد . وقرأ نجم دواوين بيرم التونسى التى قدمها له حجازى لأول مرة ؛ فأصابه مسٌّ من الجنون ، واعترف له « بالزعامة » الشعرية العامية بلا منافس . ولم يخف إعجابه به بعدها لحظة ، وهذا هو صدق الفنان الأصيل فى أعماق نجم ، رغم الادعاءات المؤقتة . . أو « الأكاذيب » الصغيرة .

ومضى عام كامل منذ طوَّح نجم بمفتاح سكنه السابق من النافذة ، واستقر فى حارة خوش قدم ، جرت خلاله أحداث مثيرة للدهشة ، تحكيها هذه المذكرات العجيبة فى بساطة غريبة ، منها أن الشاعر الشريد كاد يفقد وظيفته فى منظمة التضامن ، حين انتدب مع زميل له للقيام بعمل مندوب المنظمة لدى هيئة البريد خلال أجازته . وفى اليوم الأول

لهما فى هذا العمل . حملا بريد المنظمة إلى الهيئة ، وقبل أن يصلا إليها سأل أحدهما الآخر :

ـ هذه الخطابات مفروض أن تُرسل بالبريد المسجل ، فهل ستضار شعوب آسيا وأفريقيا كثيرا لو أرسلناها بالبريد العادى ، وحصلنا نحن على « الفرق » ؟ .

فأجابه الآخر : أبداً . . بل ولن تخسر شيئاً ، حتى لو حُلّت المنظمة نفسها ؟ .

وعلى الفور نفَّذا الفكرة الطارئة ، وخرجا بمبلغ صغير . وفى اليوم التالى رفض زميله الاستمرار معه فى العملية ، فأداها نجم وحده ، لكنه فوجىء بزميله يطالبه « بنصيبه » من إيراد اليوم ، وإلا فسوف يشى به لإدارة المنظمة وبفضل موهبة الحمق والاندفاع التى يفخر بها نجم فى مذكراته ، ويعتبرها من مواهبه ، رفض بإصرار أن يبتزه زميله ، وليفعل ما يشاء . . فإذا « بابن المجنونة قد فعلها فعلاً » وأبلغ المنظمة . وبدأ التحقيق معه ، واشتمَّ نجم شماتة المحقق فيه ، وتحمسه لفصله ؛ فلم يتردد فى أن يلعن له أباه ، بل وأبا من كلفه أيضاً بهذا التحقيق ، ولم يكن سوى يوسف السباعى نفسه الذى عينه فى المنظمة ! .

وغادر نجم المنظمة إلى بيته ، عازماً على عدم العودة إليها مرة أخرى . وفى البيت وجد نفسه يكتب قصيدة يصور بها حاله ، والمحقق الشرس يحاول افتراسه بكل الطرق ، فكانت قصيدة « عصفور وصياد » المعروفة ، التى يقول فى مطلعها :

ـ يا صيَّاد الطيور يا خال

ـ صباعك عن زناد الموت

ـ دَنا عصفور ضعيف الحال

ـ ولا اكفيش عيالك قوت !

وأرسل القصيدة إلى يوسف السباعى بالبريد ، ففوجىء به يأتى إليه بنفسه فى مسكنه الحقير فى خوش قدم ، ويصطحبه إلى المنظمة ، ويدعوه إلى فنجان قهوة فى مكتبه ، ويبلغه إعجابه الشديد بالقصيدة ، ثم يلغى التحقيق ويعيده إلى عمله ، موصياً بإبعاده عن الأعمال التى يمكن أن تغرى شيطان التمرد داخله بالخروج من معقله ! .

وللحديث عن كتاب أحمد فؤاد نجم « مذكرات الفاجومى » . . بقية ! .

دمـــوع القاضـــى!

إذا كنت لم تملّ بعد الحديث عن «مذكرات الفاجومى» للشاعر المشاكس أحمد فؤاد نجم ، التى أعتبرها من أصدق وأجرأ نماذج أدب الاعتراف والسيرة الذاتية فى المكتبة العربية ، فسوف أواصل الحديث عنها فى هذا المقال ، لنغوص من جديد مع نجم فى «جمهورية القاع» ، التى عاش فيها زهرة حياته ، ووصفها بأصدق ما يمكن أن توصف به الحياة فى قاع المجتمع المصرى .

وقد توقفنا عند حادث «الاختلاس الصغير » ، الذى كاد أن يفقد معه نجم وظيفته المتواضعة فى منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية ، لولا أن أنقذته قصيدة «عصفور وصياد» . . وبعد اطمئنانه على مصدر رزقه ، واصل حياته العجيبة فى مسكن خوش قدم مع الشيخ إمام .

ومع ذيوع أغانيهما نسبياً عبر أجهزة التسجيل فى أوساط المثقفين ، توافد على البيت القديم شعراء آخرون ، وظهرت مشروعات لنشر ألحان الشيخ إمام ، وإذاعتها فى الإذاعة والتليفزيون . . ولكن يبدو أنها كانت

تشترط أن تكون بكلمات أقل اندفاعاً من كلمات نجم ، الذى لا يعرف حدوداً لما يقال وما لا يقال ؛ فبدأ الوافدون الجدد يضيقون باستحواذ نجم على الشيخ إمام وسيطرته عليه . . وبدأت الخلافات التحتية بين أفراد الشلة الدائمة فى بيت خوش قدم ، وأصبح الحل فى تصورهم لانطلاق ألحان الشيخ إمام إلى الذيوع والشهرة، هو إبعاد هذا الشاعر المشاغب عنه ، خاصة وأنه يتدخل فى الألحان ، ويشاكس الجميع بلا استثناء ، رغم طيبة قلبه ، وسرعة نسيانه للإساءة .

وتوصل صاحب الشقة التى يؤجر نجم إحدى غرفها إلى قرار نهائى بضرورة «طرد» نجم من مسكنه لإبعاده عن إمام ، لكن كيف يتم إبلاغه بأنه شخص لم يعد مرغوباً فيه فى هذا البيت ؟ . .

فكّر فى أى طريقة يمكن أن تخطر لك على بال . . ولن تعرف أبداً الطريقة العجيبة التى قام بها الصائغ محمد على بإبلاغ نجم بضرورة أن يذهب إلى غير رجعة ! . . فلقد عاد نجم من عمله فى المنظمة فى الظهر، وهمَّ بأن يدخل غرفته ، ففوجىء بأن الكليم المفروش بها تتوسطه دائرة كبيرة من الفضلات الآدمية التى تنبعث منها رائحة بشعة تزكم الأنوف ، فتراجع مذهولاً ، وسأل محمد على عمَّن وضع ذلك «الشىء المقزز» على أرضية غرفته ؟، فإذا به يجيبه ببساطة : أنا . . ! ويسأله بالطبع : لماذا ؟ ! ، فيجيبه الآخر بثبات : لكى تفارقنا ! .

وكلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، فوجىء الشاعر بصديقه ينتفض، ثم يطيح فيه ضرباً . . فلم يتقاعس بالطبع ؛ وبادله ضرباً

بضرب ، إلى أن حسم المعركة نزول جار لمحمد على ، رافعاً رقبة زجاجة مكسورة ، يريد أن يذبح بها نجم . . فانسحب من المعركة ، بعد أن أحس بأن الأمر مدبر بإحكام لطرده ، والاعتداء عليه .

وخرج الشاعر الطريد من حارة خوش قدم ، وانقطعت صلته بالشيخ وإن لم يعرف أبداً هل شارك فى هذه «المؤامرة» . . أم اكتفى بعدم الاعتراض عليها ؟! . وبعد شهور أبلغ الرسام حجازى (نجما) ان الشيخ إمام مريض ، ويبكى لفراقه ، ويتمنى أن يراه . . فلم يطق صبرا، وهرول عائداً إليه ، وصرخ الشيخ الكفيف حين «شمَّ» رائحة نجم فى صالة بيت خوش قدم : يا حبيبى ! .

وبكى . . وحاول أن يشرح لنجم أسباب ما جرى ، لكن (نجماً) ـ طيب القلب ـ رفض أن يسمع شيئاً . . وطالبه أن يُسمِعه غناءه الذى افتقده طوال هذه الشهور اللعينة . وعلى الفور سحب إمام عوده . . وغنَّى وردد معه نجم الغناء . . وعاد الصديقان إلى تعاونهما الفنى وصداقتهما ، كأن شيئاً لم يكن ! .

ألم أقل لك من قبل أنى لم أقرأ سيرة ذاتية فى غرابة وجرأة هذه السيرة على الاعتراف بما يخجل كثيرون من الاعتراف به ، وتسجيله فى مذكراتهم؟ .

خذ مثلاً ما حدث حين ذهب الشيخ إمام ونجم بعد عدة شهور إلى مبنى الإذاعة والتليفزيون لتسجيل بعض الأغانى . . فقد استوقفهما

رجال الأمن ، وسألوهما عن هويتهما ، فتشاكس معهم الشيخ إمام قليلاً، ثم قدم لهما نفسه . . وزميله : الشاعر المعروف أحمد فؤاد نجم ! .

ويبدو أن ملابس الملحن والشاعر الرثَّة لم تكن «مقنعة» تماماً لرجال الأمن ، فسخر أحدهم من لقب الشاعر ، وتساءل مستظرفًا : شاعر بإيه؟ شاعر بمغص ؟ . وتمادى آخر فى الاستظراف ، فطالبه بأن ينشده شيئاً يقنعه بأنه شاعر ؛ فاستيقظ شيطان «الحمق والاندفاع» فى نفس نجم ، وقال له على الفور :

أمك اسمها حنفى

وأبوك عايش فى كَنَفى ! .

وفى لحظات . . كان نجم وإمام يتدحرجان على سلالم مبنى الإذاعة والتليفزيون ، ورجال الأمن يطاردونهما بالشلاليت! .

وازداد انتشار هذا الأدب السرّى الجديد فى أوساط المثقفين وبيوت الطبقة الوسطى ، رغم حرمانه من الذيوع عن طريق وسائل الإعلام .

وذات يوم قرأ نجم خبراً عن تقديم طالب جامعى فقير بلاغاً للشرطة ضد السيدة أم كلثوم ، لأن كلبها قد عضَّه وهو فى طريقه إلى كلية التربية الفنية بجوار فيلّتها ، فمزق بنطلونه ، وأدمى جسمه . . بعد أيام قرأ خبراً آخر عن حفظ النيابة للتحقيق فى هذا البلاغ ، تقديراً لخدمات السيدة أم كلثوم الجليلة لمجتمعها .

وإلى هنا لم يتعجب فؤاد نجم لحفظ القضية ، وترضية الطالب بعيداً

عن الإجراءات الرسمية . . لكن ما أثار عجبه وضيقه بحق ، هو ما قرأه فى إحدى الصحف من تصريح فاجر فى كذبه وادعائه ينسب إلى الطالب قوله أنه «سعيد» ، لأن كلب أم كلثوم قد عضَّه ! .

فلم يطق الشاعر المتمرد صبراً على هذا النفاق الرخيص ، رغم أنه من دراويش أم كلثوم المفتونين بصوتها ، وكتب على الفور قصيدته الشهيرة «كلب الست»، التى يقول فى مطلعها :

ـ هيص يا كلب الست هيص

لك مقامك فى البوليس

بكره تتولّف وزارة

للكلاب . . ياخدوك رئيس !

وتوالت قذائف الأدب السرى من كلمات نجم وألحان الشيخ إمام . ومع كل قذيفة جديدة ترتفع درجة السخونة ، وتسرى كلماتها بين الرأى العام بطريقة سحرية . وكعادة نجم فى التمرد على كل شىء ، تمـرَّد أيضاً على حبّه الشخصى لجمال عبد الناصر ، وإيمانه به ، حين سمعه ينفى فى إحدى خطبه ظهور «طبقة جديدة» من إفراز المجتمع الاشتراكى الذى أراد إقامته فى مصر ، تستمتع بكل الامتيازات على حساب المجموع المحروم ، وتستأثر بالمناصب وفرص التقدم ، فكتب قصيدته الشهيرة التى يسخر فيها من صيغة «تحالف قوى الشعب العامل» ، التى قام على أساسها تنظيم الاتحاد الاشتراكى القديم ، وهى قصيدة :

يعيش أهل بلدى

وبينهم مفيش

تعارف يخلّى

«التحالف» يعيش !

ثم وقعت نكبة ٥ يونيو ؛ فزلزلت كيان نجم ، كما زلزلت كيان الملايين من أبناء مصر والعالم العربى .

وعلى كثرة ما قد تقرأ عن نكبة يونيو ومرارتها ، فلن تقرأ أبداً تعبيراً كهذا العنوان الفريد الذى اختاره نجم لفصل حديثه عن النكبة ، والذى يلخِّص فيه المأساة كلها فى كلمات صادقة ولاذعة : «وفى ٥ يونيو خاب أمل الحشاشين»! أى الحالمين الذين صدقوا تخاريف « أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط فى البر والجو والبحر » ، «وجعير» أحمد سعيد فى ميكرفون صوت العرب ، مهدداً بدخول تل أبيب .

يا إلهى . . لقد اختزل نجم النكبة كلها وأسبابها فى هذا العنوان العبقرى العجيب . وشرخته الهزيمة شرخاً غائراً ، لاشفاء له منه ؛ ففقد حبه الكبير لعبد الناصر . . وبدأ يهاجمه شخصياً فى قصائده وكانت ذروة تعبيره عن صدمة الشعب فيما جرى فى يونيو هى قصيدة ، «الحمد لله خبَّطنا تحت باطاطنا يا محلى رجعة ظباطنا من خط النار !» .

والتى ينهيها نجم بهذا الهجوم الصريح على عبد الناصر ، الذى لم يجرؤ عليه شاعر قبله :

وإن شا الله يخربها مداين

عبد الجبار . . عبد الجبار !

والعجيب أنه قبل أيام من تأليفه لهذه القصيدة ، كان بين الجموع التى خرجت إلى الشوارع ، وزحفت إلى بيت عبد الناصر ، تطالبه بالعدول عن قراره بالتنحى عن الحكم . . لكن لا غرابة فى ذلك . . فهذا هو أحمد فؤاد نجم ، الذى يتحكم فيه نبض رجل الشارع وتلقائيته . . وقد كان صادقاً مع نفسه فى كلا الموقفين ، كما كان صادقاً معها أبلغ الصدق أيضاً حين رثى بلده عقب الهزيمة مباشرة فى قصيدته «الجنائزية» الحزينة غاية الحزن :

ـ ناح النوّاح والنواحة

ـ على بقرة حاحا النطاحة ! .

وكان صادقاً أيضاً حين تمالك نفسه بعدها بقليل ، وكتب قصيدة :

واه . . يا عبد الودود

يا رابض على الحدود

التى يشد فيها أزر جنود بلاده ، ويطالبهم بالثأر للهزيمة البشعة التى خذلتهم فيها القيادة ، وسوء التقدير .

وفى أعقاب هزيمة يونيو ، ومع زحف المثقفين إلى بيت خوش قدم ، وتقديم الناقد الأدبى الكبير رجاء النقاش لإمام ونجم فى برنامج

تليفزيونى شهير كان يعده للتليفزيون ، تحول الاثنان معاً إلى ظاهرة فنية وثقافية وسياسية فريدة شغلت الجميع . . وتزاحم الصحفيون والكتاب والفنانون على بيت خوش قدم ، وانهالت الدعوات على نجم وإمام لإحياء السهرات المنزلية فى بيوت المثقفين ونجوم المجتمع ، وانهالت التحقيقات الصحفية عنهما . . وتوالت التحليلات «السياسية» للظاهرة، فقال البعض فى مصر أنها الرد الشعبى على الهزيمة العسكرية، وقال آخرون أنها «إرهاصة» مرحلة جديدة «ومخاضها» . وفى تونس والمغرب قالوا عنهما أنهما «الشجب التحتى » للنظام الحاكم . وفى سوريا ولبنان قالوا عنهما أنهما صوت نقمة الجماهير . . وفى العراق قالوا أنهما : «زمجرة الغضب الآتى » .

وتوالت مقالات كبار نقاد الأدب والفن . . وقال الدكتور لويس عوض عن فؤاد نجم أنه شاعر جرىء جرأة «مريبة»! .

وقال عنه محمود حسن إسماعيل لرجاء النقاش حين زاره نجم فى مكتبه بالإذاعة معه : ناشدتُك الله . . هذا شاعر ! .

وأصبحت أغانى نجم وإمام «الهادئة نسبياً» تذاع فى الإذاعة والتليفزيون ، ويعرفها الجميع ، والأغانى الملتهبة «تذاع» فى حفلات النقابات المهنية ، وفى السهرات الخاصة ، وتلهب المشاعر والقلوب ! .

وتدارس «أولو الأمر» هذه الظاهرة المزعجة ، وكيفية مواجهتها . وكان تقدير أحدهم فى اجتماع لمجلس الأمن القومى وقتها أنها «صرخة

جوع ، يمكن أن نقتلها بالتخمة»! . وبتدبير مقصود . . فتحت خزينة الإذاعة والتليفزيون أبوابها بحساب مدروس للشاعر والملحن عن أعمال غنائية هادئة ، تذاع على الجماهير . ولكن هيهات أن يسكت أحد صوت الشاعر المتمرد ، أو ينجح فى إفساده ، فهو نار ملتهبة لاتطفئها محاولة للرشوة ، أو الاحتواء .

ويعود أولو الأمر للتقييم ، فينتهون إلى صيغة وسط . . هى أن يدعا نجم وإمام يعبّران عن جراح الهزيمة بقدر محسوب من الانفلات ، وأن تبدأ محاولات سرِّية لاجتذاب الشيخ إمام بعيداً عن نجم صاحب الكلمات النارية ، وإفساد علاقتهما الوثيقة ، لكن محاولات الاختراق تفشل ؛ فيزداد ضيق مراكز القوى فى النظام بهما ، وتقرر اعتقالهما ، ولكن بقدر أقل من الخسائر المتوقعة لقرار اعتقال سياسى سيثير ضجة كبيرة فى أوساط المثقفين فى مصر والعالم العربى . ولا يحارون طويلاً فى ذلك . . فما أسهل تلفيق قضية تعاطى مخدرات لهما ، وكلاهما من أهل الكيف فعلا .

وفى فجر أحد الأيام التالية ، تلقى الشرطة القبض على إمام ونجم والصائغ الذى يؤجر لهما غرف شقته . ويقف نجم أمام ضباط الشرطة فى إدارة مكافحة المخدرات ، فيلاحظ معاملتهم الودودة له وللشيخ إمام . . ويُقدَّم إلى المحكمة للنظر فى الإفراج عنه أمام قاضى المعارضات . . فينظر القاضى القضية ، ثم يرفعها للمداولة ، وفى انتظار قرار القاضى . جاء الحاجب إلى المتهمين المكبلين بالحديد ،

وسأل : أين فؤاد نجم ؟ ، ثم أمر العسكرى بفك قيوده ، لأنه مطلوب لمقابلة القاضى فى غرفة المداولة .. ودخل نجم على القاضى، فأمر حاجبه بالانصراف وإغلاق الباب . ونظر إليه نجم صامتاً ، فرأى وجها مصريا نحاسياً مريحاً ، يجلس إلى مكتبه فى هدوء، وينظر إليه باهتمام .. بعد لحظه صمت ، فوجىء بالقاضى يقول له :

ـ سمَّعنى بقرة حا حا !

ووجد نجم نفسه ينشد القصيدة الحزينة الراثية لمصر ، التى ذبحتها الهزيمة الظالمة بكل ما فى أعماقه من حزن وشجن ، ويردد بعد كل مقطع من مقاطعها كلمة « حاحا » بإيقاعها الجنائزى الحزين ، فرأى دموع القاضى تسيل على خده فى صمت وغزارة ؛ فانفجر نجم فى البكاء .

وجفف القاضى دموعه صامتاً ، ثم أخرج من جيبه عشرة جنيهات ، وقدمها لنجم قائلاً له : سأفرج عنكم بكفالة قدرها عشرون جنيها . وهذا هو المبلغ الذى أستطيع المساهمة به فيها ! .

لكن نجم يعتذر بإصرار عن عدم قبول المبلغ ، رغم محاولة القاضى إقناعه بقبوله ، طالباً منه اعتباره ثمناً مقدماً لبعض شرائط أغانيه . ويصر نجم على الاعتذار ، مؤكداً أنه وإمام لا يبيعان شرائطهما، وأنه سيهديه بعضها .

ويبكيني أحمد فؤاد نجم في صفحته الأخيرة من مذكراته العجيبة ، بعد أن أضحكني كثيراً في صفحاتها العديدة ، وأثار دهشتي وتأملي وإعجابي بصدق مشاعره وصدق اعترافاته ، وصدق تعبيره عن ضمير الشعب المصري الجريح في أعقاب هزيمه يونيو ، وفيما قبلها ! .

وأرجو ألا يطول انتظاري لقراءة الجزء الثالث من « مذكرات الفاجومي » ، الذي سمعت أنه يعكف على كتابته الآن .

ويا أيها الفاجومي العجيب : شكراً لإهدائك مذكراتك الأمينة هذه لي ، وفي انتظار الجزء الثالث منها . وأرجو أيضاً ألا تقلل من قيمتها الأدبية النادرة بالتحفظ في الحديث عن حياتك الشخصية وزيجاتك الأربع في مرحلة السبعينيات والثمانينيات ، لكي يكتمل لهذه المذكرات تفردها . . وجرأتها . . وتفرّدها .



عاشق الحياة

فى السيارة . . فى طريقى من البيت إلى العمل فتحت راديو السيارة قبيل موعد نشرة الأخبار المسائية فى إذاعة لندن العربية ، كعادتى كل مساء ، فإذا بى أسمع صوت الشيخ زكريا أحمد فى « دور » جديد على مسامعى ، اسمه « الفؤاد لما يميل » . . يا إلهى . . الأغنية جميلة ومجهولة تماماً بالنسبة لى ، وصوت الشيخ زكريا فيها معبّر وجميل ، كأنه « هدنة » مؤقتة من صخب الغناء الراقص الذى يحاصرنا فى كل مكان . . أما اللحن ، فروعةٌ أخرى مجهولة من روائع هذا الفنان العظيم .

استرخت أعصابى ، وأنا أتابع كلمات الدور الغنائى ، وموسيقاه الشرقية الأصيلة . . فإذا بالأغنية تتوقف فجأة قبل اكتمالها ، وإذا بدقات ساعة (بيج بن) الشهيرة تقطع النغم الحلو ، لتبدأ نشرة الأخبار بأنبائها المزعجة غالبا ! .

تبدّد الاسترخاء الممتع الذى أحسست به للحظات ، وتساءلت : كيف أستطيع سماع هذه الأغنية الجميلة مرة أخرى ؟ .

منذ سنوات لم يكن يتعذر علىّ استرجاع أى لحن مجهول للشيخ زكريا أحمد . . فلقد كان له « رواة » ومحبون أوفياء ، يتعصبون لفنِّه، ويحتفظون بكل تسجيلاته ، ويحفظونها عن ظهر قلب ، ويرددونها فى جلساتهم ، وفى حفلات جمعية إحياء التراث العربى ، لكن صِلاتى انقطعت بهم منذ سنوات ، برحيل معظمهم عن الحياة . . وبانشغالى عمن بقى منهم بمشاغل الحياة ! .

وبسبب هؤلاء الأصدقاء الأوفياء . . ربما لم أندم على فوات فرصة التعرف بأحد المشاهير عن قرب ، كما ندمت على فوات فرصتى فى رؤية الشيخ زكريا أحمد . . والاستماع إليه عن قرب ! . . فلقد شاءت لى الظروف أن أحظى بصداقة بعض الصحفيين والفنانين القدامى ، وأسعد بصحبتهم بضع سنوات من العمر ، وكانوا جميعاً من أصدقاء زكريا أحمد ومحبِّيه ، ولا يكفّون ـ بعد رحيله عن الحياة بسنوات طويلة ـ عن الحديث عنه ، واسترجاع نوادره ، والإشادة بشخصيته الآسرة ، وروحه الطيبة ، فعرفت وصادقتُ الفنان الكبير الراحل المرحوم الأستاذ عبد المنعم رخا ، أكبر وأشهر رسامى الكاريكاتير فى عصره ، وعرفت وصادقت المرحوم الأستاذ عبد السلام شهاب ، الصحفى الأديب، وآخر عمالقة الشعر الفكاهى فى زمانه . وقد كان تَوءم زكريا الروحى ، وصديقه الحميم. وعرفت وصادقت المرحوم الأستاذ أمين فهمى، عازف القانون المبدع ، وأستاذ آلة القانون بمعهد الموسيقى العربية . وعرفت الدكتور إبراهيم زكى خورشيد ، العالم والأديب

والمترجم ، ووكيل وزارة الثقافة الأسبق ، وقد كان من أصدقاء زكريا ، وعازفاً ماهراً على آلة الكمان ، ورئيس جمعية أصدقاء زكريا أحمد . وعرفت المرحوم مصطفى نصر ، وكيل معهد الموسيقى العربية ، وعضو الجمعية ، وعازف العود الماهر . وعرفت فنان الخط العربى المرحوم قدرى عبد القادر ، وكان من مريدى زكريا ، ومحبِّيه المخلصين .

وقد كان يجمع هؤلاء ـ رغم اختلاف مشاربهم ورؤاهم للحياة ـ شىء واحد ، هو حب زكريا أحمد ، والإعجاب بفنه وشخصيته .

والفنان العظيم . . إنسان عظيم أيضاً ، إذا كانت عظمته الفنية حقيقية ، وليست متكلفة . . وكذلك كان زكريا أحمد فناناً عظيماً . . وإنساناً أعظم . . فإلى جانب عملاقيته فى فنه الأصيل . . كان صديقاً مثالياً لأصدقائه ، ومحباً للحياة وللبشر ، ومتسامحاً مع الجميع ، كما كان قبل ذلك ـ وبعده ـ من ظرفاء عصره ، ولا يملّ السامعون حديثه . . ويحارون إذا قارنوا بين إبداعه الفنى ، وإبداعه « الكلامى » فى مجالسه . . أيهما أعظم وأخلد ! .

فقد كان زكريا أحمد محدثاً ممتعاً ، قلما يجود الزمان بمثله ، ولا يجرؤ أحد على مقاطعته أثناء الكلام ، حتى لا يحرم الحاضرين من حديثه الممتع ، وصوره الفنية الساحرة التى يبتدعها عفو الخاطر وهو يتكلم .

وكان فى جلساته الخاصة يعزف على عوده ، ويغنى بعض الوقت ؛ فيسحر الحاضرين بفنه ، ثم يضع العود جانباً ، ويروى حكاية

تذكرها، أو قصة طريفة حدثت له ، أو لأحد أصدقائه ؛ فتتقطع أحشاء السامعين من الضحك .

ولست أعرف ـ فى حدود معلوماتى ـ أحداً استمتع بحياته ، وبالصداقة المخلصة الجميلة فى الحياة ، كما استمتع بها زكريا أحمد خلال رحلة عمره . . فلقد كان إنساناً رضىَّ النفس . . متواضعاً . . متسامحاً ؛ فاجتمعت حوله مجموعة من الأصدقاء المخلصين ، أضاءوا حياته بالحب الصادق والوفاء المخلص؛ وبادلهم حباً بحب، ووفاء بوفاء، واستجاب لطبيعته البوهيمية معهم، ونقل إليهم عدوى هذه البوهيمية؛ فتأثرت بها شخصياتهم وحياتهم، تقليداً له ، أو استجابه لشطحاته المفاجئة .

فقد كانوا يجتمعون فى بيته . . وفى بيوت أصدقائه فى الأمسيات السعيدة ، فيطعمون ويشربون ويستمتعون بغناء زكريا . . وظرفه ، وأحاديثه ؛ فلا يستبعدون أن يقول لهم فجأة بعد منتصف الليل : سى فلان وحشنا . تيجوا نزوره الآن ؟ .

فيستجيب له على الفور صديقان أو ثلاثة من الجالسين ، لابد أن يكون منهم المرحوم شهاب ، ثم ينهضون لزيارة الصديق الذى اشتاق إليه زكريا . . أما أين يقع منزل « سى فلان » هذا ، ففى مدينة الإسماعيلية ، على بعد ٩٠ كيلو مترا من القاهرة ، أو فى المنصورة ، أو فى الإسكندرية على مسافة ٢١٠ كيلو مترا ، لكن متى حال بُعد المسافات بين التقاء الأحباب ؟ ! .

إنهم سيشدُّون الرحال فى التَّوِّ واللحظة إليه ، وسيشير الشيخ زكريا ـ الذى لم يمتلك سيارة فى حياته ـ إلى سيارة أجرة عابرة ، فتقف ، ويركب إلى جوار السائق ؛ فيعرفه على الفور ، ويتهلل لرؤيته ، ويرحب به . . وسيسأله الشيخ زكريا عما إذا كان مستعداً للسفر بهم إلى الإسماعيلية ، أو المنصورة على الفور ؛ فيجيبه السائق بأنه مستعد أن يسافر به إلى المريخ إذا شاء .

وتتجه السيارة إلى وجهتها . . والشيخ زكريا يتحدث مع السائق . . ويتبسط معه . . ويمازحه ، ويمازح أصدقاءه ؛ فتضج السيارة بالضحكات الصافية طوال الطريق ، حتى تصل إلى بيت الصديق قبيل الفجر ، وقد يكون مستغرقاً فى النوم ، فيصحو على طرقات زكريا والأحباب ، ويفتح الباب وهو نصف نائم ، فيراهم . . فلا يتمالك نفسه من الفرحه بلقائهم ، ويقف على باب بيته « يصفق » طرباً بحرارة وانفعال ، كما يفعل الجمهور فى ملاعب الكرة ، والأصدقاء يضحكون بابتهاج لرؤيته ، ثم يندفعون إليه بالعناق والقبلات .

وهيهات بعد ذلك أن « يفكَّ » أسرهم قبل يومين أو ثلاثة على الأقل، لا يغادرون بيته خلالها ، ولا يفعلون شيئا سوى الكلام والضحك والسهر حتى الصباح كل ليلة فى أحاديث ممتعة وغناء أصيل . . والصديق الذى لايعرف العزف على أية آلة موسيقية يحتفظ رغم ذلك فى بيته بعود شرقىٍّ ثمين ، استعداداً لزيارات زكريا ، التى لا يستطيع أن يتنبأ أحد بموعدها .

أما هذا « الصديق » الجديد الذى لم يره صاحب البيت مع زكريا من قبل ، والذى قدّمه له بطريقته المألوفة « أخونا الجديد سى فلان » ، فهو سائق السيارة التى أقلَّتهم إلى بيته نفسه ، بعد أن وقع فى أسر شخصية زكريا الساحرة خلال الرحلة ، ورغب فى عدم مفارقته ، فدعاه الفنان العظيم لزيارة صديقه معه . . ولبَّى السائق الدعوة على الفور ، تاركاً عمله وبيته وأسرته بلا تردد ، إذ متى يجود الزمان عليه بصحبة . . كهذه الصحبة ، وما ضرّ أسرته لو انتظرته يومين يسرقهما من كآبة الحياة وعنائها؟ .

أما الرزق ، فسوف يعوضه عنه زكريا بسخائه المعروف ، بعد أن يعيده وأصدقاءه إلى القاهرة . وسواء فعل أم لم يفعل ، فسوف ينضم هذا السائق إلى مُريدى الشيخ ومحبيه ، فلا تمضى أيام بعد ذلك ، إلا ويمرُّ ببيته ليسأله إذا كان يرغب فى الذهاب إلى أى مكان . . مترقباً أن يسمح له بحضور جلسة الأصدقاء معه ، كلما ضاقت نفسه بأعباء الحياة .

وقد صاحبتُ أصدقاء زكريا سنوات عديدة ، فسمعت منهم جميعا قصة « سلطانية الفول » الشهيرة ، يروونها بحب واعتزاز بذكرى صديقهم ، أظرف الظرفاء - يرحمه الله - وصدقتها مضطراً ، رغم غرابتها ، لإجماعهم عليها . . وحكايتها أن بعض أصدقاء زكريا قد عزموا على زيارة صديق لهم مقيم بالمنصورة ، فمرُّوا فى سيارة أجرة ببيت الشيخ زكريا فى الصباح ، لإبلاغه بنيَّتهم ، واصطحابه معهم فى رحلتهم ، فالتقوا به صدفةً أمام منزله بالحى الشعبى الذى يقيم به ،

وهو يرتدى البالطو فوق جلباب منزلى ، والشبشب ، ويحمل بيده سلطانية فارغة ليشترى فيها الفول للإفطار ، فدعوه للسفر معهم لزيارة صديقهم ، فلم يتردد لحظة . . ولم يفكّر فى العودة إلى البيت لإبلاغ زوجته ، وارتداء ملابسه ، وإنما ركب معهم السيارة بالجلباب والبالطو والشبشب وسلطانية الفول الفارغة أيضاً ، وتوجه الجميع إلى غايتهم ! .

وغاب الأصدقاء فى زيارة صديقهم يومين كاملين ، انخلع خلالهما قلب زوجة الشيخ زكريا ، لولا علمها بطبيعته البوهيمية . . وانتهت الزيارة على خير ، ورجع الأصدقاء ، فأنزلوا زكريا أمام بيته ، وانصرفوا ، فوجد سلطانية الفول الفارغة فى يده . . ومحل الفول أمامه ، فاتجه إليه بتلقائية ، واشترى فولاً ساخناً ، ثم صعد إلى مسكنه ، فما إن رأته زوجته ، حتى صاحت فيه باكية :

ـ كده . . ياشيخ زكريا ؟ .

فأجابها على الفور ببديهته الحاضرة : أعمل إيه يا أم فلان . . بتاع الفول كان عنده زحمة ! ، فلم تملك نفسها من الضحك لغرابة الرد ، وسرعة البديهة ، وتحوّل الغضب إلى ابتسامة ، وعتاب ضاحك ! .

هل لاحظت هذه الكلمة الجميلة التى كان زكريا لا ينطق اسم أحد أصدقائه ، أو معارفه إلا مسبوقاً بها . . فيقول « سى » فلان . . أو سى عِلاّن ؟ .

إنها اختصار دارج لكلمة « سيِّدى » . . ومن عادة الفضلاء أن يزكُّوا

أصدقاءهم على أنفسهم ، فيقول أحدهم عن الآخر « سيدى فلان » ، أو سى فلان ، إنكاراً لذاته ، ورفعاً لشأن صاحبه .

وأكثر من يستخدم هذا الأدب الرفيع فى مخاطبة الأصدقاء والمعارف هم الصوفية ، الذين يتعمدون إذلال النفس ، حتى لا تغترّ بأعراض الدنيا ، فيقول أحدهم للآخر : مرحباً سيدى فلان « تواضعاً لله سبحانه وتعالى » ، وقد يكون سيدى فلان هذا من أفقر الناس ، وأقلِّهم شأنا ، لكنه تواضع الفضلاء ، وإنكارهم لذواتهم . لهذا . . لم أعجب كثيراً حين زرت فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى فى بيته بالهرم منذ شهور ، فإذا به يرحب بالجميع بهذا الأدب الصوفى الرفيع ، الذى زادهم حبا له واحتراماً و إعجاباً .

وكذلك كان زكريا أحمد شديد التواضع وشديد الإنكار لنفسه مع الجميع ، إلا مع صنف واحد من البشر ، هم المتكبرون والمتغطرسون ! ... فهؤلاء وحدهم من بين كل البشر ، هم الذين كان زكريا يتخلى معهم عن تواضعه الأصيل . . «ويتكبر » عليهم عامداً متعمداً ، اعتزازاً بفنه وموهبته وكرامته .

«والكِبر على أهل الكِبر . صدقة » كما هو معروف ، لأن التواضع لهم لا يزيدهم إلا خيلاءَ وغروراً وتجبراً على الآخرين . ولأنهم لا يفهمون التواضع من جانبك فهمه الصحيح ، وهو أنه تواضع لله سبحانه وتعالى ، و ليس لهم ، وإنما يفهمونه أو يتصورونه ضعفاً فيك ، و إحساساً بالنقص تجاههم ؛ فيغريهم ذلك بالتجرؤ عليك ، والاستهانة

بك أكثر ، وقديماً قال الإمام على بن أبى طالب : إذا رفعتَ أحداً فوق قدره ، فلا تعجب له إذا وضعك دون قدرك ! .

وهذا صحيح تماماً . . ولعل زكريا كان ـ بفطرته ، أو بدراسته الأزهرية القديمة ، قبل احترافه للفن ـ يعمل بهَدْى هذه الحكمة الغالية فى حياته الشخصية . . فلقد روى لى الفنان رخا أن الفيلم الوحيد لأم كلثوم ، الذى لم يشترك زكريا فى تلحين أغانيه ، كان فيلما أنتجه استوديو مصر فى الأربعينيات ، وكان لرفض زكريا المشاركة فيه قصة غريبة ، تؤكد أصالة هذا الفنان واعتزازه ـ رغم تواضعه ـ بفنّه وكرامته . . فلقد كان المسئول عن إنتاجه وقتها « باشا » متغطرساً ، يتعامل مع الجميع من علٍ . . أو لعله رغم رئاسته لشركة استوديو مصر ، وهى من شركات بنك مصر ، ومؤسّسة العظيم طلعت حرب ، كان ممن لا يكنّون احتراماً كبيراً لأهل الفن فى زمنه ، فدعا زكريا لمقابلته للاتفاق معه على تلحين بعض أغانى الفيلم . وتوجه إليه الفنان الكبير بحُسن نية ، ودخل إلى مكتبه ببشاشته المعروفة ، وألقى عليه السلام ، ففوجىء به يرد عليه تحيته باقتضاب ، وهو جالس إلى مكتبه ، دون أن ينهض لتحيّته . . فأدرك زكريا على الفور أنه إمام إنسان متغطرس ، وتنبَّهت مشاعره الكارهة للتكبر والغرور ، فلم يمدّ إليه يده لمصافحته ، وإنما جلس على المقعد أمام مكتبه فى استهانة ، ثم وضع ساقاً على ساق ، وقال له: أفندم ؟ فأشار إليه الباشا بيده ، وقال له بتحفظ : نريدك أن تلحن ثلاث أغنيات لأم كلثوم فى الفيلم الجديد ! ؛ فأجابه زكريا بحزم : ألف جنيه

مقابل كل لحن ! ؛ فاتسعت عينا الباشا من الدهشة ، وقال له بتعجب : ألف جنيه ؟ ، لكنهم قالوا لى أنك تتقاضى ثلاثمائة جنيه فقط فى اللحن الواحد؟ ؛ فأجابه زكريا ، وهو ينهض استعداداً للانصراف : هذا صحيح . . ولكن مع الآخرين الذين يعرفون أقدار الناس ، أما معك أنت ، فليس أقل من ألف جنيه لكل أغنية ! .

ثم غادر المكتب دون تحية . . والباشا ممتقع الوجه لهذا « الدُش» البارد الذى ألقاه عليه زكريا . ولم تفلح أيه محاولات معه بعد ذلك لإثنائه عن شَرْطِهِ ، الذى قصد به رفض المشاركة فى عمل مع هذا الرجل ، وليس المال ، إذ كان مبلغ الألف جنيه ـ وقتها ـ فى الأربعينيات مطلبا خياليا ، لا يتصور أحد جديّة زكريا فى التمسك به .

ولا غرابة فى ذلك . . فالإنسان الأصيل تأسره الكلمة الطيبة ، والمجاملة الصادقة أكثر مما تفعل ألوف الجنيهات . . وقد كان زكريا لا يرفض دعوة ، حتى من أبسط الناس للغناء مجانا فى مناسبة عائلية له . . فيحمل عوده ، ويدعو أصدقاءه إلى الحضور ، قائلا لهم بلغته المألوفة : أخونا سى فلانً عنده مولود سنحتفل به . . أو خطبه . . أو عقد قران ، أو زفاف . ويذهب . . فيسعد الحاضرين بفنه وحديثه ومجلسه ، ويمتع ويستمتع ، ويعود إلى بيته قبيل الفجر راضياً بحب الناس له ، وحبه لهم . . ولا شىء أكثر من ذلك .

وقد روى لى الفنان رخا ، أن زميلاً صحفياً لهم احتفل ذات مساء بخطبة إحدى بناته ، ودعا الأصدقاء والشيخ زكريا لمشاركته فرحته ،

فتوافد عليه الأصدقاء جميعا فى الموعد المحدد ، ماعدا الشيخ زكريا ، والمرحوم عبد السلام شهاب ! .

وتعجب الأصدقاء لتخلف زكريا ، الذى لا يمكن أن تفوته فرصة مجاملة صديق له على هذا النحو . . وكاد الزميل الصحفى يغضب ويشعر بالمرارة لتخلف زكريا ، لولا أن لمعت فى ذهن رخا فكرة طارئة ، فقال لصاحب البيت فجأة : أقسم بالله أنك لو فتحت باب مسكنك الآن ، لوجدت زكريا وشهاب واقفيْن أمامه منذ ساعة على الأقل ، وزكريا يروى لشهاب قصة يريد أن ينهيها قبل أن يدق الجرس! . . فنهض الصديق وفتح الباب ، فإذا به يجد الصديقين مشتبكيْن فعلا فى حديث طويل ، وزكريا يحكى ، ويقلّد أصوات أطراف القصة المختلفين ، وشهاب يضحك من قلبه ؛ فلم يملك صاحب البيت إلا أن يضحك معه ، وقال له مبتهجاً : تفضل ياشيخ زكريا ، وأَكْمِل القصة بالداخل ، لنسمعها مع شهاب ! .

وبقدر تواضعه . . كان اعتزازه بفنه وكرامته . . لقد أساء كثيرون فهم حقيقة خلافه مع أم كلثوم ، وتصوروه نزاعا مادياً بينه وبينها على أجر تلحينه لأغانيها . والحقيقه أن زكريا ـ كما عرفتُ من كلّ محبيه ـ كان يقدِّر أم كلثوم تقديراً شخصياً كبيراً ، ويحبها ، ويتغزَّل فى عبقرية صوتها، وشخصيتها الفنية الطاغية ، كما عرفت أيضاً أن نزاعه الذى أدَّى إلى عدم تعاونها الفنى لسنوات طويلة ، لم يكن مع شخص أم كلثوم حول الأجر ـ كما تصور البعض ـ وإنما كان مع الإذاعة ، التى كانت تدفع أجور

ملحنى أغانى أم كلثوم ، ورفضت الاستجابة لمطلبه بتقدير عمله التقدير المادى المناسب له ؛ فأقام دعوى قضائية ضد الإذاعة ، وليس ضد أم كلثوم ، مطالبا بمستحقاته منها ، وحق الأداء العلنى لأغانيه .

وقامت الإذاعة بإدخال أم كلثوم كطرف ثالث فى النزاع القضائى ، بحجه أنها تدفع لها أجرها ، شاملاً أجر المؤلف والملحن . وغضبت أم كلثوم ، لا من زكريا ، ولكن من ظروف النزاع التى حالت دون استمرار التعاون بينهما . . وعتبت على زكريا أنه قد سمح لنزاعه القضائى مع الإذاعة بحرمانها من فنه .

كما لعب البعض دوراً مقصوداً فى إساءة العلاقة بينهما . أما حقيقة موقف زكريا ـ الذى أكّده لى رخا وشهاب ، وكل أصدقائه ـ فهو أن زكريا كان لديه ضعف خاص تجاه أم كلثوم . . وكان يعرف عن نفسه أنه إذا التقى بها خلال النزاع ، فسوف يتنازل عن مطالبه وحقوقه لدى الإذاعة، ولهذا . . كان يعتذر دائماً عن عدم الالتقاء بها طوال سنوات الخلاف ، حتى أبدى الرئيس الراحل عبد الناصر أسفه ذات يوم لأم كلثوم من حرمان عشاق فنها وفن زكريا من تعاونهما معا . . فسعت لتصفية الخلاف ، احتراماً لرغبة عبد الناصر ، ودعا القاضى الذى نظر القضية أطرافها للحضور فى جلسة شهيرة . . وكان قاضياً أديباً وذواقه للفن الأصيل ، فَمَثُلَتْ أمامه أم كلثوم وزكريا ومندوب الإذاعة . . وألقى عليهم كلمة بليغة ، قال لهم فيها أن تاريخ الفن سوف يحاسبهم جميعا على حرمان الفن الرفيع من ثمار تعاون هاتين القمتين الفنيتين

معا، أياً كانت أسباب هذا الحرمان ، فلم يحتمل زكريا أكثر من ذلك، وقال له على الفور : وأنا أُشهدك يا سيادة القاضى أننى لا أريد من هذه « السيدة » شيئاً وأنى مستعد للتعاون معها ، بلا شروط ، بل . . وبلا مقابل أيضاً . . . فلم تملك أم كلثوم إلا أن تقول له أمام القاضى : وأنا أيضاً ياشيخ زكريا أرحب بالتعاون معك ، وبكل الشروط التى تطلبها ! . . فإذا بجمهور الحاضرين من المحامين والمتقاضين ينفجرون بالتصفيق والتهليل ، كأنهم فى حفلة لأم كلثوم ، حتى اضطر القاضى الأديب لأن يذكّرهم بأنهم فى ساحة القضاء ، رغم ابتهاجه الشديد بما تحقق على يديه .

وبعد أسابيع . . كان زكريا قد انتهى من تلحين أغنية « هوّه صحيح الهوى غلاب » ، واستقبلته أم كلثوم فى بيتها لتسمع اللحن الأول بعد سنوات الفراق الطويلة . . وجلس زكريا أمامها ، وأمسك بعوده ، وراح يغنى كلمات اللحن :

هوه صحيح . . الهوى غلاب

ماعرفش أنا .

وانتهى من أداء الأغنية ، فقالت له ـ كما روى لى المرحوم قدرى عبد القادر ، رحمه الله ـ : جميلة والله يا شيخ زكريا ، لكن ألم تلحن شيئاً آخر ؟ .

وكان زكريا ـ الذى يعرف أم كلثوم جيداً ـ مستعداً للسؤال ، فأجابها على الفور :

ـ بلى . . وقد فعلت ! .

ثم غناها نفس الأغنية بلحن آخر ، مختلف تماماً عن الأول . وسمعته أم كلثوم ؛ فحارت بين اللحنين ، أيهما أجمل . ولم يدعها زكريا لحيرتها طويلاً ، وإنما قال لها بلهجة معبِّرة : لن تغنى هذا اللحن . . ولا ذاك ، لكن ستغنين هذا اللحن ! ، ثم أسمعها نفس الأغنية بلحن ثالث مختلف تماماً عن اللحنين السابقين ، وهو اللحن الذى غنته للجماهير بعد ذلك . وكان قد استعد به لمواجهة طبيعة أم كلثوم الفنية ، التى يعرفها عن ظهر قلب ، ويعرف عنها أنها لا تقنع أبدا بأول محاولة فنية ، مهما كانت روعتها ، فاستعد لها بتلحين الأغنية ثلاثة ألحان مختلفة ، حتى لاتطلبُ أى تعديل .

شدت أم كلثوم بالنغم الأصيل بعد طول انقطاع ، وطرب الناس له . . تذكروا الأيام الجميلة التى كانت أم كلثوم لا تغنى فيها إلا من كلمات بيرم التونسى وألحان زكريا . . لكن العمر لم يمهل زكريا أحمد لكى يقدّم لأم كلثوم مزيداً من هذا النغم الأصيل . . فقد دعاه التليفزيون لتصوير أغنيتين له بصوته ، فصور له أغنيتى « الورد جميل » ، و« ياصلاة الزين » . وهما الأغنيتان الوحيدتان اللتان سمح العمر للشيخ زكريا بتصويرهما للتليفزيون ، وبعد أيام قليلة من تصويرهما ،

ذهب زكريا إلى أصدقائه فى بيت أحدهم عند منتصف الليل متأخراً عن موعده ، وهو مبتهج . وسألوه عن سبب تأخره ، فأجابهم بأنه سعيد، لأن الله سبحانه تعالى قد مكنه من أن يسعد قلب فتاة يتيمة فقيرة، كانت ابنة لأحد معارفه الذى توفى منذ ١٥ عاما ، ولم يرها منذ سنوات ، ثم كبرت الفتاة الصغيرة ، ودعته أمها على استحياء لحضور حفل زفافها المتواضع . . فذهب إليه حاملاً عوده ، ومحمّلاً بعلب الشيكولاتة ، وقدم تهنئته ، ثم فاجأ العروس وأهلها بالغناء فى زفافها بمصاحبة الفرقة الموسيقية المتواضعة التى تحييه ؛ فتوهّج الفرح البسيط بفنه ، وتجمع أهل الحى الفقير لسماعه ، حتى أحاطوا ببيتها من كل جانب ، وغنى الجميع وراءه : ياصلاة الزين على فلانة « اسم العروس » ياصلاة الزين ! ، ياصلاة الزين على فلان « عريسها » ياصلاة الزين ، حتى بكت العروس اليتيمة بدمع الفرح والابتهاج ، وبكت أمها عرفاناً لوفاء زكريا لمعارفه القدامى ، وتواضعه الأصيل .

واختتم زكريا روايته للقصة بقوله لأحد الحاضرين بطريقته المألوفة : إنها ابنة سى فلان الله يرحمه ألا تذكره ؟ .

ثم أمضى السهرة معهم ، فضحك كثيراً . . وأضحك الأصدقاء أكثر . . وعاد إلى بيته مع الفجر ، راضياً عن نفسه ، وعن حياته . وفى اليوم التالى صعدت روحه إلى باريها ، ورحل عن الحياة ، مبكياً عليه مِنْ كل مَنْ عرفه ، أو تعامل معه ، أو التقى به ذات يوم .

رحمه الله .

هم وآباؤهم .. وأمهاتهم [١]

نصيحة لوجه الله . . إذا لمست فى ابنك الموهبة الأدبية . . وعلامات العبقرية ، فحاول أن تتخفى عنه بعيوبك ومثالبك الشخصية وتصرفاتك الغريبة، وتخفيها عنه بكل وسيلة ممكنة . لماذا ؟. لأنه بعد أن يكبر ويُثرى الحياة الأدبية بعدد كبير من مؤلفاته ، لابد أنه بالضرورة سوف يكتب كتاباً أو أكثر عن سيرته الذاتية وطفولته وصباه . . وسوف يكتب عنك، ويتعامل معك «كنموذج فنى »، أكثر منك أباً أو أماً ينبغى ألا يتحدث عنهما إلا بكل إجلال وتوقير ، ولن يتحفظ فى سرد ملامح هذا «النموذج الفنى » بصدق فنى مخيف؛ فتجد نفسك ـ إذا طال بك العمر وقرأت كتابه ـ أمام صورة مفزعة لنفسك وشخصيتك بكل ما فيها من نقاط القوة والضعف، وأخطاء وعيوب، وهنَّات وسمات مثيرة للتعجب أو الضحك!. أما إذا كانت صفحة العمر قد انطوت بك، قبل أن تقرأ مذكراته؛ فسوف يقرأها الأهل والأقارب وملايين القراء معهم ، ويتعجبون لها ! . ولا لوم على الابن فيما كتب عن أبيه أو أمه ، مهما كان صادماً للمشاعر . . أو مخالفاً للأعراف السائدة . . فهكذا «الفن» قد أمر ! .

وشيطان الفن لا سلطان عليه لأحد ، و«ذنبك» الوحيد فى ذلك هو أنك قد أنجبت ابنا أديبًا عبقرياً ، ولم «تحترم» عبقريته الاحترام الواجب ، فلم تحترس فى التعامل معه منذ الطفولة ، ولم تتخف عنه بما تحرص على ألاَّ يعرفه أحد ! .

أما هو ، فلأنه أديب وموهوب وعبقرى ، فهو «يلاحظ» بإمعان كل ما يجرى حوله فى أسرته . . ومجتمعه وبلده ، ويختزن فى ذاكرته الأدبية كل ما لاحظه ، ثم يعيد إفرازه فيما بعد فى كتاباته ومذكراته حين يجىء الأوان بلا تحفظ . ولن يعتبر ذلك جحوداً لفضل أبيه أو أمه، أو تنكراً لهما . . وإنما أمانة أدبية، أو صدق فنى لا يتعارض مع محبته الشخصية لهما ووفائه لذكراهما ! .

اقرأ مثلاً ماذا كتب توفيق الحكيم فى كتابه الممتع «سجن العمر» عن أبيه وأمه، وكيف قدَّم لملايين القراء شخصيتهما ! . لقد كان أبوه المستشار إسماعيل الحكيم رجل قضاء ، بدأ حياته معاوناً للنيابة . . ثم ترقى مساعداً للنيابة بمرتب قدره عشرة جنيهات ، فقرر أن يستكمل نصف دينه بالزواج ، وبحث له أهله عن عروس مناسبة ، وكان رجال القضاء فى زمانه تتخاطفهم الأسر الكبيرة الثرية، لكن الشاب إسماعيل الحكيم ـ ربما لطبيعته الشاعرية، أو لزهد أصيل فى شخصيته ـ لم تكن له مطامع من هذا النوع ، فكان كل مطلبه هو زوجة ذات وجه جميل ، وعلى قدر مناسب من التعليم، فتم العثور على العروس الموعودة وهى من أهالى الإسكندرية وتزوجها ، وأنجب منها هذا الفنان العجيب توفيق الحكيم.

وبعد الزفاف بأيام، انتقلت العروس الشابة مع عريسها إلى مسكنه بمدينة المحلة الكبرى، فما كادت تدخل بيتها، حتى صدمت بأنه لا يوجد به أى شىء يؤكل ، سوى علبة بها قليل من السمن ، ومُغلق عليها بقفل ومفتاح كأنها علبة جواهر ، فسألت زوجها عن مرتبه؛ فأجابها بأنه عشرة جنيهات ، فصرخت مفزوعة ، وقالت له أن أهله حين خطبوها قد زعموا لها أن مرتبه عشرون جنيهاً «غير اللى يُخش له ». وتعجب مساعد النيابة الشاب من ذلك، وقال لها أنه وكيل نيابة شريف .. فماذا يمكن أن «يخش» له بجانب مرتبه .. إلا الرشوة والمال الحرام؟! ؛ فلطمت العروس خديها، وشعرت بالخوف من المستقبل ! . فقد كانت ـ كما يقول الحكيم عنها فى كتابه ـ «ذات طبيعة متناقضة ، فيها جرأة وفيها خوف فى نفس الوقت ! . جرأة على الناس .. وخوف على نفسها» ! .

لكن ظروف الزوج قد تحسنت بعد ذلك قليلاً ، فرقى وكيلاً للنيابة؛ وزاد مرتبه إلى خمسة عشر جنيهاً .. ورأى أن يرفِّه عن زوجته بعض الشىء ، فدعاها إلى السفر معه إلى بلدة أبيه، ليقدمها إليه لأول مرة . وسعدت الزوجة بالرحلة، وحملت على ذراعها الطفل الوليد الذى قُدِّرَ له أن يكون أديباً وفناناً عبقرياً فيما بعد . وركبت القطار مع زوجها إلى بلدة أبيه .. وفى القطار أحست الزوجة بأن زوجها يريد أن يُسرّ إليها بشىء ما ويتردد فى الإفصاح عنه ، فشجعته على الكلام، فإذا به يرجوها باستعطاف أن تتحمل زوجة أبيه الشابة المدللة .. وأن تتغاضى عن

الاساءة إذا وجهت إليها كلمة جافة ، لأنها شديدة الطبع، ومسيطرة والجميع يتحملونها إرضاء للسيد الكبير . . وتوقع وكيل النيابة الشاب أن تتفهم زوجته ظروفه وحرصه على أبيه، خاصة وهو يطمع فى مساعدته له، فإذا بالدم السكندرى الحار يصعد إلى رأسها ، وتجيبه بحزم مباغت:

ـ والله لو قالت لى كلمة واحدة؛ لأرد عليها بعشرين ! .

وفزع الزوج الشاب، ولم تفلح محاولاته معها لأن تكون أكثر مرونة، حرصاً على علاقته بأبيه ، وتكدَّر الصفو بينهما بقية الرحلة فى القطار . . ولم يتأخر الصدام المتوقع طويلاً . . فلقد كانت للسيد الكبير زوجات أخريات يكرهن الزوجة المسيطرة الشابة ، وأردن أن يحذرن منها عروس الابن السكندرية ذات الطبع الحامى . . أو ربما أردن استثارتها ضدها ليستمتعن بصدام وشيك بينهما ، فأعدن عليها التحذير من سلاطة لسانها وكلماتها الجافة ، فإذا بالزوجة حادة الطبع تستجيب للتحدى بسهولة ، وتعلن على الملأ مرة أخرى أنها لو جرحتها بكلمة فسوف تقص لسانها بهذا المقص ! . وأشارت إلى مقص كانت إحدى سيدات الدار تفصل به ثوباً فى تلك اللحظة ! . . ، ودوت عبارة التحدى غير المألوفة فى سماء البيت الكبير كالنذير ، ولم تمض لحظات حتى كانت قد نقلت إلى الزوجة المسيطرة فى جناحها ، فصرخت ، وولولت وصاحت مستنجدة بالسيد الكبير أن يرد عليها هيبتها وكرامتها ، وجاء السيد بوقاره وشيبته ، واستدعى ابنه وكيل النيابة الشاب وزوجته ليحقق فى

الموضوع . . ومَثلت الزوجة أمامه ، وهى تحمل طفلها على ذراعها وزوجها، يرجوها همساً أن تنكر قولها هذه العبارة تجنباً للمشكلات، وهى ترفض الإنكار ولا تتنازل عن إصرارها، حتى حين حذَّرها من أنه قد يجد نفسه مضطراً لطلاقها إرضاءً لأبيه إذا لم تفعل . . وانعقدت المحكمة بحضور كل زوجات السيد الكبير وسيدات الدار ، ولم تتراجع الزوجة الجريئة عما قالت ، ولم تنكر ، ولم ينقذ الموقف إلا السيد الكبير نفسه، الذى أدرك بلماحيته أنها تختلف عن الأخريات ، واحترم شجاعتها وسعى إليها فى حجرتها بعد المحاكمة، وعالج الأمور بينها وبين زوجته .

أما الزوجة الشابة ، فلقد اختزنت هذا الموقف «المهين» فى ذاكرتها ضد زوجها سنوات طويلة، وحرصت على روايته بتفاصيلة الكاملة للابن الذى لم تكن تدرى أنه سيكون أديباً كبيراً ذات يوم ، فيسجل لها أو عليها ما روته . وحكت لـه كيف صُدمت فى زوجـها ، الـذى كـانت تنتظر منه أن يساندها ، وهـى الضيفـة الجديـدة فى هذا الموقف العصيب، فإذا بكل جهـده ينحـصر فى أن يرجوهـا الإنكار . . فلما أصرت على الرفض، واعترفت بما قالت بشجاعة أمـام السيد الكبير ؛ راح يرجـوها فى الاعتذار لزوجة أبيه المسيطرة، فلما رفضـت الاعتذار أيضاً ، سحبها من يدها إلى حجرتها وهو يهمهم بكلمة الطلاق أو بالتهديد بها لإخفاء حرجه أمام أبيه المهيب . ولخصت الزوجة الموقف كله لابنها توفيق الحكيم فى عبارة قاسية كانت تختتم بها رواية هذه القصة فى كل مرة . . هى :

ـ خذلنى أبوك يومها . . خذلنى بنذالة ! .

ومرّت هذه العاصفة العائلية بسلام على الأسرة الصغيرة الجديدة . . وجاء لتوفيق الحكيم أخ أصغر بعد عام آخر . . وتنقل الأب بين مدن الأقاليم ، مترقياً فى مناصب القضاء ، من وكيل النيابة إلى رئيس نيابة ، إلى قاض ، ثم لاحت للأم فرصة شراء بعض الأطيان الزراعية بمبلغ من مدخراتها ، فنشط زوجها المدقق المعروف باهتمامه الدقيق بالأشياء والتفاصيل فى البحث عن أطيان مناسبة لزوجته ، إلى أن وجد ٧٠ فداناً تحتاج إلى بعض الإصلاح ، فنصح زوجته بشرائها ، واستكمال ثمنها بقرض من البنك العقارى . . وكان لنصائح الزوج المالية أثر وخيم دائماً على حياة هذه الأسرة العجيبة ، رغم تدقيقه فى كل شىء وتحريه تفاصيل كل الأشياء ، فقد كانت الزوجة تستطيع شراء عدد محدود من الفدادين الجيدة بما معها من مال . . لكنه «ببعد نظره» رأى غير ذلك ؛ فتم شراء العزبة ذات السبعين فداناً . . وتم اقتراض باقى الثمن من البنك العقارى ورهن الأرض كلها له ضماناً للدين .

وعاش توفيق الابن صباه وشبابه ، وتخرج فى مدرسة الحقوق ، وسافر لأوروبا ، وعاد بعد سنوات ، وعين هو نفسه وكيلاً للنيابة ، ولا يزال الرهن قائماً على الأرض والأقساط تُسدد والفوائد تدفع ، وإنتاج الأرض لا يبلغ مستوى إنتاج الأرض الجيدة التى ضاعت فرصة شرائها ! .

ناهيك عما حدث عند شراء هذه الأرض ، مما قد يخجل أى ابن آخر إذا لم يكن فناناً عبقرياً من أن يسجله على الورق ، فقد قام الزوج

بإجراءات شراء الأرض ، نيابة عن زوجته ، واعترفت له الزوجة بجميله وإخلاصه فى إنهاء هذا الموضوع، لكن الظروف شاءت لها بعد ذلك بقليل أن تتسلم فى غيبة زوجها بعض الأوراق ، فما إن قرأتها، حتى جن جنوها !. فلقد عرفت منها أن زوجها قد اشترى باسمها أربعين فداناً وسجل الثلاثين فداناً الأخرى باسمه هو !. فما إن عاد الزوج من عمله المحترم بالنيابة ، حتى استقبلته ـ كما يقول الابن فى كتابه ـ «بالصراخ والزعيق، واتهمته بسوء استغلال التوكيل عنها ؛ ورمته بألفاظ النصب والاحتيال، وظلت تنكد عليه عيشته بما طبعت عليه من صلابة إرادة، حتى استسلم وأذعن ، ونهض يصحح الوضع كما شاءت هى . وبذلك أصبحت حجج الأطيان كلها باسمها هى وحدها!».

ولعلك قد تخيلت من هذه الكلمة طبيعة العلاقة بين الزوجين ومعالم شخصية كل منهما، التى قدر لهذا الابن الفنان أن يجىء إلى الحياة نتاجاً لتفاعل هاتين الطبيعتين المتناقضتين !. فالزوجة ـ أى أم توفيق الحكيم ـ شخصية قوية . . وصلبة الإرادة . . وحادة الذكاء. ومن عجائب ما قرأته فى كتابه هذا، أنها كانت ترى نفسها رغم تواضع تعليمها بالقياس إلى زوجها ـ أذكى منه ، ولا تنفك تقول لابنها الفنان دائماً :

ـ أنا أذكى من أبيك . . أنا أنبه منه !.

والمؤكد أنه كان لها ذكاؤها، لكنه ـ فى تقديرى ـ من نوع ذكاء الضرورة الذى تتسلح به الزوجة ، أو تزداد حدته عندها حين تستشعر الخوف من المستقبل، وتتشكك فى قدرة زوجها على قيادة سفينة الأسرة إلى شاطىء

الأمان، فتشحذ ذهنها لابتكار الوسائل التى تعوض بها ما تستشعره فيه من نقص ، تماماً كما تقوى عضلة ذراع اليد اليسرى تلقائياً لكثرة الاستعمال حين تضعف قدرة اليد اليمنى . . والمؤكد أنها ـ كما وصفها ابنها فى كتابه ـ كانت قوية ومعتدة بنفسها ، ومن ذوات الدم الحار الذى يكره الخمول والبلادة . أما أبلغ تصوير لشخصيتها ، فهو ما قدمه زوجها نفسه لابنه خلال مرضه الأول والأخير . . فلقد نُقل إلى المستشفى «الفرنساوى» بالإسكندرية مريضاً بالتيفود، وجاء الابن ـ توفيق الحكيم ـ الذى أصبح مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف من القاهرة ليزور أسرته بالإسكندرية ، فعلم بنبأ مرضه ، وتوجه إليه بالمستشفى؛ فوجد حالته الصحية متدهورة ، وممرضة يهودية عهدت به إليها أمه تلازمه ، فأشار الأب المريض ـ وكان قد أحيل للمعاش منذ سنوات ـ لابنه الشاب ليقترب منه ، ثم سأله بصوت خافت عن والدته ، وأجاب ابنه بأنها «فى البيت» ، فطلب منه أن يسلم له عليها ! . ويكتب توفيق الحكيم عن هذه اللحظات الأخيرة من حياة أبيه ، فيقول :

ـ والواقع أنه لم يكن ينتظر وجودها إلى جواره بالمستشفى ، ولا كان يريده ، فلقد كان دائماً يوصينى فى حياته هامساً : أمك هذه لا ينبغى إطلاعها على خبر مثير ، ولا إحضارها فى موقف مثير ، فهى بطبيعتها المنفعلة ما كانت تطيق هذه المواقف ، وما كانت تتمالك أعصابها فيها ، وأنا نفسى ما من شىء يخيفنى مثل علم والدتى بمرضى ، ذلك أنها تملأ الدنيا صياحاً وضجيجاً وشكوى وأنيناً ، ولا تترك الطبيب يؤدى واجبه ،

دون أن تنهال عليه بالسؤال الملح والقلق الصاخب، وأحياناً بالتقريع والتأنيب لتأخر ظهور الشفاء ، بل ولى أيضاً أنا المريض. . لتعريض نفسى لمسببات المرض . . ! .

واستجابةً لهذه الطبيعة. . فلقد عهدت إلى ممرضة يهودية بملازمة زوجها فى المستشفى، ولم تزره فيه فيما يبدو من سطور هذا الكتاب الغريب . . فأراحت واستراحت .

وراح الابن الشاب ـ الذى كان قد كتب ونشر بعض أعماله الأدبية الشهيرة فى ذلك الوقت ـ يزور أباه فى المستشفى كل يوم ، والأب تزداد حالته سوءاً ، حتى فكر الابن فى استدعاء «كونصلتو» من الأطباء لاستشارتهم فى حالة أبيه ، فرأى الطبيب المعالج أنه لا فائدة من ذلك ، وطالب المستشفى الابن بدفع مبلغ خمسة جنيهات مقدماً، لمجرد السماح له باستحضار كونصلتو الأطباء الذين ستدفع لهم الأسرة أجورهم ، وثارت ثائرة الابن لهذا «الإجراء غير المعقول» كما كتب ، ورأى فيه ابتزازاً واستغلالاً للموقف؛ فرفض الاستجابة لهذا المطلب . . وكتب بعد ذلك بأكثر من عشرين سنة ـ معلقاً على هذه اللحظة ـ : « ولم أزل حتى هذه اللحظة نادماً على هذا الرفض ، إذ ماذا يساوى مال الدنيا كلها أمام رجل يحتضر !» .

وتوفى الأب المستشار بالمعاش (إسماعيل الحكيم) ، والتفت توفيق الحكيم؛ فوجد شقيقه الوحيد زهير قد جاء إليه فى المستشفى موفداً من والدته بمبلغ من المال للإجراءات الضرورية . . أما هى . . فأين

ذهبت؟ . لقد سافرت إلى العزبة ، لأن أعصابها ـ كما قالت لابنها زهير ـ لا تتحمل الموقف .

وحار الشابان فيما يفعلان فى هذا الموقف الجديد عليهما ، حتى أنقذهما مهندس صديق للأب الراحل ، وتولى عنهما الإجراءات الضرورية .

هذه هى شخصية الأم كما صورها بأمانة أدبية مخيفة ابنها الفنان فى كتابه الفريد هذا ، فماذا عن شخصية الأب الذى أنجبه ؟ .

يحكى توفيق الحكيم فى كتابه أن أباه إسماعيل الحكيم كان وهو طالب بمدرسة الحقوق شاعراً ، وراوية للشعر القديم ، وأنه كان ـ كما وصفه عبد العزيز فهمى باشا الذى زامله فى نفس المدرسة ـ «شاباً متفلسفاً صاحب تفانين» . . وكان من تفانينه أنه ابتكر سيجارة جديدة تصنع من الأعشاب الطبية المفيدة ، بدلاً من الدخان الضار . . وكان يدعو زملاءه «لتدخينها» ، بدلاً من السجائر المألوفة .

لكنه توقف عن نظم الشعر . . وعن شطحاته الفلسفية، بعد أن تزوج واستشعر مسئوليته عن زوجة وطفل ينبغى عليه إعالتهما . . فانطفأت روحه الأدبية . . وشغلته مشاغل الحياة عن الأدب . . وتآلف مع طبيعة زوجته الانفعالية والمهمومة دائماً بأمر المستقبل والخوف من تقلبات الأيام؛ فعاش حياة جافة صارمة ، لايعرف من وسائل الترفيه سوى المشى ، ويُخضع حياته وكل شىء فى الوجود لنزعة منطقية صارمة ،

ويدّقق فى كل شىء، وفى كل عمل وكل تصرف؛ فيوقعه تدقيقه وانسياقه أحياناً وراء المنطق العقلى النظرى ـ دون مواءمة مع الواقع ـ فى متاعب كثيرة! .

وبوحى من هذا التفكير المنطقى الشكلى قدَّم لابنه ـ وهو تلميذ بالمرحلة الثانوية ـ نصيحة مالية جرت عليه الخراب تماماً ، كما فعل مع زوجته حين نصحها بشراء العزبة والاقتراض من البنك ، فقد كان الابن الصغير قد ادخر من مصروفه عشرة جنيهات كاملة ، جمعها طوال مراحل دراسته «بالصبر والحرمان» كما يقول ، فأغراه أبوه بأن يشترى بها ورقة بمليون مارك ألمانى قديم، كان ثمنها فى البورصة وقتها ـ وبعد انهزام ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ـ عشرة جنيهات ، وحسبها الأب المدقق بالمنطق العقلى النظرى وحده هكذا :

ـ لابد من ارتفاع سعر المارك غدا ، لأنه من غير المعقول أن يظل على نفس حاله حين تستتب الأمور فى ألمانيا . . . فلنفرض مثلاً أن قيمته ستصبح قرشاً واحداً إذن سيصبح معك عشرة آلاف جنيه . . فلنفرض أسوأ الفروض ، ولنقل أنه أصبح بنصف قرش . . إذن سيكون عندك خمسة آلاف ! .

وأخذ منه تحويشة العمر . . واشترى له بها سند المليون مارك، وعاد إليه سعيداً ، وأعطاه له وهو يقول بفخر : أنت الآن يا ولد مليونير ! .

وراح الابن يحلم بالثروة المنتظرة ، لكنه أفاق من أحلامه بعد شهور

قليلة، فقد قررت ألمانيا إلغاء المارك القديم من أساسه . . وأصبح السند الذى بيده لا قيمة له ، وكتب توفيق الحكيم عن ذلك فى كتابه :

«ولم أغتفر لوالدى يومئذ . . تلك النصيحة المالية التى خربتنى !» .

وإذا كان أمر «الخراب» الذى ترتب على نصيحة الأب المالية لابنه توفيق الحكيم فى صباه هيِّناً ، فإن ما ترتب على اعتماد الأب الكلى على المنطق النظرى وحده فى تفكيره ونصائحه المالية بعد ذلك كان وخيماً على الأسرة كلها ! . . فلقد أرادت الأسرة ـ أو الأم بمعنى أصح ـ أن تشترى بيتاً بالإسكندرية لتستقر فيه، ويكون قريباً من أملاكها وأطيانها فى دمنهور ، فلما استقر رأيها على ذلك؛ انطلق الأب الحصيف وراء السماسرة للبحث عن المنزل المناسب ، فلم يعد يُرى بعد ذلك ـ كما يقول ابنه فى كتابه (سجن العمر) ـ إلا فى صحبة سمسار ، أو فى انتظار سمسار، أو ذاهباً إلى لقاء سمسار . . وانتهى البحث إلى الاختيار بين منزلين : أحدهما يطل على شاطىء البحر مباشرة . . والآخر يبعد عنه إلى الداخل كثيراً ، وكان شاطىء البحر فى ذلك الوقت قفراً موحشاً قبل إنشاء الكورنيش ، والبيت الآخر فى مكان مأهول . . فبماذا يشير «العقل» فى مثل هذه الحالة ؟ .

لقد نصح الأب بالطبع ـ مستعيذاً بالله من الغفلة والجنون ـ بشراء المنزل البعيد عن شاطىء البحر، وقال للسمسار : هل نحن مجانين لكى نشترى بيتاً يطل على البحر ؟ .

فلم تمض سنوات ، حتى تـم شق طريـق الكورنيـش. . وتضاعفت قيمة البيوت المطلة على شاطىء البحر أضعافاً مضاعفة، وانخفضت قيمة البيوت التى تبعد عنه ، وظل الأب يردد كلما تذكر ذلك ـ لسنوات طويلة ـ:

ـ ليتنا كنا مجانين ! .

وكالعادة . . تم اقتراض بقية الثمن المطلوب من البنك ورهن البيت له! . وكان للأب مع هذا البيت بعد ذلك شأن عجيب حقاً، لاتملك حين تقرأ ما كتبه عنه الابن الفنان ، إلا أن تبتسم . . أو تضحك متعجباً، فلقد ارتفع سعر القطن ذات عام، وتجمع فى يد الأم مبلغ طيب من المال، فلم تفكر فى سداد دين الأرض، أو دين البيت وفك رهنه وإنما فكرت، أو فكر الأب ـ لا يدرى توفيق الحكيم أيهما بالضبط ـ فى إجراء بعض الإصلاحات فى البيت وتوسيعه .

لم يعرف توفيق الحكيم أبداً من كان صاحب هذه الفكرة. . لكن كل ما يدريه أو يذكره ـ كما يقول فى كتابه ـ هو أن أول ثغرة فتحتها المعاول فى جدران هذا البيت، لم يستطع كل مال الأرض أن يسدها بعد ذلك أبداً! . . وانتهى الأمر بعد عدة سنوات من الهدم أو البناء المستمرين فى البيت إلى البحث فى كيفية التخلص منه، وإيجاد من يرضى بشرائه بجدرانـه المهدومـة . . وحجراتـه الناقصـة، وبنَّائيـه، ونجّاريـه، وحَّداديه الذين أصبحوا يقيمون فيه إقامة دائمة ومستمرة منذ بضع سنوات ! .

كيف حدث هذا ؟ . يجيبك على ذلك توفيق الحكيم نفسه قائلاً :

ـ «لقد أصبح البناء والهدم فى منزلنا هذا شيئًا طبيعياً مستمراً، كالأكل والشرب، ولا يقف عند شهور ولا أعوام ، ذلك أن والدى أراد أن يكون هو نفسه المهندس، والمقاول، وملاحظ العمل؛ فأحضر البنائين والنجارين والحدادين ، وصار يقول لهم :

ـ وشقُّوا هنا دهليزاً ، وأزيلوا من هنا جداراً . . وسُدوا هنا شباكاً، وافتحوا هنا باباً . . فما إن يفعلوا ما أمر ، حتى يجد أن الباب بدلاً من أن يفتح على الردهة، قد فتح على المرحاض !، وأن الجدار الذى أزيل قد جعل المطبخ فى الصالون ، وهكذا. . . فيعود يأمرهم من جديد بسد ما فتحوا، و إقامة ما أزالوا ! .

وكنت أتأمل ما يجرى من هدم وبناء، وأتألم من طول نومنا فى حجرات منزوعة النوافذ ، ومغطاة بالبطاطين، فأقول له : لماذا لا تُحضر أحد المهندسين؛ فيتولى ذلك ونرتاح؟؛ فيجيبنى ساخراً : هل أنت عبيط . . وهل يُحضر المهندسين إلا العُبط؟. وماذا سيفعل المهندس أكثر من أن يرسم على ورق أزرق بضعة خطوط، ويلطش كذا جنيه لمثل هذا الكلام الفارغ! .

وانتهى الأمر بنا بكل بساطة إلى أن صار البنّاءون والنّجارون والمبيضون يقيمون لدينا إقامة مستمرة ، لأن العمل لا ينتهى ، ولا يمكن أن ينتهى ! . »

ورغم كل ذلك . . فلم يعدم الأب المستشار من يُعجب بعبقريته المعمارية من زملائه رجال القضاء، ويأتي لاستشارته فى أمر بيت يريد بناءه ، ويقول لابنه توفيق، وهو يرمق أباه بإعجاب، وهو يقف بين البنائين والنجارين يُصدر إليهم أوامره :

ـ أبوك أستاذ لايُجارى فى فن المعمار ! .

وبعد سنوات لا حصر لها من الهدم والبناء . . لم يعد هناك حل لهذا البيت العجيب سوى بيعه . ومنذ أن استقر الرأى على البيع، رجع الأب المستشار يلاحق السماسرة ، جرياً وراء الأمل الموهوم فى العثور على من يشتريه . ومات الأب قبل أن يجد مشترياً له . . وكتب توفيق الحكيم أنه إذا كان لم يستفد بالإقامة المريحة فى هذا البيت، فلقد استفاد به على الأقل فى خروج جنازته منه بشكل كريم ! .

ويسأل توفيق الحكيم نفسه فى كتابه بعد كل ذلك : هل كان أبوه وأمه شخصيتين خياليتين ، يتحكم فيهما خيالهما؟ .

لقد كان الأب المستشار غزير المعرفة بكل مجال يتعامل معه . . فلقد مرضت زوجته فى شبابها؛ فاقتنى كتب الطب، وقرأها بتدقيق وتمحيص ليعرف سر مرضها ، كأنه يقرأ أوراق قضية سيصدر فيها حكماً عادلاً ، كما كان شديد الاهتمام بتفاصيل كل شىء ، ويقيس الجدران بعصاه التى يقول أنها مضبوطة على المتر الهندسى الأصلى بمصلحة المساحة ، وقد يتوقف فى الطريق وهو يسير مع ابنه أحياناً ، فيقيس بعصاه واجهة أحد

وقد تسأل نفسك فى النهاية . . ولماذا يهتم كاتب كبير كتوفيق الحكيم بأن يسرد لك مثل هذه الوقائع المضحكة أو المثيرة للتأمل والدهشة عن شخصيتى أبويه ؟ .

ويجىء الجواب على لسانه هو نفسه فى مقدمة كتابه، حين يقول أنه لا يكتب تاريخ حياته ، لكنه يحاول أن يفسر ويعلل هذه الحياة، وأنه يحاول فى كتابه هذا أن يرفع الغطاء «عن جهازى الآدمى لأفحص تركيب ذلك المحرك الذى نسميه الطبيعة أو الطبع . . هذا المحرك المتحكم فى قدرتى والموجه لمصيرى . وما دمنا لانستطيع أن نختار الأجزاء التى منها نُصنع، فلنفحص إذن هذه الأجزاء التى منها تكوَّنَّا فحصاً دقيقاً

صادقاً، ولانتحرج من الخروج قليلاً عمّا اعتدناه من وضع الأهل والآباء داخل قوالب جامدة لصُور الكمال والورع والصلاح إلى حد يحول دون أى تحليل إنسانى . لابد إذن من بعض الشجاعة والصراحة، لنعرف على الأقل شيئاً عن تركيب طبعنا هذا الطبع الذى يسجننا طول العمر !»

وهكذا أقدم توفيق الحكيم على مغامرته الفكرية الجريئة هذه، وتعامل مع أبويه كنموذجين فنيين . . وراح يشرِّح شخصية كل منهما، ويحاول فهمها ، فإذا سألتنى فى النهاية : هل كان توفيق الحكيم يحب أبويه كأى ابن بار بوالديه ، أجبتك بالإيجاب بلا تردد ، وقلت لك : إنه كان يحبهما، ويَعجب لأمرهما ، وقد ورث عنهما ـ بغير أن يدرى ـ ملامح جوهرية من تكوينه النفسى ومن طبعه الموروث . . لكن لأنه فنان وأديب وعبقرى فلقد سمح لنفسه باقتحام المناطق المحرمة . . وحاول فحص أجزاء ومكونات تركيبته النفسية، وإرجاعها إلى عناصرها الأولى، وتعامل مع «جيناته» الوراثية، أو مع أبويه اللذين نقلاها إليه بحياد فنى، كما لو كان يكتب أو يتحدث عن شخصيتين من البشر، لا تربطهما به صلة ، ولا يدعوه داع لأن يحاول تجميدهما فى صورة «الرمز» أو «المثال» . . فما يلتزم به الأشخاص العاديون فى الحياة . . لا بأس بأن يتجاوزه أحياناً هؤلاء الأشخاص الذين ينزلون إلى الحياة بعيون مفتوحة . . ويقضون سنوات العمر وهم «يلاحظون» ما حولهم، ويحاولون تفسيره لأنفسهم وللآخرين ، فإذا كانت عيون توفيق الحكيم قد ارتدت إلى داخله فى هذا الكتاب الفريد، «ولاحظت» فى أعماقه ما لاحظته ،

وفسرته، وحللته، وأرجعته إلى عناصره الأولى، فلا حرج على العبقرية ولا ملام ، فهذا هو الفارق الجوهرى بين المغامرة الفنية طلباً للحقيقة . . وبين جحود الأشخاص العاديين لآبائهم وأمهاتهم .

وقد «لاحظ» توفيق الحكيم على نفسه أنه قد اكتسب من التناقض بين شخصيتى أبيه وأمه . كثيراً من الملامح النفسية التى سجنته فى سجن طبعه طوال العمر . . فلقد كان يتردد دائماً بين طبيعتى أبويه المتناقضتين . . أو بين «حب الظهور» الذى يتفق مع طبيعة أمه التى تحب الضوء وتكره الخمول والظلام ، وبين الزهد فى الأضواء والابتعاد عنها وعن المآدب والحفلات والدعوات والاجتماعات ، مما يتفق مع طبيعة أبيه الأقرب إلى النزعة الصوفيةوالزهد فى الأشياء .

وكان توفيق الحكيم ـ فى تقديرى ـ يتردد أيضاً بين طبيعة أمه الانفعالية، وهى أقرب إلى طبيعة الفنان ، وبين نزعة أبيه العقلية، وهى أقرب إلى طبيعة الباحث والمتأمل ، وكذلك بين طبيعة أبيه التى تخضع كل شىء للمناقشة والجدل العقلى، حتى ما يتعلق منها بوجود الله جل شأنه، رغم تدينه وإيمانه الذى لا شك فيه، وبين طبيعة والدته التى تمثل الإيمان المطلق بالله بالعاطفة الجياشة ، وبلا جدل ولا مناقشة . . حتى ولو كانت ـ كما قال عنها ـ ترى الله دائماً فى جانبها هى . . ولا تتصوره فى أى جانب آخر ! .

ولعل هذا الميل ـ الموروث لديه عن أبيه ـ للجدل العقلى، وإخضاع كل شىء للمناقشة النظرية بلا تحفظ ، كان هو الذى جر عليه المتاعب فى شيخوخته حين كتب سلسلة مقالاته الشهيرة التى بدأها بعنوان آثار

عليه ثائرة المتدينين، وهو «حديث مع الله» ، حتى اضطر لتغييره بعد بضعة مقالات إلى «حديث إلى الله » .

وقد روى فى مذكراته هذه حواراً دار بينه وبين أبيه عن الإيمان؛ فاستسلم الأب لتداعيات المناقشة العقلية الحرة بلا تحفظ، حتى تنبه إلى أنه يكاد يقترب من الحافة الخطرة ، فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ونهض ليؤدى الصلاة مستغفراً ربه .

فهل فهمت سر اهتمام توفيق الحكيم برفع «الغطاء» عن مكونات شخصيته ومحاولة فحصها بدقة، وفهم دقائق المؤثرات الوراثية عليه ؟ .

وهل فهمت أيضاً لماذا كان الوزير العباسى محمد بن عبد الملك الزيات يأنس إلى أهل البلادة ، وينفر من أهل الذكاء، ويقول حين يُسأل عن سبب تفضيله صحبة الأغبياء :

ـ مُؤنة التحفظ شديدة ! .

لأن أهل الذكاء يلاحظون . . ويسجلون ، فيضطر إلى أن يتحفظ أمامهم، حتى لاتقع أعينهم على ما يسوؤه أن يعرفه الناس عنه ، فى حين يتصرف على راحته مع أهل البلادة، آمناً شرهم، لأنهم لا يرون . . ولا يفهمون ما يرونه .

إنه أمر صحيح تماماً . . لكن السؤال الحائر دائماً هو :

ـ وكيف يعرف الآباء والأمهات أن أبناءهم سيكونون فى المستقبل من أهل العبقرية والذكاء والموهبة، لكى يتحفظوا أمامهم ويتخفوا عنهم بعيوبهم ، وهم لايزالون بعد فى دور الطفولة والصبا ؟ .

هم وآباؤهم .. وأمهاتهم [٢]

وإذا كان توفيق الحكيم قد تحدث بلا حرج عن أبويه فى كتابه «سجن العمر»، وروى عنهما بعض ما يثير تحفظ المعارضين لمثل هذه الصراحة فى الحديث عن الأبوين، وكان هدفه من ذلك ـ كما قال هو ـ « أن يرفع الغطاء عما يسميه «سجن الطبع» الذى يتحكم فيه، والذى ورث بعض سماته عن أبويه ، فلست أظن أن هذا «الدافع» كان وراء ما كتبه الدكتور لويس عوض عن أبويه وإخوته فى كتابه الغريب «أوراق العمر» ! ، وإنما أتصور أن دافعه الأساسى لمّا كتب عنهم بصراحة لاتقل حرجاً عن صراحة توفيق الحكيم ، كان هو صدق لويس عوض مع نفسه ، ونفوره بصفة عامة من التجمّل والادعاء .

فلقد استسلم توفيق الحكيم ـ فيما كتبه عن أبويه ـ لشيطان الفن . . أما لويس عوض، فقد استجاب ـ فيما كتبه عن أسرته ـ لطبيعة الباحث المدقق، ولطبيعته الشخصية هو نفسه فى الجرأة الفكرية والصراحة المصادمة للمشاعر فى بعض الأحيان . . فهو يقول فى كتابه أنه من أسرة لا مستقبل لها ، وسوف تنقرض كما انقرض الماموث والديناصور ، لأنها أسرة عاجزة عن التكيف مع البيئة وظروف الحياة .

«ونحن آل عوض – يقول الدكتور لويس فى كتابه ـ لنا بعض الخصائص النفسية والأخلاقية المشتركة، قد تكون مجسمة عندنا أكثر من غيرنا، ومن هذه الصفات أننا لا نكذب ، ولا نعرف كيف نكذب حتى للمجاملة ، أو تجنب الحرج، أو الخروج من المآزق، ومنها أننا عاطلون عن الذكاء الاجتماعى، وهذا ما يجعلنا نعيش فى عزلة نسبية، مهما كانت دائرة معارفنا واسعة . ومن «رذائلنا» أن المبادىء لها عندنا المقام الأول ، ولو أدى ذلك إلى إغضاب الغير . . وأقول: إنها من رذائلنا ، لأن ذلك يتعارض أحياناً مع فضيلة التسامح التى تحتاج إليها الإنسانية فى كل زمان ومكان ، وإحساسنا بالواجب متطرف . وبعض أفراد العوضية يحسون إحساساً عميقاً عميقاً ،ليس فقط بفرعونيتهم ، وإنما أيضاً بأنهم من نسل ملوك مصر القديمة !» .

وتأثراً بهذه السمات . . بدأ لويس عوض فى كتابه هذا الكتاب الذى أراد أن يترجم به لطفولته وصباه عام ١٩٨٣م ، وانتهى منه عام ١٩٨٦ وأصدره قبل وفاته بعام تقريباً . . ولكى تدرك مدى الصراحة والجرأة النفسية والفكرية التى كتب بها كتابه هذا ، أذكر أن شقيقه الدكتور رمسيس عوض ـ وهو أستاذ للأدب الإنجليزى بكلية الألسن ـ قد زارنى فى مكتبى منذ شهور لشأن من الشئون، فأشرت خلال حديثى معه إلى هذا الكتاب؛ ففوجئت به يقول لى على الفور وبنفس «العجز العوضى» الموروث عن المداراة والتجمل :

ـ هذا أسوأ كتبه على الإطلاق ! . فقد شرَّح فيه العائلة تشريحاً قاسياً ـ

. . ويبدو أن المرض الخبيث الذى توفى به كان يؤثر فيه أثره السيىء قبل وفاته بفترة طويلة ! ، فأحسست بأننى قد أثرت حساسية ضيفى بالإشارة إلى هذا الكتاب. واعتصمت بالصمت ، متحرجاً ، واسترجعت بعد مغادرته مكتبى ما كتبه شقيقه عنه، فالتمست له بعض العذر فى رد فعله العفوى هذا .

فلقد كتب لويس عوض فى كتابه فصلاً عنوانه «ثمانية بروفيلات» رسم فيه صوراً لشخصيات أبويه وأشقائه، وتحدث عن كل منهم بتجرد عجيب، كأنما يتحدث عن شخص لا يعرفه، ولا تربطه به صلة .

فقال عنه فى كتابه أنه لا يذكر شيئاً عن طفولته وصباه ، لأنه ـ أى رمسيس ـ قضاهما فى المنيا، حين كان لويس عوض يدرس بكلية الآداب فى القاهرة، ثم للدكتوراه فى كيمبردج ، لكنه حين عاد لويس عوض إلى مصر وعمل مدرساً بكلية الآداب، جاء رمسيس للالتحاق بنفس الكلية، وأقام معه فى مسكنه . . فوجده فتى جاداً يميل إلى التأمل، ومحباً للعزلة والهدوء . . ويبدو ـ كما يقول الدكتور لويس ـ أنه كان معجباً بشقيقه؛ فترسم خطاه فى كثير من الأشياء، كاختياره لتخصصه فى الأدب الإنجليزى . . ورغبته فى الانقطاع للبحث الأكاديمى مثله، وأيضاً فى تقليد خطه ، لكن «الأستاذ» لويس عوض حرص على أن يعامل شقيقه التلميذ بنفس الكلية، والمقيم معه فى نفس شقته معاملة الأستاذ للتلميذ ، وليس معاملة الأخ لأخيه ، فحرص على أن يقيم حاجزاً بينه وبينه . . وعلى أن يرفض الإجابة على أى سؤال

يوجهه إليه فى مادته، وأن يطلب منه فى كل مرة أن يوجهه له فى المحاضرة، ليستفيد معه باقى الطلاب بالإجابة ، بل إنه حرص أيضاً حين جلس رمسيس أمامه وأمام أستاذ إنجليزى آخر فى الامتحان الشفوى، على أن يوجه له بعض الأسئلة التى فشل فى الإجابة عليها، ورفض نتيجة لذلك أن يعطيه أكثر من تقدير جيد، على خلاف رأى الممتحن الإنجليزى. وكان رمسيس يحتاج إلى تقدير جيد جداً ليلتحق بقسم الامتياز بالكلية، فلم يستطع الالتحاق به . . وظل لويس عوض لفترة طويلة يسأل نفسه: هل ظلم أخاه، حتى لا يتهمه أحد بمجاملته، وانتهى بعد تفكير طويل إلى أنه لم يظلمه، لأن تقديره فى باقى المواد لم يكن عالياً بالدرجة الكافية ، وخفف عنه إحساسه بالذنب بعض الشيء أن رمسيس عوض قد استطاع أن يستدرك ما فاته من الالتحاق بقسم الامتياز، وأن يحصل على الماجستير والدكتوراه ، لكن رمسيس عاد يصطدم بمثالية «الأستاذ» وعدم مرونته مرة أخرى حين كان لويس عوض مسئولاً عن القسم الأدبى بجريدة الأهرام ، وعن ذلك يقول : «عندما كنت مسئولاً عن القسم الأدبى بالأهرام، كان رمسيس يرهقنى بمقالات جيدة أو ممتازة عن المسرح المصرى، أو عن برتراند راسل، أو جورج أورويل، وكنت أرفض نشرها فى ملحق الأهرام، وأنبهه إلى أنى لو نشرت له شيئاً فى صفحة الأدب التى أشرف عليها؛ فسوف يعيِّره أعداؤه بأنه يبنى اسمه فى ظل أخيه، وليس بقيمته الشخصية، وسوف يتهمنى أعدائى بأنى أستغل منصبى لأحابى أخى. وكنت

أنصحه دائماً بأن يتجه إلى الجرائد الأخرى لنشر مقالاته، فكان يفعل ذلك على مضض ، ثم لا يلبث أن يعود إلىَّ حاملاً مقالاً آخر ، فيتكرر الرفض!» .

ثم يجيء فى حديثه عن شقيقه إلى هذه العبارة التى أحسب أننى لم أقرأ مثيلاً لها لشقيق عن شقيقه، وكلاهما شخصية عامة، فيقول :

« وقد كنت فى أحيان كثيرة بعد أن خرج رمسيس عوض من قوقعة الجامعات الأكاديمية ، وبدأ يخاطب القراء ، أى منذ الستينيات، أحس بأنه يغار منى فى سريرته، ويُحسن إخفاء هذه الغيرة تحت قناع هدوئه . كان يغار منى، لشعوره بأنه مهما حاول؛ فلن يُصيب ربع ما أصبته من تأثير فى المثقفين وفى الرأى العام سواء بالقبول أم الرفض، بل وبين مثقفى أوروبا وأمريكا المهتمين بالعالم العربى ، ولكنه كرجل عاقل كان دائماً يحاول أن يضبط هذه الغيرة ، لأنه يعلم ـ بغض النظر عن اختلاف المواهب ودرجات العلم ـ أن هذا التأثير الإيجابى أو السلبى القوى لا يُكتسب إلا بالنضال والتضحيات، ولا يمكن أن يحصله أحد وهو يمشى مثله دائماً بمحاذاة الحائط ، ويخشى المجازفات أو بطش الأعداء !» .

وفى موضع آخر من الكتاب يقول عنه : كنت أحس أحياناً بأن رمسيس يضمر شيئاً من الحنق علىَّ ،ويعتقد أننى كنت على غير إرادتى عاملاً معرقلاً فى حياته ، لأنه ورث كل عداواتى ، دون أن تكون له يد فى ذلك . وهذا صحيح . . فقد وجد رمسيس ـ لأكثر من عشر

سنوات ـ عنتاً شديداً من الدكتور رشاد رشدى ومدرسته المبثوثة فى بعض قطاعات الحياة المصرية، لا لشىء ، إلا لأنه أخو لويس عوض ، فكان رشاد رشدى بوصفه ممتحناً يعرقل مسعاه فى كل خطوة يخطوها نحو الماجستير والدكتوراه فى الأدب الإنجليزى، ويحول دون تعيينه مدرساً فى جامعة القاهرة، حتى إنه لم يعمل إلا فى كلية الألسن بجامعة عين شمس.

وعلىّ كل . . فلنقل أن رمسيس عوض قد ورث عداواتى، ولكن ينبغى أيضاً أن نذكر أنه قد ورث صداقاتى » ! .

أما الإشارة فى حديث لويس عوض عن أخيه إلى استحالة أن يصنع لنفسه ما صنعه لويس لنفسه من تأثير فى المثقفين والرأى العام بدون الضريبة الواجب دفعها لذلك ، فيقصد به مشاركته فى الحياة السياسية والفكرية مشاركة إيجابية، تحمل لويس عوض تبعاتها ومخاطرها ، ودفع ثمنها غالياً ، مثل فصله من منصبه كرئيس لقسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب القاهرة عام ١٩٥٤ مع مجموعة من أساتذة الجامعة الذين فصلتهم ثورة يوليو بتهمة العداء للثورة ، كما يقصد به أيضاً اعتقاله وسجنه لعدة سنوات فى أواخر الخمسينيات بتهمة الشيوعية مع تسليم الجميع بأن لويس عوض لم يكن شيوعياً ولم ينتم إلى أى تنظيم شيوعى، لكنه كان مؤمناً بالفكر الاشتراكى فى بعض جوانبه، ورافضاً فى نفس الوقت لبعض أساسيات الفكر الماركسى .

هذه هى صورة شقيقه، كما رسمها لويس عوض فى كتابه العجيب هذا، فماذا عن أبويه وباقى أشقائه ؟.

لقد قدم لويس عوض فى كتابه صوراً أدبية لأبيه وأمه ومعظم أشقائه، تختلط فيها الألوان والظلال . . وتثير التأمل والتعجب لصراحته البالغة فى رسمها . . ففى حديثه عن أبيه يقول عنه أنه كان أكثر إخوته - أى أعمام لويس - طيبة . . « وكان بالقطع أطيب من أمى، التى كانت كثيرة الحسابات، وأشد منه وعياً بختل الناس ولفهم ودورانهم، وأكثر حكمة عملية وحذراً فى التعامل مع الناس، بل وقدرة على المناورة . لم يكن أبى «مغفلاً» أو حتى ساذجاً ، بل كان رجلاً «دوغرياً» . . الكلمة عنده لها معنى واحد، والأبيض عنده أبيض، والأسود عنده أسود . . لا يكذب أبداً ، ولا يجامل بالباطل، ولا ينافق » .

وكان والده موظفاً بحكومة السودان ، ويتقاضى مرتباً كبيراً بمقاييس تلك الأيام ، لكنه استقال حين نقل من الخرطوم إلى منطقة نائية بالسودان مضحياً بالمرتب الكبير ، وفضل تسوية معاشه والعودة إلى مصر، ورجع إلى بلده وأقام فى مدينة المنيا بالقرب من مسقط رأسه (قرية شارونة) ، وعاش من سن الحادية والأربعين ، إلى أن مات فى الثمانين من عمره لا يمارس عملاً ، سوى قراءة الصحف والكتب العربية والإنجليزية . . وتربية الأبناء ، وإدارة شئون الأسرة ، معتمداً فى ذلك على معاشه من حكومة السودان ، وعلى بعض مدخراته التى ضيعها كالعادة فى مشروع تجارى فاشل أنشأه لأحد أبنائه ، كان ناقص القوى

العقلية ، وفشل فى التعليم ، ففتح له متجراً وضع فيه كل مدخراته؛ فبدده الابن بالبيع بالأجل لمن لا يعرفهم ، وتم إغلاق المحل ، وعاد الابن «شاكر» للبقاء فى البيت بلا عمل ، حتى مات فى سن السابعة والعشرين ، بعد إصابته بمرض البوليميا ، وهو مرض لايكف فيه صاحبه عن الأكل . وكان جنونه ـ كما يقول شقيقه ـ هادئاً ، ولا يكف فيه عن الهذيان ، وكان شاكر هذا أحد شقيقين للدكتور لويس عوض، ولدا ناقصى القوى العقلية ، وكانت الأخرى هى شقيقته مرجريت، التى يقول عنها فى كتابه :

« لا يوجد فى أسرتى نتوءات صارخة سوى ذلك . . حتى العبيطة مرجريت لها ما يماثلها فى أكثر العائلات . . ففى كل عائلة عبيط واحد، أو مجنون واحد بين أقربائها ، لكن أكثر الناس يستحون عادة من هؤلاء الشواذ ، ويحاولون إخفاءهم عن العيون والأسماع .

وقد عاشت ريتا ـ كما نسميها ـ فى كفالة أبى، حتى وفاته عام ١٩٦٢ ، ثم عاشت فى كفالة أختى الكبرى منيرفا فى المنيا ، حتى وفاتها فى أواسط السبعينيات، وكان المفترض أن تنتقل إلى بيت أخى الأكبر فيكتور ، لكنه رفض ذلك رفضاً باتاً ، وحاول تفسير رفضه بأن بناته فى سن الزواج ، ولو رآها العرسان؛ فسوف يهربون . وقد قبلت منطقه على مضض ، بعد أن حاولت إفهامه أن المصارحة خير من التدليس !» .

وانتقلت مرجريت إلى الإقامة فى بيت لويس عوض مع زوجته الفرنسية المغرمة بتربية القطط ، والتى تقتنى منها حوالى عشرين قطة

تخصها بحبها وأمومتها ، إذ لا ينسى لويس عوض أن يذكر قارئه بأنه هو وشقيقه رمسيس عقيمان ، ولم ينجبا بسبب زواج الأقارب الذى أثمر بعض الاضطرابات الوراثية فى نسل أبيه ، فأدى إلى عقم لويس ورمسيس من ناحية . . وكثرة إنجاب شقيقهما فيكتور من ناحية أخرى . ويجد تفسيراً لذلك فى أن أباه وأمه ابنا عم وخالة فى نفس الوقت، كما أن الجدين أيضاً كانا من نفس الأسرة .

وبسبب قطط مدام لويس ، لم تحتمل مرجريت الحياة طويلاً فى بيت شقيقها المفكر الكبير ، وانتهى الأمر بإيداعها داراً للمسنين .

أما كيف عاش حنا أفندى خليل عوض حياته بلا عمل، سوى إدارة شئون الأسرة من سن الحادية والأربعين حتى الممات ، فقد كانت له ـ كما يقول ابنه الناقد الأدبى الشهير ـ « عادات يومية ثابتة يزاولها . . فيستيقظ فى السابعة صباحاً ـ ولا يُفطر إلا فنجاناً كبيراً من القهوة السوداء ، ثم يقرأ الصحف والمجلات ، ثم الكتب الثقافية والروايات، وغالباً الإنجليزية ، ويصرف شئون الحياة ، ويعطى زوجته مصروف اليوم ، فإذا أوشك النهار أن ينتصف؛ يجلس على مقعد من القماش مما يتمدد عليه المسافرون على ظهر الباخرة، وبجواره مائدة صغيرة عليها طبق من الترمس أو الفول النابت، ومطفأة سجائر، وكوب زجاجى، وعلى الأرض إلى يمينه زجاجة نبيذ أحمر ملفوفة بفوطة بيضاء مبلولة ، فيشرب أبى نبيذه على مهل ، و(يمز) بالترمس، حتى تأتيه أمى بطبق من كبد الفراخ والقوانص، وقلما كان يأكل اللحم » .

ويواصل لويس عوض رسم هذه الصورة لأبيه، فيحكى عنه أنه حين يثقل رأسه؛ ينهض للنوم ساعة أو ساعتين، ثم يصحو ، ويرتدى ملابسه ويخرج للمشى حوالى ساعة على شاطىء النيل ، ثم يعود إلى بيته مع الغروب، وفى التاسعة مساء تتكرر نفس طقوس زجاجة النبيذ والترمس وعشاء الكبد والقوانص ، وهكذا كان الأب يحتسى زجاجتى نبيذ كل يوم، إلا إذا كان معتل الصحة، أو يعانى من أزمة مالية، فإنه فى هذه الحالة كان يكتفى بزجاجة واحدة يقسمها نصفين ، ويكمل نصفها بالماء . وقد عاش حتى مات فى الثمانين ، دون أن يمرض مرضاً شديداً ، أو يدخل مستشفى » .

وفى تقديرى أن الدكتور لويس عوض ـ الذى عرفته عن قرب، وعرفت فيه إنساناً له مثالياته الجديرة بالتأمل، بغض النظر عن الاتفاق أو الاختلاف مع بعض آرائه ـ قد ورث عن أبيه هذا قدراً كبيراً من سماته النفسية فى الصلابة والعناد والتمسك بالرأى ، والعجز عن اللف والدوران فيما يعتقد أنه الصواب .

وقد دفع لويس عوض نفسه ثمناً غالياً من عمره لهذه السمات . . فلقد أراد بعد أن حصل على شهادة البكالوريا فى عام ١٩٣١ أن يلتحق بكلية الآداب، ورفض الأب ذلك بإصرار؛ وطالبه بالالتحاق بكلية الحقوق ، وإلا امتنع عن الإنفاق على تعليمه . . وفشلت كل محاولات الابن معه ؛ فاضطر لمسايرته فى النهاية ، وسافر إلى القاهرة، وقدم أوراقه لكلية الآداب سراً، وزار الدكتور طه حسين فى بيته بالهرم، وعرض عليه

مشكلته، وطلب مساعدته فى الحصول على المجانية ، لكيلا يحتاج إلى أبيه ، وتحرج عميد الأدب العربى من أن يشجع فتى صغيراً على عصيان أبيه، لكنه وعده فى النهاية بالنظر فى طلبه ، ورتب لويس عوض أموره بحيث يدرس الآداب «سراً» ويضع أباه أمام الأمر الواقع، لكن السر انكشف سريعاً ؛ وهرول الأب إلى القاهرة ، ليتدارك الأمر .

«وكانت مناقشة شاقة فى بيت عمى، اختلط فيها الاحتجاج على استبداده وعناده بالخجل من سلوكى المخادع، وبالرجاء من جديد فى أن يغير رأيه فى موضوع دراستى الجامعية، لكن دماغه الناشف كان كالحجر الأصم !» .

ولم تفلح أية محاولة مع الأب حنا خليل عوض لتغيير رأيه. وانتهى الأمر باصطحابه لابنه إلى كلية الآداب، وسحب أوراقه منها ،وتقديمها إلى كلية الحقوق التى رفضتها لانتهاء موعد التقديم . . ورفض الأب مرة أخرى الاستجابة لرجاء الابن بالعودة إلى كلية الآداب، وقدم أوراقه لمدرسة التجارة العليا، وعاد إلى مدينته ، مطمئناً إلى أنه قد تدارك الكارثة فى الوقت المناسب، لكن الابن لم يجد نفسه فى مدرسة التجارة العليا . . وشكا لأبيه خلال زيارته للمنيا من عدم تحمسه لدراسة التجارة ، فتفهم الأب الموقف «بحكمته» وطلب منه البقاء معه بالبيت، حتى يبدأ العام الدراسى الجديد، ويقدم أوراقه للجامعة مرة أخرى .. وفهم لويس أن أباه قد سلم أخيراً بأنه ليس من الحكمة أن يرغمه على دراسة لايميل إليها ، وقضى ما بقى من شهور العام هادئاً وراضياً .

وحين اقترب الصيف، تحدث أمام أبيه عرضا عما سيفعله حين يلتحق بكلية الآداب ففوجىء به يقول له باستنكار :

ـ ومن قال لك إنك ستلتحق بكلية الآداب ؟ .

أنت ستلتحق بكلية الحقوق، كما يفعل العقلاء ! .

واشتعلت الأزمة مرة أخرى، وفشلت كل الجهود مع الأب العنيد؛ فهجر لويس عوض بيت أسرته، وسافر للإقامة بالإسكندرية مع شقيقه فيكتور الذى يعمل معاوناً بالسكة الحديد، وطلب منه أن ينفق على دراسته الجامعية لكى يدرس الآداب، ووعده شقيقه خيراً ، فأمضى معه شهور الصيف، ثم جاء «البشير» من المنيا فى خطاب من الأب، يدعو فيه ابنه للعودة إلى بيت الأسرة، مؤكداً له أن «الموضوع سوف يحل على خير » .

ورجع لويس إلى المنيا سعيداً باستجابة أبيه لنداء الحكمة أخيراً . وبعد أيام من الهدوء فى منزل الأسرة فوجىء بأبيه ينبئه أنهما سيسافران إلى القاهرة بعد أيام لتقديم أوراقه إلى . . كلية الحقوق ! .

كلية الحقوق مرة أخرى ! . وبُهت الابن الشاب لما سمع، وقال لأبيه محتجاً : لكنك قلت فى خطابك..فلم يدعه الأب يسترسل فى حديثه، وقاطعه قائلاً : « ماذا قلت يا حمار ؟ . أنا لم أعد بشىء، وإنما وعدت بأن المسألة ستحل ! . إذن اعقل، وادخل الحقوق » ! .

وفقد لويس الشاب آخر أمل فى التفاهم مع أبيه؛ فهجر بيت الأسرة من جديد، وسافر إلى القاهرة ، وعمل بالترجمة والكتابة فى الصحف ليعول نفسه. وبعد عامين طويلين، توقف خلالهما عن الدراسة الجامعية، استسلم الأب العنيد؛ وقبل أن يدرس ابنه الآداب، بدلاً من الحقوق؛ فالتحق لويس عوض بكلية الآداب، ولفت انتباه أساتذته بتفوقه، وتم إرساله إلى بعثة للحصول على الدكتوراه من جامعة كيمبردج . . ورفض قبل سفره قبول وظيفة سكرتير لرئيس شركة شل بمرتب كان يسيل له لعاب الخريجين وقتها . . ولو قبلها وانصرف عن الأدب والحياة الجامعية، لربما انتهى به الحال مديرا لإحدى شركات البترول .

ويبدو أن لويس عوض كان ـ وهو يكتب آخر فصول كتابه هذا ـ يتخيل نفسه وحياته، لو كان قد اختار طريق الوظائف الآمنة البعيدة عن تقلبات الحياة الفكرية والسياسية . . ويتساءل فى سريرته: هل أصاب أم أخطأ بما فعله بحياته . .؟، فلم يلبث أن أجاب على تساؤله الحائر هذا بقوله فى ختام كتابه : « وأنا الآن بعد خمسين عاماً من هذه الأحداث التى أسترجعها فى تأمل حزين ، ورغم خمسين كأساً من العلقم جرعتها حتى الثمالة ، لست نادماً على اختيارات حياتى ، مع أنى أقترب من القبر ، ولا أملك شيئاً من متاع الدنيا غير لقمتى وسترتى ووفاء الشباب من قرائى على تعاقب الأجيال . . ولو عدنا إلى الوراء ، لبدأت كل شىء من جديد، حتى حماقات حياتى ! . . فلقد كنت أقول دائماً للسائلين : عملك وزوجتك اخترهما بمفردك. . بقلبك وعقلك وحدك ،

ولا تستنصح فيهما أحداً ، فهما يعايشانك فى الليل والنهار ، فإن أخطأت ، فلا تشرك الغير فى أخطائك ، فليس هذا من سمات الشرفاء!» .

يرحمه الله . .

ويرحم الله كل أب وأم أنجبا ابنا أديباً وفناناً ومفكراً . . سيكتب ذات يوم عن حياته وأسرته وأشقائه ، فلا يتجمل ، ولا يتحرج ، ولا يخفى شيئاً مما تحرص الأسر العادية دائماً على إخفائه من عوراتها وأسرارها ! .

اللحظة الفاصلة !

قاومت كل الضغوط . . صمدت لكل الإغراءات . . رفضت كل التهديدات، إلى أن لمحت نظرة الاستخذاء الفاضحة فى عينى زوجها . . فاهتزت كل قيمها ، وانهارت مقاومتها ، وهرولت ساعية إلى الرجل الآخر، الذى حثَّها الجميع ـ من قبل ـ على الاستجابة لرغباته ! .

لقد كانت على استعداد لأن تواصل طريق المقاومة ، وتتحدى من لا يجرؤ أحد على تحدِّيه إلى آخر المدى . . لكن الطعنة جاءتها هذه المرة من الخلف . . ومن آخر إنسان تتوقع أن يضعف أمام سطوة الرجل الطامع فيها ، وأول إنسان ينبغى له أن يحميها ، وأن يعينها على المحافظة على شرفها وشرفه حتى النهاية . . فلأى شىء إذن تتحمل كل هذه الضغوط القاسية ؟ .

لقد كان حبها لزوجها هو الذى يعينها على الصمود ، والحب وحده يكفى لأن تصمد المرأة أمام كل النداءات والإغراءات ، أما «الشرف» الذى ينبغى له أن يعصمها من الزلل ، أحبت زوجها ، أَمْ لم تحبه . . فلا مكان له فى هذا الوسط «الراقى» الذى تعيش فيه ، بل إنه سبب

«غير مفهوم» فى هذا الوسط لأن ترفض زوجة شابة جميلة مثلها نداء هذا السيد المهيب ، الذى لا يُردّ له نداء! .

حتى صهرها ـ والد زوجها ـ الرجل المسن الوقور ، الذى يشغل أرقى المناصب ، قد لامهَا على «إذلالها» للسيد ، ورفضها له ! ، وقال لها أنها هى وهو والجميع مِلكُه وطوع أمره ، فكيف تجرؤ على «إتعاسه» برفضها لنداء حبه ؟! .

وحتى والدة زوجها . . السيدة الأرستقراطية المتكبرة ، زجرت فى وجهها تتهمها «بالأنانية» ، لأنها تضحى بالأسرة كلها ، وتعرض الجميع لمحنة شديدة باعتزازها الزائف بنفسها ، وترفعها الممقوت عن الاستجابة ليد «السيد» الممدودة إليها ! ، وتقول لها أنه إذا أخطأ فرد من أفراد الأسرة ، فإن الجميع يدفعون معه الثمن ، وليس هو وحده ! .

حتى الكاهن العجوز نفسه ، دعاها إلى مقصورة الاعتراف بالكنيسة الملكية ، وقال لها من وراء الستار مُحرجاً : أن الظروف قد تفرض عليه أحياناً أن يتدخل فى الشئون الدنيوية للأشخاص ، وأن «السيد» مريض بحبها ، وهذا ليس فى صالح البلد ، وكل ما يرجوها فيه السيد هو أن تدعه فقط يحبها ! . . فلا تملك إلا أن تذكر الكاهن العجوز بتعاليم الكتاب المقدس التى تقول : « لا تشته زوجة جارك» ، فلا يجد الرجل ما يجيبها به ، سوى أن «الظروف» قد تضطر المرء أحياناً إلى التنازل عن بعض الاعتبارات من أجل الصالح العام ! .

أما قمة الضغوط ، فقد جاءت من حيث لم تتوقعها ، ولم تتخيلها من قبل . . فلقد جاءت إليها الوصيفة العجوز تدعوها لمقابلة زوجة السيد، التى ينحنى أمامها الرجال والنساء فى إجلال ، فتوجهت لمقابلتها وأحسنت السيدة الجليلة استقبالها ، ثم سألتها بعطف ظاهر :

ـ أتحبين زوجك ؟ .

فأجابتها : نعم يا سيدتى .

فقالت لها : أنا أيضاً أحب زوجى . . وأريدك أن تساعدينى على إنقاذه من حزنه واكتئابه . . إنه يعانى بشدة من حبه لك . . إنه ليس افتتاناً عابراً ، وإنها محنة حقيقية . . وهو شخص مُهم لنا وللجميع . . أما أنا وأنت فامرأتان لا أهمية لنا . . ومن واجبنا مساعدته وإسعاده ! .

وتعجبت الزوجة الشابة لما سمعت من السيدة الجليلة ، واستنكرت أن تنضم هى أيضاً إلى من يضغطون عليها لكى تخون زوجها ، وتستجيب لنداء السيد . . زوج هذه السيدة نفسها ، فقالت لها باستحياء : لكنى امرأة متزوجة يا سيدتى !

فإذا بالسيدة الجليلة تركع أمامها باكية ، وتتوسل إليها أن تساعدها على شفاء السيد من مرضه بحبها ، وأن تغفر لها أيضاً هذا الرجاء ! .

ورغم كل ذلك . . لم تستجب الزوجة الشابة لتوسلات زوجة السيد، ولا لكل الضغوط القاسية التى اشتدت إليها ، ولا أيضاً لنظرة الكراهية الصامتة التى تراها فى أعين الجميع حولها ، تستنكر تمنُّعها على

السيد ، وتحثها فى صمت على الاستجابة له . . وكان سندها الوحيد فى هذا الصمود هو حبها لزوجها، واستنكارها لفكرة خيانته ، وهى مَن أحبته ، وعاهدت ربها على الإخلاص له حتى نهاية العمر أمام كاهن الكنيسة فى حفل الزواج . . إلى أن جاءت اللحظة الفاصلة !

فقد كان السيد قد أوفد زوجها الشاب فى مهمة خارج المدينة ، غاب فيها شهراً كاملاً ، وأمره بألا يصطحب معه فى سفره زوجته الجميلة ، واستجاب الزوج لأمر السيد ، ورفض توسلات زوجته له بألا يتركها وحدها ، حتى بعد أن صارحته بما تتعرض له من خطر من جانب السيد، ومع ذلك . . فلم تفقد حبها له . . والتمست له بعض العذر فى عجزه عن مخالفة أمر السيد ، الذى كلفه بمهمة سرية ، لا يجب أن تطلع عليها زوجته ! .

وأمضت هى شهراً طويلاً فى غياب زوجها ، صامدةً فى وجه كل الإغراءات والضغوط ، واكتأب السيد لما يلقاه منها من رفض وجفاء ؛ فهجر بيته، واعتكف فى البيت الصيفى البعيد ، معتزلاً الجميع ، ومستسلماً للحزن والاكتئاب . . ومع كل يوم يمضى فى عزلته بغير أن تلحق به الزوجة الشابة من تلقاء نفسها ، يزداد حزنا واكتئاباً . . إنه لن يجبرها على شىء، كما قال لها منذ البداية . . لكن كيف «تعلم» برغبته فيها ، وحبه العميق لها ، ثم لا تأتى إليه طائعةً ، كما قد تفعل أية امرأة أخرى فى مجتمعه إذا استشعرت فقط مجرد مَيْله إليها ؟! .

لقد تعطلت شئون مهمة كثيرة بسبب احتجاب السيد واكتئابه ،

ورفضه مقابلة كبار رجاله ومعاونيه . . فكيف تعرض هذه الزوجة المغرورة مصالح الجميع للضرر هكذا ؟ .

ثم جاءت اللحظة المرتقبة ، ورأت الزوجة الشابة من نافذة مخدعها زوجها الشاب يرجع إلى بيته من سَفَره؛ فهرولت تصلح من شأنها ، وتنفث بعض العطر فى وجهها وجسدها ، ثم أرخت أيضاً ثوبها المخملى عن كتفها ، لتزيد من فتنتها ، وجلست فى فراشها تترقب فرحة اللقاء بعد الغيبة الطويلة ، ففتح الزوج باب جناحه ، ودخل فى هدوء ، ووضع حاجياته على مائدة ، وتحرك ببطء ولا مبالاة ، كأنما لا يتوقع أن يجد أحداً فى استقباله ، ثم اتجه إلى غرفة النوم ، فرأى زوجته ترقبه بابتسامة عريضة . . وبدلاً من أن يندفع إليها معانقاً ، بـدا كما لو كـان قد فوجِىء بوجودها فى البيت ، فنظر إليها باستخذاء ، ثم قال لها فى فتور:

ـ أأنت هنا ؟ . لقد ظننتك مع السيد فى البيت الصيفى ! .

فإذا بكل حصونها تنهار فجأة . . وإذا بكل غضب الدنيا يشتعل فى صدرها فى لحظات، وإذا بها تدرك فى نظرة الاستخذاء القاتلة فى عينيه أنه كالجميع . . . يخشى على مركزه لدى السيد ، ولا يبالى بشرف زوجته وحبها له ، لكنه على عكس الآخرين . . كان يتمنى فى أعماقه أن يتم هذا «الأمر» فى غيبته ، لكى يتظاهر بعدم معرفته ، لكن الزوجة العنيدة رفضت أن تمنحه حتى هذا القناع المزيف ، وآثرت أن يتم كل شىء فى العلن ، وبلا مواربة ؛ فهرولت برداء النوم الشفاف المتهدل عن كتفها

تعدو إلى ساحة البيت ، وركبت نفس العربة التى جاء بها زوجها ، وأمرت سائقها بعنف بأن يسرع بها إلى المقر الصيفى للسيد ! .

لقد احتملت كل شيء ، واعتصمت بحبها لزوجها فى الصمود أمام كل الضغوط . . وها هو الحصن الأخير قد انهار . . فماذا يدعوها إذن لمواصلة المقاومة؟! .

لقد هرولت حافيةً إلى مقر السيد . . ودفعت الخدم عن طريقها إلى غرفة نومه ، وفتحت بابها بقوة ، فوجدته يقف بجوار النافذة يرقبها فى حزن وأمل ! .

وسلَّمت له الزوجة الشابة الفاتنة نفسها . . لكنها قبل أن تفعل ، أملَت عليه كل رغباتها . . واستجاب لكل ما طلبت من قبل أن تنبس به . لقد طلبت طرد أسرة زوجها كلها . . صهرها . . ووالدة زوجها ، وباقى أفراد الأسرة من خِدمة السيد . . ومن مسكنها فى رحابه ، ما عدا زوجها الذى طلبت الإبقاء عليه ، وتم طرد الأسرة كلها بلا رحمة ، وإحراق أثاث بيتها .

وتدلَّه السيد فى حبها ؛ واستجاب لكل رغائبها بلا تردد ، حتى فى الشئون العامة ، وشئون بلده وعمله ، ولم يستنكف أن يرجع عن قرار اتخذه إذا اعترضت عليه ، أو رأت فيه غير ما رأى .

وفى غمار انشغاله بحبها عن كل شيء ، وملازمته الدائمة لها ، مرضت بالجدرى؛ فترك كل الشئون العامة ، وتفرغ لتمريضها بنفسه ،

وعلاجها أسابيع طويلة ، حتى شفيت من مرضها بعد جهد جهيد .

وضاق كل من حثُّوها من قبل على الاستجابة لنداء السيد بسيطرتها عليه، بعد أن رضخت للأمر الواقع ونفذت نصائحهم ، وكرهوها مرة ثانية لسيطرتها المطلقة على السيد ، بعد أن كرهوها من قبل لتمنُّعها عليه .

أما هى ، فلم تعد تأبه لشىء، أو تحترم أحداً . وعاملت الجميع باحتقار وازدراء ، وفى مقدمتهم السيد نفسه الذى يتفانى فى حبها وخدمتها والاستجابة لرغباتها ، ومن قبل كل هؤلاء . . زوجها الذى لم يحمها من السيد . . ولم يمنعها منه ، حتى ولو ضحى بمركزه وطموحه الشخصى الرخيص فى سبيل ذلك .

وتدهورت الأحوال فى بلد السيد ، وغزت الدولة المجاورة أراضيها ، وانهزم الجيش، لانشغال قائده بمصاحبة عشيقته عن قيادة جيشه فى الجبهة .

وثار عليه وعليها ابن السيد الشاب الطموح ، وطالبه ـ بعد أن أصيب أبوه بجراح بالغة ـ بالتنازل له عن موقعه ـ وطرد هذه «العاهرة» التى جرَّت الخراب على بلده . وهم السيد بالتنازل لابنه بالفعل ، لكن الزوجة الشابة التى كانت قد أعدت عدتها للهرب ، رجعت من منتصف الطريق ، وطالبت السيد بألا يتنازل عن موقعه، لأنه السيد ، ولأن الجميع لابد أن يكونوا فى خدمته . ونظر إليها السيد الجريح ـ وهو

مهيض الجناح ـ نظرة عرفان شديد . . ثم طالبها بأن تسرع بالهرب من المكان ، لا لأنه لم يعد يحبها . . وإنما لأنه مازال يحبها بنفس القوة ، وربما أكثر ، لكنه لم يعد الآن يستطيع أن يحميها من خصومها ويحفظ عليها حياتها . . ولهذا فهو يرجوها . . بل ويتوسل إليها أن تدعه لمصيره وأن تهرب .

ولأول مرة منذ التقت به وعرفته واضطرت لملازمته شهوراً طويلة ، نظرت إليه الزوجة الشابة نظرة حبٍ صادقة ، وقبلته لأول مرة قبلةً إراديةً، وليست مغتصبة منها ، واعترفت له بأنها تحبه «الآن» ، بعد أن عاشرته كل الفترة الماضية وهى لا تحمل له أية لمحة حب ولا تعطيه من نفسها إلا ما يغتصبه هو بسلطانه منها .

ويهتز السيد لما سمع . . ويتأثر به . . ثم يلحّ عليها بالهرب ، فتودعه الزوجة الشابة باكيةً ، وتهرول ناجيةً بنفسها ، وتاركة السيد لأقداره .

لقد ظلت تُضمر له الاحتقار والكراهية ، حتى وهو يرفعها فوق أقدار الجميع ويجبرهم على الانحناء لها ، ثم نبض قلبها بالحب له لأول مرة وهو جريح ، عاجز عن حماية نفسه وحمايتها ، لأنه أثبت لها ـ بطلبه منها الهرب والنجاة ـ أنه يحبها حباً عظيماً ، يدفعه لأن يحرم نفسه منها ، لتنجو هى بحياتها .

لقد فشلت سطوته السابقة التى ينحنى لها الجميع فى أن تزرع بذرة

الحب فى قلبها تجاهه . . ونجح ضعفه وعجزه وتضحيته المخلصة بقربها أن يبذر هذه البذرة الغالية ، التى تأخر غرسها فى قلبها من قبل طويلاً .

إنها قصة غريبة شاهدتها فى فيلم أمريكى مؤخراً ، وأثارت اهتمامى ، وتصورت فى البداية أنها خيالية . . فإذا بى أكتشف ـ بعد أن رجعت إلى كتبى ومراجعى عن هذه الفترة من تاريخ إيطاليا قبل الوحدة ـ أنها قصة حقيقية ، جرت فى مملكة أو دوقية بيدمونت التى كانت تحكمها أسرة سافوى منذ القرن الحادى عشر ، والتى ضمت إليها مملكة سردينيا منذ عام ١٧٢٠ ، وكان هذا السيد العاشق هو ملك هذه المملكة، حين جرت أحداث هذه القصة فى بداية القرن الثامن عشر ، أما الزوجة الشابة، فقد كانت الكونتيسة الجميلة فرنسية الأصل (دى فيروا) زوجة رئيس ديوانه ، وقد فرّت من عاصمة المملكة تورينو ، ورجعت إلى بلدها فرنسا، وظهرت فى باريس بعد كل هذه الأحداث وعمرها ٢٣ سنة فقط ، ولم تتزوج بعد زوجها الأول أبداً ، واشتهرت بجمالها وجاذبيتها ، وسحر شخصيتها الآسرة فى البلاط الملكى الفرنسى ، ومحافل باريس وصالوناتها الأدبية ، حتى ماتت سنة ١٧٣٦ ، تاركةً وراءها هذه القصة العجيبة . . قصة صمود زوجة شابة أمام إغراء ملك ، يسارع الجميع إلى تلبية رغباته قبل أن يصرح بها ، فتحدَّت هى إرادته ، وصمدت فى وجه كل الضغوط ، حتى هزمتها نظره استخذاء مشينة فى عينى زوجها ؛ ففقدت الإيمان بكل شىء ، وكان انتقامها من زوجها ـ الذى أخلصت له الحب من قبل ـ رهيباً ، فقد رفضت أن تسرّحه من خدمة الملك مثلما

طردت أسرته ليذوق الهوان وهو يراها فى صحبة الملك فى كل مكان، والجميع يعاملونها كعشيقته «المحترمة» ! .

ويشتد ضيق الزوج بما يعانيه ؛ فيسألها : لماذا ترغمينني على البقاء فى البلاط على غير إرادتى ؟، فتجيبه بإصرار : لأننى عانيت شهوراً طويلة وأنا أدافع عن شرفى وحبى لك ، ولم تحمنى منه . . ولأنك أردته أن يحظى بى وأنت غائب، فتستفيد ، وتستفيد أسرتك . ولقد ظللت أرفض أن أصدق ذلك ، حتى رأيته فى نظرة عينيك ليلة عودتك من مهمتك بعد غياب شهر رهيب ! .

ولا عجب فى ذلك . . فالمرأة قد تتغاضى عن أى شىء فى زوجها ، إلا أن تحس بضعفه واستخذائه ، وعجزه عن حمايتها من أطماع من يملك أن يحقق له طموحه الحقير فى الحياة بتغاضيه عن حمايتها منه .

هذه القصة التاريخية الحقيقية درس يصلح لكل زمان ومكان . . رغم اختلاف الظروف ! .

كلهم أبدعوا .. كلهم تعذبوا

هل فكرت مرة فى أن تُشعل شمعة من طرفيها ، وليس من طرف واحد؟ . لا بالطبع ، لأنك لو فعلت فسوف تختصر عمرها إلى النصف، وتعجل بفنائها وذوبانها فى أقصر وقت .

لكن كثيرين من الأدباء والمفكرين والفنانين العظام «فعلوها»، وأشعلوا الشمعة من طرفيها ؛ فاكتووا بنار الإبداع والانفعال المستمر والتفكير المتصل والإحساس الدائم بعدم الرضا عما يبدعون .. وينتجون؛ فاحترقت حياتهم بالمعاناة والاكتئاب والتعاسة .

وحين أقف أمام لوحة شهيرة فى متحف اللوفر بباريس ، أو أحضر حفلاً موسيقياً فى أوبرا فينا .. أو أشهد مسرحية فى مسارح الوست إند بلندن .. أو أستلقى فى فراشى وأقرأ عملاً أدبياً ممتعاً لأحد الأدباء العظام ، قد يفسد على بعض متعتى بما أقرأ أو أسمع أو أشاهد تخيلى لما تكبده «الإنسان» الذى أبدعه من عقله وأعصابه وانفعالاته ، لكى يفرز لى هذا «الرحيق» البديع الذى أستمتع به بلا عناء .. ويقلل من استمتاعى به أحياناً ما أعرفه عن سيرة حياة المبدع الذى أنتج «لى» هذا العمل ؛ فاستمتعت به .. ولم يستمتع هو غالباً بحياته ولا بأوقاته ، بل

عاش مكتئباً . . ومات حسيراً . ومن يعرف أكثر ؛ يحزن أكثر . . كما يقولون! .

ولأنى أحاول دائماً أن «أعرف» أكثر عن حياة المفكر أو المبدع الذى أستمتع بإنتاجه . . فإن النتيجة فى كثير مَن الأحيان . . هى أن يخالط إعجابى به الرثاء له . . والإشفاق عليه .

إننى مثلاً من عشاق أدب الروائى العظيم فيدور دستوفسكى (١٨٢٢ ـ ١٨٨١) ، ومع ذلك . . فما من مرة قرأت له رواية من رواياته الشهيرة ، إلا واسترجعت حياته المضطربة بالمرض والنفى والاعتقال . . والديون والحرمان . وقد عاش مريضا بالصرع طوال حياته ، تنتابه نوبات الصرع ، فيسقط على الأرض وتصدر رغاوى الزبد من فمه ، وألقى القبض عليه بتهمة الاشتراك فى جمعية سياسية غير مشروعة ، وصدر عليه الحكم بالإعدام . . وترقب الموت فى كل لحظة ، ثم خفف الحكم إلى النفى فى فيافى سيبيريا الجرداء ، فعاش فيها ٤ سنوات طوالاً سجينا يعانى من المرض والوحدة والحرمان ، وعدة سنوات أخرى يعمل جنديا محروما من مغادرة المنفى والعودة إلى موسكو . وكتب عن سنواته الموحشة فى سيبيريا رواية «ذكريات فى منزل الموتى» ، فأحدثت أثراً عميقاً فى النفوس بما صورته عن الجحيم الذى يعيش فيه المنفيون فى سيبيريا ، والعقوبات الجسدية التى يتعرضون لها . وقرأها قيصر روسيا الإسكندر الثانى ؛ فسالت دموعه على أوراق الرواية . وبفضلها تم إلغاء العقاب الجسدى فى روسيا ، فكتب أحد الأمراء الروس رسالة إلى

القيصر، يرجوه فيها إلغاء هذا العقاب الوحشى الذى صوره دستوفسكى فى روايته ، وشكل القيصر لجنة لدراسة الموضوع ؛ وانتهت إلى إلغائه . . وهكذا نجحت رواية عظيمة فى تخفيف بعض آلام المنفيين والمعاقبين، لكنها لم تنجح فى تخفيف شىء من معاناة دستوفسكى نفسه مع المرض والحرمان والتعاسة .

فقد أحب زوجة رئيسه الضابط السكير حب عبادة ، ولم تكن تحبه ، وإن لم تخْل من عطف عليه ، ثم نقل الضابط إلى مدينة أخرى بعيدة، فراح يبكى كالأطفال كل يوم ،وكاد يصيبه الجنون . وبعد نقلها راح يكتب إليها بانتظام ، وتكتب إليه بأخبارها ، وتشكو من إدمان زوجها للشراب ، ومن الفاقة والخوف من المستقبل ؛ فتسوء صحته مع كل رسالة ، وتعاوده نوبات الصرع كثيراً ، ثم توفى زوجها ؛ وراح يتوسل إليها فى خطاباته أن تتزوجه ؛ فتراوغه ، وتحدثه عمن يتقدمون لخطبتها ، وهو يتعذب ويحترق ، إلى أن وافقت على الزواج منه . . وسافر إليها ، وعقد قرانه عليها ، وعاد بها بثوب الزفاف الأبيض إلى مدينته ، وهو يتعجل اللحظات الباقية على وصولها إلى بيت الزوجية الجديد ، فما إن بلغاه، وأغلق باب غرفة نومه عليه وعلى عروسه ، حتى فاجأته نوبة الصرع وسقط على الأرض يرتعش ويخرج الزبد من فمه . ولم يهنأ طويلا بالحب . . فقد مرضت زوجته مرضا طويلاً ، ولازمت الفراش ؛ فقضى الليالى العديدة إلى جوار فراشها يكتب ، وظلال الموت تحيط بالمكان ، وماتت . وتزوج غيرها . . ولم يختلف حاله كثيرا معها ، وظل دائما فى

حاجة إلى المال ، ويعانى من الصرع ، ويكتب بالساعات الطويلة كل يوم ليسدد الديون ، ويواجه مطالب حياته الجافة الكئيبة . . فكيف صاغ لنا هذا المحروم من السعادة فى معظم فترات حياته ، هذا الأدب الخالد ، الذى أجاد فيه تصوير النفس البشرية وخلجاتها وتقلباتها؟ .

وأنا أيضا من عشاق أدب الشاعر الألمانى العظيم جوته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) . وفى صباى قرأت له روايته الرومانسية الحزينة «آلام فرتر »؛ فكانت دموعى تهطل على أوراقها ، كما فعل القيصر الروسى وهو يقرأ رواية دستوفسكى . ولم تكن «آلام فرتر » سوى آلامه هو شخصيا ، ولم تكن قصة عذاب فرتر مع من أحبها واختارت غيره ، سوى قصته هو نفسه . وقد ظل لفترة بعد انهيار حبه يفكر فى الانتحار ، ويضع تحت وسادته خنجرا ، يحاول أن يستجمع إرادته ليغرسه فى قلبه ، فيفشل كل ليلة . وحين تأكد من عجزه عن الانتحار ؛ قرر أن يكتب قصة الحب الفاشل فى رواية ، وأن يقتل بطلها الشاب الحزين ! .

وتكررت القصة فى حياته بعد ذلك عدة مرات ، فكان سريع الوقوع فى الحب . . سريع النسيان بعد فترة مناسبة من العذاب والمعاناة والبكاء كالأطفال . . ولقد عاش طويلاً (٨٢ عاما) ، ونال من المجد الأدبى والشهرة مالم ينله أديب ألمانى قبله . ومع ذلك . . فلقد قال لصديقه إكرمان الذى كتب سيرته :

« لقد عُددت دائماً من المحظوظين . . ولست أشكو من حياتى فى

النهاية ، لكنه من الحق أيضا أن أقول أننى لم ألق فى حياتى سوى الحزن والهموم والعناء. وأستطيع أن أقول أننى خلال عمرى كله لم أستمتع بالراحة شهراً واحداً . إن حياتى كانت كلها دفعاً لحجر ينبغى على أن أدفعه إلى أعلى التل ، وكلما بلغت القمة سقط الحجر إلى السفح . . وعدت لمحاولة دفعه لأعلى من جديد، كما فى أسطورة سيزيف !

وقال له أيضاً ، والشجن يغلف مشاعره وأحاسيسه :

حين أراجع حياتى من الشباب إلى الشيخوخة ، وأتذكر قلة الباقين على قيد الحياة من أصدقاء الشباب ، تبدو لى الحياة كفندق صغير من فنادق الصيف . . حين نصل إليه ، فإننا نصادق من وجدناه فيه قبلنا، وهؤلاء لا يلبثون قليلاً ، ثم يرحلون ؛ فيؤلمنا رحيلهم ، ونتحول إلى الجيل التالى بعدهم ، ونوثق صلتنا بهم ، لكنهم يذهبون هم أيضا ، ويتركوننا مع جيل جديد يجىء ونحن نهم بالرحيل ، فلا تكون بيننا وبينهم أية صلة ! .

وكان جوته صادقاً فيما قال ، فقد كتب الجزء الأول من معجزته الأدبية رواية « فاوست » فى ثلاثين سنة ، وكتب الجزء الثانى منها فى ٢٥ سنة . وقد اقترب منه شاعر يصغره بعشر سنوات ـ هو شيللر ـ ونعم بصداقته ، فلم يلبث أن مات بالسل بعد ١١ عاما من تَعرفه عليه ؛ فأغلق جوته غرفته عليه ، وبكى بالدمع الغزير كالأطفال ، وقال : لقد فقدت نصف موهبتى . . ومفكرتى الأدبية خاوية الآن كحياتى .

والناقد الإنجليزى العظيم صمويل جونسون (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤) اضطرته ظروفه بعد وفاة أبيه لأن يتزوج وهو فى السادسة والعشرين من عمره من سيدة تكبره بعشرين عاما ، لأنها جاءته « بدوطة » كبيرة نسبياً ليصلح بها حاله ، وكانت حياته معها هادئة ، رغم افتقاده للحب . وقد أصيب بنوبة اكتئاب طويلة ، وساءت صحته حين ماتت ، رغم أنها كانت مدمنة للشراب فى سنواتها الأخيرة . وقد عاش معظم سنوات حياته يكافح الحاجة والفقر ، وافتقاد التقدير ، وكتب روايته الوحيدة «الوادى السعيد » لمجرد أنه علم باشتداد المرض على أمه ، التى تقيم فى مدينة أخرى ، ولم يكن معه ما يواجه به نفقات جنازتها القريبة ؛ فرجا ناشره أن يعطيه ثلاثين جنيها مقابل أن يكتب له رواية خلال أسبوع واحد ، واستجاب الناشر لرغبته ؛ فعكف جونسون على كتابة روايته الوحيدة كل مساء لمدة أسبوع ، وليس فى ذهنه سوى شىء واحد ، هو أن يستطيع توفير نفقات جنازة أمه ، ولا يتمنى شيئاً سوى أن يطيل الله عمرها بضعة أيام ، حتى ينتهى من الرواية .

ثم أنفق بعد ذلك من عمره ثمانى سنوات فى وضع قاموس للغة الإنجليزية ، وتخلى عنه اللورد الإنجليزى المحب للأدب الذى شجعه فى البداية على إعداد القاموس ، ووعده بالمساعدة مادياً فى إنجازه . . وبعد ثمانى سنوات طويلة من العمل المتصل ، صدر القاموس ؛ فاعتبره النقاد درة القرن الثامن عشر ، وكتب عنه اللورد الإنجليزى نفسه مقالين، يشيد فيهما بجونسون ، ويصفه بأنه ديكتاتور اللغة

الإنجليزية، الذى إذا شاء حكم ببقاء كلمة إنجليزية على قيد الحياة ، أو بموتها . وقرأ جونسون المقالين ؛ فجددا أشجانه وأحزانه ، وكتب للورد رسالة تفيض بالمرارة يقول له فيها :

ـ لو أن الاهتمام الذى تفضلتم بإسباغه على جهودى الآن قد جاءنى فى وقت مبكر ، لكان عطفاً لا يقدر بمال . . لكنه يا سيدى قد تأخر طويلاً ، حتى أصبحت وحيدا لا أجد حولى من أحدثه عنه . . وشهيراً بحيث لا أحتاج إليه ! .

ولم يسعد فعلاً باهتمام اللورد ، ولا باهتمام النقاد بقاموسه ومقالاته النقدية ، ليس لأنها تأخرت ، وإنما لأنه كان قد فقد القدرة على الابتهاج لأى شىء . . وخيمت الكآبة والأحزان على حياته كلها ، حتى كتب عنه صديقه وكاتب سيرته الذاتية فيما بعد ـ الكاتب الإيرلندى جيمس بوزويل ـ: كانت الملانخوليا « أى شدة الحزن والانقباض » من طبيعته ، وكان سريع التأثر بإهانات لا وجود لها إلا فى خياله ، وتنتابه نوبات من الوجوم والانقباض ، وكان دائم الشكوى من أمراض لا أثر لها إلا فى ذهنه .

وكذلك كانت حياة عدد طويل ، لا نهاية له من المبدعين والمفكرين والفنانين . . . فالفيلسوف الألمانى هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) الذى وضع أسس المنطق الجدلى ، أمضى فى شبابه بضع سنوات يكافح لكسب رزقه الضرورى ، ثم مات أبوه ، وورث عنه بعض المال ؛ فقرر أن يتفرغ للفكر

. . واختار مدينة صغيرة ليعيش فيها ، وراح يمضى الساعات الطويلة كل يوم ، قارئاً وباحثاً ومفكراً ، حتى تشكلت معالم فلسفته الجدلية ، وبلغ من استغراقه فى أفكاره أن تقوس ظهره ، وتجعد جبينه، وأصبح خدّاه غائرين وهو فى شرخ الشباب ، فوصفه أحد معاصريه بأنه كان يبدو فى هيئة موظف مرهق بالعمل دائماً . . لكنه كان موظفا مهمته التفكير ! .

ولا غرابة فى ذلك . . فقديماً قال أحد العرب ، واصفا الشاعر العربى «أبو تمام » أنه لا يعيش طويلاً ، لأن عقله يأكل جسمه ! . وصدقت فراسته ، فلم يطل به العمر ، ومات بعد عامين من هذه النبوءة ، لأن ذهنه الحاد التهم جسمه . . تماما كما يلتهم الفكر والإبداع حياة كثيرين من الفنانين أو سعادتهم .

وتستطيع أن تقول : كلهم أبدعوا . . كلهم تعذبوا ، واثقاً من حكمك أنه ليس من المبدعين من لم يعرف الألم ! . . فكل إبداع ولادة . . وكل ولادة مخاض له عذاب المخاض ومعاناته ، فإذا كانت المرأة تتعذب بالولادة بضع مرات فى حياتها ، فإن الفنان يتعذب بها كل يوم ، وكل لحظة ، وإلى نهاية العمر . والفنان يشقيه دائماً ـ إلى حد الموت والتفكير فى الانتحار أحياناً ـ شيئان : الإنكار ، وافتقاد التقدير ، ثم الإحساس بالعجز عن الاستمرار فى الإبداع ، أو بأنه لم يعد لديه ما يقوله أو يبدعه للآخرين . . أو لديه ما يريد أن يقوله ، لكنه لم يعد قادرا على

أن يعبر عنه بنفس الإبداع السابق . . لأن الصحة قد وهنت ، والبصر قد كلَّ . . والإرادة قد تراخت .

ولو راجعت عدد المنتحرين ، أو الذين راودتهم فكرة الانتحار ذات يوم من الأدباء والفنانين والمفكرين على مر التاريخ ، لوجدته أكبر منه فى أية فئة أخرى ، ابتداء من الروائى الأمريكى إيرنست هيمنجواى ، الذى بدا للآخرين وكأنه لا عمل له إلا التمتع بالحياة ، والسفر بطائرته الخاصة إلى أفريقيا ، حتى فاجأهم بإطلاق رصاص بندقيته على نفسه . . إلى المبدع العظيم صلاح جاهين ، الذى عاش سنواته الأخيرة فريسة للاكتئاب الأسود ، حتى فقد الإحساس بقيمة كل شىء .

ومن بين الأدباء الذين اختاروا لأنفسهم هذه النهاية الحزينة، تستوقفنى دائما قصة الروائى اليابانى يوكيو ميشيما ، فقد كتب أول أعماله وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وكتب خلال حياته مائة عمل أدبى ، لاقى بعضها نجاحاً كبيراً .

ثم بدأ فى عام ١٩٦٥ يكتب أكبر أعماله ، وهو رواية من أربعة أجزاء اسمها « بحر الخصب » ، فوضع فيها عصير عمره كله ، وفكره ، وتجاربه كإنسان وأديب ، وكان يقول لأصدقائه وهو يكتب روايته هذه أنه حين ينتهى من كتابتها لن يكون لديه ما يقوله بعدها للناس . . وفى هذه الحالة . . . لن يبقى أمامه سوى الانتحار ! .

ولم يأخذ أصدقاؤه حديثه مأخذ الجد . واستغرق ميشيما خمس

سنوات فى كتابة عمله الكبير ، وما إن انتهى منه ، حتى أعلن أنه سينتحر انتحاراً علنياً ، احتجاجاً على تغلغل القيم الغربية الحديثة فى حياة اليابانيين ، وإهدار تراث اليابان التقليدى فى الفكر والسلوك . وفى اليوم المحدد . . لف بكل هدوء حزاماً قطنياً حول وسطه ، ثم أمسك بسيفه التقليدى ، وأغمده فى بطنه بثبات ؛ وسقط على الأرض ينزف دمه ، ومن حوله المصورون ومراسلو وكالات الأنباء يسجلون لحظة الانتحار ، دون أى تدخل أو محاولة لمنع هذا الأديب العظيم من إنهاء حياته ، وعمره لا يزيد عن ٤٥ عاما !

وبعد أن مات ، قال بعض النقاد : إنه كان صادقاً فى حزنه على انصراف بعض اليابانيين عن تقاليدهم القديمة ، وتأثرهم بالسلوكيات الغربية . وقال آخرون : إنه فى الحقيقة كان يستجيب لهاجس ظل يراوده معظم سنوات حياته ، ويطالبه بالانتحار .

وقال آخرون : إنه لو عاش مائة سنة بعد وفاته ، لما كتب شيئاً يفوق رباعيته التى بلغ فيها قمة عطائه الأدبى ، ولابد أنه كان يحس بأنه لن يستطيع أن يكتب شيئاً أفضل منها ، أو يقترب من مستواها ، فعرف أن ساعة النهاية قد حانت، واختار نهايته قبل أن يتعذب بنضوب الموهبة، والعجز عن الاستمرار .

وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا . . فلقد قال الأديب الأيرلندى العظيم برناردو شو قبل ذلك بسنوات عديدة أن النجاح أخطر من الفشل ، وأنه يفضل أن يبقى أمامه دائماً ما يطمح للوصول إليه ، على أن

يصل إلى كل ما يريد ، ويبلغ قمة الجبل التى يحلم بها . . لأنه حين يتحقق ذلك لن يكون أمامه سوى الموت ، فالنجاح التام يعنى انتهاء «مأمورية» الإنسان فى الحياة ، تماما كذكر العنكبوت ، الذى تنتهى مأموريته حين ينتهى من تلقيح الأنثى ! .

ومن الذين أكلت عقولهم أجسامهم أيضا : الأديب التشيكى غريب الأطوار فرانز كافكا (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤) .

وقد تشارك فى اختصار حياته الداءان القاتلان للسعادة معا ، وهما : عذاب الإبداع . . وعذاب التجاهل والإنكار ، فقد بدأ وهو يعمل موظفاً قانونيًّا فى حكومة النمسا فى سن الشباب يكتب رواياته وقصصه الغريبة ، التى تصور الإنسان نهبا للقلق والإحساس بالخطيئة ، وتطارده دائماً قوى غامضة . ولم يستطع أن يعيش من التأليف ، ولم ينشر فى حياته إلا القليل من أعماله وأخيراً وافق أحد الناشرين على أن ينشر له كتابه « التأملات » . وبعد صدوره ، سارع كافكا بشراء ١٠ نسخ منه . . ثم اتصل بالناشر بعد فترة ، ليسأله عن حجم مبيعات كتابه فأجابه بأن الكتاب قد باع ١١ نسخة فقط !. ولم يهتم كافكا بقلة مبيعات كتابه ، بقدر ما اهتم بأن يحاول معرفة شخص قارئه الوحيد ، ولم تنجح محاولاته . وواصل الكتابة ببطء شديد ، وتدقيق أشد ، واكتئاب أعمق، ومات بالسل وعمره ٤١ سنة فى مصحة بالقرب من فينا . . وبعد موته قام صديقه « برود » بنشر إنتاجه وتعريف العالم بأدبه ، فإذا بكتبه تنتشر فى كل أنحاء العالم ، وتترجم إلى معظم لغاته ، بغير أن

يسعد مؤلفها بشيء من التقدير ، ولا براحة الذهن والعقل فى حياته .

ومنهم أيضاً الشاعر الفنان جبران خليل جبران ، الذى عاش فى نيويورك فى شقة صغيرة ضيقة ،كان أصدقاؤه يسمونها الصومعة ، وكانت الصومعة تنطق بفقر صاحبها، وكآبة حياته . وكان يرتزق برسم الأشخاص ، وبيع بعض اللوحات ، ويكتب أشعاره الجميلة كل يوم . . وتطارده نوبات من الاكتئاب ؛ فيهرب من الناس ويعيش فى عزلة . . ثم يتخفف من اكتئابه ، فيخرج إلى أصدقائه ، أو يستقبلهم فى صومعته ، حتى وصفه الشاعر المهجرى ميخائيل نعيمة بأنه كان يصافح الناس بإحدى يديه ، ويصفعهم باليد الأخرى ، أى أنه كان يحبهم أحياناً ويضيق بهم فى أحيان أخرى . وبين العزلة والاكتئاب، ومع الفقر والمعاناة النفسية ، عاش حياته حتى مرض بالقلب من كثرة الجهد والإفراط فى التدخين والقهوة . وبعد أن مات ، ذاعت أشعاره ، وترجمت أعماله إلى لغات عديدة .

وعذاب الفنان الحقيقى لا يقتصر فقط على إحساسه غالبا بأنه لم ينل ما يستحقه من تقدير ، ولا على خوفه الدائم من ألا يجد ما يقوله أو يبدعه للآخرين ، وإنما يمتد أيضاً إلى جحيم آخر . . هو جحيم الشك فى قيمة ما ينتجه ويبدعه ، وجحيم الشك فى جدواه .

فالأديب والفنان والمفكر ليس على يقين لحظة واحدة من قيمة ما يبدعه ، وهو يحس دائماً بأن أفكاره تتلاطم داخله، وتبحث عن طريق تخرج منه إلى النور ، فإذا أفرزها ؛ تعذب دائماً بإحساسه بأن ما أراد أن

يقوله أقل بكثير مما « استطاع » أن يقوله . . وبعضهم يفاجأ غالبا بتقدير الآخرين عندما يوشك أن يمزقه اليأس من قدرته على إبداع شيء يستحق تقدير الآخرين . . فالرسام الفرنسي العبقري بول سيزان (١٨٣٩ ـ ١٩٠٦) مثلا كان يتعذب حين لا تسعفه موهبته في التعبير عما يحس به ويقول : إنني عاجز تماماً عن أن أعبر عما تشتعل به مشاعري . وكان يستبد به اليأس أحياناً ؛ فيمزق بالسكين لوحاته التي قضى الساعات الطويلة في إبداعها ، أو يلقي بها من النافذة . . وكان يمضي بضعة أيام متتالية في الحقول يرسم لوحة جميلة ، ثم يجمع أدواته عند الغروب وينصرف ، تاركا لوحته التي رسمها وراءه ، لأنها لا تستحق أن يتجشم عناء حملها في رحلة العودة ! .

ورغم هذا العذاب . . . فلقد تمنى أن يموت وهو يرسم . وتحققت أمنيته بالفعل ، وفاجأته الأمطار والعواصف وهو يرسم في الحقل ، فلم يتحرك من مكانه ، وظل يرسم ويتأمل الطبيعة صامتا ، ثم جمع أشياءه عند الغروب، وهم بالانصراف ، فأغمي عليه ، وقضى ليلته محموما . وفي اليوم التالي عاد إلى نفس المكان ليكمل لوحته ، فأغمي عليه مرة أخرى ، ونقله المارة إلى بيته ، فبقي في فراشة ثلاثة أيام ، ثم مات ! .

وبسبب هذا الشك القاتل في قيمة ما يبدعه المبدع وفي جدواه ، تنتاب معظم المبدعين نوبات من الاكتئاب ، تختلف درجتها من واحد إلى آخر، ويندر أن تجد بينهم من يستطيع أن يقول لك أنه راض تماماً عما أبدع أو أنتج . ولقد وصف ناقد كبير الأديب والمفكر الفرنسي فولتير،

فقال عنه أنه كان منفعلاً بصفة دائمة ، ومتشائما ، وسريع الغضب ، وغير راض عن نفسه وعن الآخرين إلى حد لم يسمح له بالاستمتاع بمعظم أوقاته ! .

والذين يعرفون عميد الرواية العربية نجيب محفوظ عن قرب ، وهو من أكثر المبدعين اتزاناً نفسياً وسلاماً مع أنفسهم ومع الآخرين ، يعرفون أنه يحترق داخلياً فى الفترات التى يحس فيها بأنه ليس لديه ما يقوله للآخرين ، أو حين يساوره الشك فى قيمة عمل أبدعه . . وكثيراً ما ساوره هذا الشك القاتل . . وكثيراً ما تردد بالشهور الطويلة فى نشر عمل أنهاه منذ عام ، ولم يره جديراً بالنشر بعد كل هذا العمر الطويل من الإبداع . . وآخرها معجزته الأدبية الأخيرة « أصداء السيرة الذاتية » التى نشرت منذ شهور ، وكتبها منذ عامين ، ولم يرها جديرة بالنشر، ثم « فوجىء» بصداها العميق فى الأوساط الأدبية ، حين « تجرأ » ونشرها فى الأهرام .

ومن يقرأ مذكرات الفنان العظيم شارلى شابلن يعرف أنه وهو فى قمة مجده وتألقه ، استغرق عاماً فى كتابة وتمثيل وإخراج فيلم كوميدى جديد له . . وبعد أن انتهى من عمل المونتاج له ، وشاهده وحيداً فى غرفة العرض ؛ انتابته نوبة اكتئاب قاتلة ، وأحس بأنه قد انتهى كفنان ، ولم يعد لديه ما يقدمه . . فالفيلم سخيف بكل معنى الكلمة ، وليس فيه لمسة بهجة واحدة، وقرر إلقاءه فى صندوق القمامة ، مضحيا بكل ما تكلفه لإنتاجه . وعاش أياما كئيبة لا يستمتع فيها بشىء .

ثم أشفق عليه صديقه النجم دوجلاس فيربانكس من معاناته ؛ فطلب منه مشاهدة الفيلم ، واعداً إياه بألا يخفى عنه الحقيقة ، إذا كان فعلا لا يليق باسمه . . وجاء مع صديق له ، وجلس بجوار شابلن فى قاعة العرض الخاصة ، وبدأ عرض الفيلم ، فلم تمض دقائق حتى استغرق دوجلاس وصديقه فى ضحك متواصل بلا انقطاع . . وانتهى العرض ، وأضيئت الصالة ، فرآه شابلن يجفف دموع الضحك ، فنظر إليه حائرا وسأله : أتظنه حقا مضحكاً إلى هذا الحد ؟ . فلم يجبه بشىء ، وإنما قال لصديقه : ما رأيك فى هذا الرجل الذى كان يريد إلقاء هذا الفيلم فى القمامة؟ ! ، ثم انصرف مصطحبا صديقه بلا كلمة أخرى ، وعرض الفيلم . . فإذا به يحقق نجاحاً ساحقاً ، وإيرادات لم يحققها فيلم لشابلن من قبل ! .

والذين يعرفون الكاتب الكبير أنيس منصور عن قرب ، يعرفون أيضاً أن لديه أمنية مستحيلة ، هى أن يجد الوقت والعمر والصحة ، لكى يستطيع إعادة كتابة جميع كتبه التى أصدرها خلال ٥٠ عامًا ويصل عددها إلى حوالى ١٨٥ كتابًا ، لأنه يحس بأنه لو فعل . . لاستطاع أن يعبر أفضل عما أراد أن يقوله فيها ، ولاستطاع أن يجعل نفسه أكثر وضوحاً ، وأكثر فهمًا لدى القراء .

وهو صاحب التشبيه الشهير للكاتب والأديب بأنه يحاول دائماً أن يسكب أفكاره من زجاجة عطر كبيرة جداً فى زجاجة عطر صغيرة للغاية

. . فيسقط داخلها أقل القليل منها ،ويسيل معظمها على جوانبها، ويتبدد فى العدم ! .

ألم أقل لك من البداية . . إنه عذاب متصل ، قاتل للصحة والبهجة والسعادة . . . عذاب الخلق والإبداع ، وولادة الأفكار القيصرية باستمرار! .

اعترافات باردة [١]

يا إلهى . . تحت أى نوع من الأدب يمكن أن تندرج هذه السيرة الذاتية العجيبة ؟. وماذا يريد كاتبها أن يقول لنا بها ، بعد أن يصدمنا ويدهشنا ، ويثير فينا كل مشاعر التقزز والقرف . . والاستنكار ؟ .

هل يريد أن يقول لنا أنه كان ضحية لظروفه الأسرية خلال مرحلة الطفولة والصبا، لكنه استطاع أن ينتشل نفسه من طريق الضياع والجريمة والدعارة إلى طريق الأدب والمعرفة والفن ؟ . . وهبه أراد أن يقول لنا ذلك، فهل انتشل نفسه حقاً من كل ذلك إلى طريق الحياة الفاضلة والايمان بالبشر والحياة ؟ ،أم واصل حياة الصعلكة والخمور والمخدرات ومعايشة البغايا حتى آخر صفحة من الجزء الثانى من سيرته العجيبة هذه ، مع اختلاف أساسى، هو أنه علَّم نفسه القراءة والكتابة وأصبح أديباً مغربياً له مؤلفاته التى ترجمت إلى بعض اللغات ؟ .

وهبه أيضاً أراد أن يحكى لنا قصة ضياعه فى طفولته وصباه بين أب قاس، يكرهه الابن كراهية التحريم، وأم مكافحة تتحمل أقدارها بصبر وشجاعة . . فلماذا يرويها بأبشع الكلمات وأكثرها قدرة على مصادمة المشاعر وخدش الحياء ؟ . ولماذا يحكى لنا كل ما يخجل الإنسان من أن

يحكيه عن أمه وأبيه ، حتى ولو كان أديباً من أدباء هذه الموجة العارية من الأدب؟ ولماذا يركز فى الصفحات الأولى من سيرته على مشاهد العلاقة الحميمة بين أبويه بكل تفاصيلها الخادشة للحياء، ويقول لنا أنه كان يتعجب فى طفولته من أبيه، ذلك « الوحش الذى يكرهه من أعماقه» ، حين يعتدى على أمه بالضرب بوحشية لأتفه الأسباب ، ثم يصحو هو من نومه القلق بعد ساعات في نفس الغرفة على همهمات الأبوين وقبلاتهما وحرارة أنفاسهما، ويستنكر من أمه أن ترق لهذا الوحش، بعد كل ما فعل بها. . وتمنحه نفسها. ويقرر فى تلك اللحظة ألا يصدقها أبداً فى شىء ، لأنها «كاذبة »، بدليل تناقض أقوالها عن زوجها مع « أفعالها » معه فى المساء ! .

إنه يحكى لنا أيضاً عن هذا الأب السكير العاطل الذى لا يعمل، ويعتمد فى حياته على عمل زوجته فى بيع الخضر والفاكهة . . إنه قد قتل ابنه الأصغر عبد القادر ، لأنه كان مريضاً ويسعل بشدة ، ويبكى بصفة دائمة؛ ففقد الأب المخمور أعصابه فى لحظة جنونية ذات ليلة وحاول إسكات الطفل المريض ؛ فَلَوَىٰ عنقه، لعله يخاف ويصمت ، فإذا برقبة الطفل العليل تنكسر بين يديه ؛ وإذا به يسلم الروح بعد قليل وتبكى الأم الحسيرة طفلها، ويبكى الطفل كاتب المذكرات أخاه ، وفى صباح اليوم التالى توارى الأسرة رفات طفلها فى مقابر الفقراء، بلا سؤال ولا جواب من أحد. . . فكيف لا يكره هو مثل هذا الأب المتوحش، وكيف يغفر له قسوته معه، ومع أمه، وإخوته فى يوم من الأيام ؟ .

إنها أسرة شديدة الفقر، تنتقل من الريف المغربى إلى مدينة طنجة، بحثاً عن « الخبز الحافى » ، كما يقول المؤلف، أو الخبز « الحاف » الذى بلا إدام، كما نقول نحن، فتقيم فى كوخ من القصدير .

وتخرج الأم إلى ميدان اسمه ميدان « الطرنكات » لتبيع الخضر والفاكهة ، ويدفع الأب بابنه الصبى الأمى « محمد » إلى مقهى شعبى ليعمل به ، فيتعلم فى هذا المقهى بعض المفردات التى ستصبح فيما بعد ولسنوات طويلة من الرموز أو الكلمات المألوفة فى حياته ، فيتعلم «السرقة » ويسرق مخدومه حين يغيب عن المقهى ، ويتعلم تدخين «الكيف »، ولعله يقصد به تدخين المعسل فى الجوزة ، ويتعلم أيضا تدخين الحشيش ، وهو بعد صبى صغير ، ويطل على دنيا بهيمية عجيبة من المساطيل والعاطلين والمخمورين والنشالين والقوادين ومحترفى النصب ، وتقوده صحبة السوء إلى أحد بيوت البغاء ، فلا يمر على التجربة مرور الكرام ، لكنه يصف لنا كل تفاصيلها الفاضحة ، كأنما يتلذذ بمصادمة مشاعرنا وإدهاشنا بجرأته على أن يروى عن نفسه مالا يستطيع غيره أن يعترف به . .

ويترك العمل بالمقهى، أو يطرد منه ، ويتعرض للضرب الوحشى من أبيه، الذى لا يصفه فى طول المذكرات وعرضها إلا بألقاب من نوع : الوحش ، المجرم ، القاتل ، السكير ، العاطل ، إلخ . ويعرف حياة التشرد بأوسع معانيها . . فيهرب من البيت، ويصبح من أبناء الطريق، يقتات من صناديق القمامة، ويعجب من أن قمامة الأجانب فى طنجة

أفضل من قمامة الأهالى ! . ويبيت فى الحديقة ، فلا يأنف من أن يصف لنا محاولات بعض حثالة الرجال التحرش به جنسياً فى ظلام الليل ، ثم ترسله أمه - كمحاولة لإبعاده عن الأب، الذى يبادله أعجب أنواع الكراهية - إلى خالته فى بلدة أخرى، ليعمل فى الحقول هناك، أو يلتحق بخدمة أسرة أجنبية ، فلا ينسى أن يصف لنا جمال ربة هذه الأسرة التى التحق بخدمتها، وأحلامه الجنسية بشأنها ، كما لا يأنف أيضاً من أن يفرد الصفحات الطوال لوصف معاناته مع تفجر غرائزه فى سن الصبا بأقذع الكلمات والأوصاف ، وتنتهى تجربة الإبعاد بالفشل، لسبب أكثر بشاعة، هو قيامه هو نفسه بالاعتداء على طفل صغير فى المروج الخضراء التى استدرجه إليها ، وكيف لم تجد خالته حلا لإنقاذه من انتقام أسرة الطفل منه ، سوى أن تعيده إلى أمه ، فيرجع إلى طنجة، ويواصل حياة التشرد والضياع والتردد على دور البغاء بلا نهاية. وكلما ضاقت به السبل، اضطر راغماً إلى العودة إلى الكوخ القصديرى، ليتناول وجبة طعام خلسة من أبيه الذى لا يكف عن تقريعه وتعييره بما يطعم فى بيته، مع أنه لا يكسب فلساً واحداً ، ويعيش عالة على زوجته المكافحة .

وتقوده حياة التشرد إلى التعرف على رفيقين فى بواكير الشباب ، فيمارس معهما السرقة فى الأسواق ، ليجد ما ينفقه فى دور البغاء والمقهى والبار ، ومن حين إلى آخر يعثر عليه أبوه فى الطريق بالصدفة، فيصف لنا ما يجرى بينهما هكذا :

« كثيراً ما يباغتنى أبى فى الشارع ، فيجىء من خلفى ، ويقبض على

لياقة قميصى ، أو يلوى ذراعى بيد وينهال بالأخرى علىَّ ضرباً ، حتى يسيل دمى . وحين تتعب يداه وقدماه من الضرب، يعضنى فى كتفى أو ذراعى أو أذنى ، ثم يلقينى أرضاً ويرفسنى بقدمه ، حتى أفلت منه ، وأجدنى بعيداً عنه لاعناً إياه ، كارها كل الناس ، باصقاً على السماء والأرض ! » . . . فلا عجب إذن أن يباغته الأب فى السوق ذات مرة وهو يستعد مع رفيقيه عبد السلام والسبتاوى لنشل أحد الضحايا، فينجده الصديقان ، وينهالان بالضرب على الأب، الذى لا يعرفان هويته أو صلته بابنه ، ويرقب الابن المشهد باستمتاع شرير والأب يصرخ ويئن ويستغيث، والدم يسيل من يديه ووجهه ، وهو يتمنى لو كان يستطيع أن يشاركهما ضربه . وبعد أن ينصرف الرفيقان عنه يسأله أحدهما : هل تعرف ابن . . هذا ؟، فيجيبه فى تلذذ غامض : إنه أبى، لكنه يستحق أكثر مما جرى له ! .

يا إله السماوات ! . أى سيرة ذاتية هذه ، وأى هدف أدبى أو إنسانى تخدمه ؟ .

لقد قرأت المئات من السير الذاتية للأعلام والأدباء والمفكرين ورجال السياسة، وصادفت فى بعضها نماذج مختلفة من الاعترافات الصريحة ، والخطايا البشعة ، لكنها كانت توظف دائماً لخدمة هدف يقصده الكاتب من تسجيلها فى مذكراته ، كأن ينبهنا إلى عمق أثرها الغائر فى حياته بعد ذلك ، أو يفسر لنا بها بعض ملامح تكوينه النفسى الذى رافقه بقية رحلة الحياة ، أو يحكى لنا كيف تعلم درس التجربة والخطأ ،

واختار حياة الفضيلة ، بعد معاناة حياة الضياع التى يشعر الآن بالندم على اقترابه من حافتها الخطرة .

لكن هذا « الأديب » المغربى الذى لم أقرأ له سوى هذه السيرة الذاتية، لا يحكى لنا قصة حياته بهذه الصراحة الجارحة ليدين أخطاءه وطباعه السابقة ، ويندم عليها ، وإنما يحكيها فقط، ويطيل فى تفاصيلها العارية، دون محاولة للتأصيل أو التحليل أو الاعتذار. ولا تشعر خلال قراءتك لها بأنه يخجل منها حتى الآن ، أو أن رؤيته للحياة قد اختلفت بعد كل هذه السنوات، وبعد أن أصبح أديباً تترجم مؤلفاته للغات الأجنبية .

وتكاد تشعر بأن هذه الاعترافات « الباردة » لا تنبض بحرارة الصدق الفنى، إلا فى تصويرها الفريد لعالم سُفلىّ لا يتاح لأحد الاطلاع عليه ، إلا إذا غاص فى أوحاله حتى الأعماق ! ، لكنها على أية حال قضية أخرى ، قد نؤجل الحديث عنها الآن، لنواصل الرحلة مع كاتب هذه السيرة الذاتية ونتعرف على بعض ملامحها الأخرى العجيبة . . . فلقد قرر الأصدقاء الثلاثة، بعد أن أوسع اثنان منهما والد الثالث ضرباً وركلاً وجرحاً ، أن يكافئوا أنفسهم بقضاء الليلة فى إحدى دور البغاء ، ويتوجهون إليها بالفعل، فتستقبلهم ربة الدار « المحترمة » بالقبلات والترحيب الحار، فيكتشف كاتب السيرة بعد قليل أنها أم أحد صديقيه الجديدين ، وأنها ـ إكراما للابن الغالى ـ سوف تخصهما بأفضل أنواع خدماتها ! .

وبين النوم فى الحدائق ، والتعرض للسرقة ممن يكبرونه سناً ، أو لمحاولة التحرش الجنسى به ، أو قيامه هو بالسرقة ليجد ما يسد به رمقه قليلاً ، حتى لا يضطر تحت وطأة الجوع إلى العودة إلى كوخ الأسرة، خوفاً من أبيه، الذى يقول فى سيرته أنه لا يعرف كم مرة قتله خلالها فى خياله، أو تمنى موته ! . بين هذا وذاك لن يكون غريباً أن يتعرض الفتى محمد شكرى لدخول السجن ، فيصف لنا بأكثر الكلمات إثارة للتقزز حياته داخله لبضعة أيام ، ثم يخرج منه ليعمل بتهريب البضائع من الميناء، أو سرقتها - بمعنى أصح - ويقيم فى بيت المهرب انتظاراً للمشاركة فى إحدى عملياته، فلا يجد بأساً فى أن يخونه مع فتاته «سلافه» خلال غيابه للإعداد للعملية ، ولا يجد بأساً أيضاً من أن «يقرفنا » برواية كيف فقدت تحكمها فى نفسها بتأثير الخمر ذات ليلة؛ فبالت فى فراشها ، وكيف قارن بينها وبين ليلى « البوّالة » وهى إحدى فتيات دار البغاء التى عرفت بهذا اللقب ، لفقدها السيطرة على مثانتها خلال نومها! .

ولقد استقرت أحوال الفتى محمد شكرى بعد ذلك بعض الشىء ، وأصبح يعمل بتهريب البضائع من الميناء ، أو سرقتها ، ويقيم فى الفنادق الرخيصة ، ولا تعدو حياته العمل الذى لا يختلف عن السرقة فى شىء، واحتساء الخمر، وتدخين الحشيش، ومصاحبة البغايا ، ومصادقة اللصوص والقوادين والنشالين . . وقد بلغ الآن سن الثامنة عشرة، ويواجه الحياة بخبرة فاسدة ، ورؤية خاطئة، اكتسبها من

معاشرة حثالة البشر، والإيمان بمثلهم وأفكارهم ، فلا دين، ولا تعليم، ولا حديث عن قيم أخلاقية ولا شيء سوى الخمر، والحشيش ، والنساء، اللاتى يرى مع اصدقائه أن « حكايتهن فى الحب قذرة دائماً »، وأن « عقولهن فى غرائزهن» ، وأنه « لا يكاد الواحد منا يبدأ العيش مع إحداهن، حتى توقعه فى فخ انتفاخ البطن » ! .

أما أسماء النساء التى تتردد فى عالمه هذا ، فهى ليلى « البوَّالة»، وسُلافة حليقة الرأس، لكيلا تخون صديقها مع آخر ، ورغم ذلك تخونه ، وفتيحة « الشريفة » التى ليست شريفة بأى حال من الأحوال، لأنها تخون زوجها العليل مع صديقه رجل الشرطة، حتى انتهى أمره بأن قتله الصديق ، وفوزية « العشَّاقة » لكثرة عشاقها، وصفية ،وخديجة، ونعيمة ، وبشرى وللاَّزهور . وكلهن بلا استثناء من البغايا، أو ممن يتأرجحن بين احتراف البغاء، وممارسة الحرية الجنسية بلا قيود ، كأنما لم يعرف حتى هذه المرحلة من عمره فتاة طبيعية، أو امرأة عادية فى دنياه الموبوءة هذه .

أما « المظان » التى يتردد عليها، فهى المقهى لاحتساء الشاى الأخضر وتدخين « الكيف » والحشيش ، و « البار » لاحتساء النبيذ الرخيص والخمور الجهنمية ، و « البورديل » وهو الاسم الإسبانى فيما يبدو للبيت الذى يدار للبغاء ويخضع للإشراف الصحى ، والفندق الرخيص الذى يبيت ويحظى فيه بجيرة فتاتين تمارسان العشق الحر غير الخاضع للرقابة، و«الميناء » الذى أصبح يتردد عليه بانتظام، ليركب زورقاً محملاً

بالساعات المغشوشة والبضائع المزيفة ويعرضها للبيع على ركاب البواخر العابرة ، فيقعون فى الفخ فى بعض الأحيان ، ويتنبهون له فى أحيان أخرى؛ فيطلقون عليه خراطيم المياه الساخنة من الباخرة لإبعاده ، وإغراق بضائعه المغشوشة .

ثم يتصادف كل ذلك مع بعض الاضطرابات التى شهدتها طنجة فى عام ١٩٥٢ فى ذكرى مرور ٤٠ عاماً على إعلان الحماية الفرنسية على المغرب ، فيدخل السجن لأسباب غير وطنية، ضمن حملات التفتيش على المشبوهين واللصوص ، ويلتقى فى السجن ببعض المسجونين السياسيين، فيفتح أحدهم أمامه عالماً جديداً تماماً عليه حين يتساءل مستنكراً : كيف يكون شاباً فى العشرين من عمره ، ولا يعرف القراءة والكتابة ، ثم يمسك قلماً ويرسم على الحائط خطاً رأسياً ويسأله : ما هذا ؟ فلا يعرف الإجابة ، فيقول له : هذا حرف الألف ، ثم الباء والتاء وبقية الحروف .

ويغادر شكرى السجن بعد أيام، وحلم عجيب يراوده لأول مرة فى حياته، هو أن يتعلم القراءة والكتابة لكى يقرأ هذه المجلة الفنية المصرية، التى كان يشتريها من قبل ليتفرج على صور النجوم والممثلات فيها . ويتعارك فى المقهى مع وافد جديد على المدينة، فينظر إليه الآخر باحتقار شديد ويقول له : أنت أمىّ وجاهل ! .

وفى اليوم التالى يرجع شكرى إلى المقهى، ويتصافى معه ، ويعتذر له، ثم يسأل كيف يستطيع أن يتعلم القراءة والكتابة ، فيكتب له الوافد

خطاب توصية إلى مدير مدرسة فى بلدة اسمها العرائش، يوصيه فيه بقبوله فى مدرسته، رغم بلوغه بسن العشرين ، لأن لديه استعداداً طيباً للتعليم.

ويستولى هذا الحلم الغريب على رأس الشاب محمد شكرى تماماً كما سيطرت عليه من قبل أحلام المتعة ، وحياة الذئاب البرية بلا قيود ولا حدود ، ويشترى كتاباً عن مبادىء اللغة العربية . ويبدأ مرحلة جديدة من حياته العجيبة، التى تحول خلالها إلى أديب مغربى معروف، له مجموعات قصصية ، وكتابان فى السيرة الذاتية ، وكتب مترجمة للغات أخرى . .

اعترافات باردة [٢]

ونصل مع الفتى محمد شكرى فى سيرته الذاتية العجيبة إلى اللحظة التى بدأ منها طريقه للخروج من ظلام الجهل والأمية إلى نور المعرفة . . ونراه وهو يتقدم إلى مدير المدرسة ببلدة العرائش بخطاب التوصية الذى كتبه له رفيق المقهى فى طنجة ليرشحه للالتحاق بها ، فتستمر الأحداث المثيرة للدهشة والعجب والاستنكار فى هذه المرحلة الجديدة أيضاً من حياته، كما استمرت طوال الجزء الأول من سيرته، الذى يحمل اسم «الخبز الحافى» .

وتبدأ مفاجآت الجزء الثانى باسم «الشطار» بأن يكتشف الفتى الذى ساح سياحة طويلة فى دنيا الجهل والجريمة والانحلال الخلقى قبل مجيئه إلى العرائش ، أن الصديق الذى أوصى به مدير هذه المدرسة مطرود هو نفسه من تلك المدرسة قبل أيام، لضبطه متلبساً بجريمة أخلاقية مقززة، لا يأنف شكرى ـ كعادته فى مصادمة مشاعر قارئه ـ من أن يحكى لنا عنها !، ورغم رفض مدير المدرسة المبدئى لأن يقبل بمدرسته طالباً أمياً عمره عشرون عاماً ، إلا أنه ينتهى إلى الموافقة على إعطائه هذه الفرصة ، ما دام راغباً حقاً فى أن يتعلم .

ويبدأ الفتى جهاده العنيف مع أميته وجهله، فيجلس على مقعد بالفصل الدراسى بين تلاميذ صغار ، ويترفق به المدرس، فيكتب له فى أعلى الصفحة من كراسته جملة عربية يطلب منه نسخها فى باقى الصفحة، ويوصى جاره التلميذ الصغير بأن يعينه على أمره .

ويواجه الفتى حياته كتلميذ «كبير» يبدأ أولى خطواته على طريق التعليم بجلَد كبير ، ولعل هذه الرغبة فى التعليم التى سيطرت عليه فجأة وهو فى العشرين من عمره، هى الشىء الوحيد الذى يثير الدهشة، بغير أن يصاحبها الاستنكار، كما فى معظم فصول حياته . . فالشاب الذى كان يتكسب بالتهريب أو السرقة، ويبدد ما يكسبه فى البارات والمقاهى ودور البغاء وصحبة المتشردين وأبناء الطريق ، يرضى الآن بجفاف حياة تلميذ فقير، لا أهل له ولا مورد . . فينام فى الليل على مقعد حجرى أمام المدرسة ، ويعتمد فى غذائه على وجبتى الإفطار والغداء المجانيتين فى المدرسة ، وبعد أن كان يدخن «الكيف» فى المقهى، والسجائر «الشقراء» ، كما يسميها بذلك . . ولعله يقصد السجائر الفيرجينية التى يميل لون تبغها للصفرة ، أصبح يرضى الآن بجمع أعقاب السجائر خلسة من الأرض، ليدخنها فى الحقول القريبة، ويتسول بعض نفايات المعسل المحروق من رفاق المقهى الشعبى ، ثم يرجع «حسن» الطالب الشاب الذى أوصى به مدير المدرسة إلى البلدة، بعد أن سوى «مشكلته» مع وزارة التعليم، فيعرفه ببعض الأصدقاء، ويصبح محمد شكرى صديقهم الذى يقضى أوقاته معهم فى المقهى،

ويصف حياته بينهم فى هذه المرحلة فيقول : «ندخن الكيف، لأنه أرخص من السجائر ومفعوله أقوى . أعيش على صدَقاتهم وصدقات غيرهم من رواد المقهى الفقراء مثلنا ، يعلموننى المواد التى أدرسها، أو يراجعونها معى فى دفترى، ويعلمنى حسن الإنشاء بمحبة، ولا يتذمر أبداً. أخطائى كانت كثيرة ، لكن تجاربى فى الإنشاء جيدة ، و(ميلودى) يراجع معى اللغة الإسبانية التى يتفوق فيها على العربية ، وفى المساء يجتاحنى جوع يصيبنى بالسخفة واضطراب نبضات القلب. أستنفد وجبة الغداء المدرسية قبل حلول الظلام . الكيف يضاعف جوعى، لكن لابد منه لتخدير الهم والقلق . لا أنام جيداً بسبب الجوع والبرد وحك جلدى القذر وشعر رأسى ، والتسكع فى الليل . عندما ينتهى ليل المحظوظين فى الشارع، يبدأ ليل المشئوم» .

أما حين يشتد به الجوع، فيعجز عن احتمال عضته؛ فإنه يذهب فى المساء إلى الملجأ الخيرى، فيعطيه المشرف عليه رغيفاً من الخبز وبعض الإدام، أو يجلس ليشارك بعض الشيوخ العجزة طعامهم، وهو يغالب الغثيان لقذارتهم وسوء حالهم . . ثم يهيم فى الشوارع حتى يفتح المسجد أبوابه لصلاة الفجر ، فيدخله لينام، وليس للصلاة ، ويسمح له خادم المسجد بذلك فى معظم الأحيان ، ويحتج عليه فى أحيان أخرى بأن المسجد للصلاة ، وليس للنوم ، فإذا تمسك بموقفه؛ هذا انهال عليه شكرى سباً ولعناً بأفحش الألفاظ داخل المسجد ! .

وفى هذا المسجد نفسه يتعرف الفتى الغريب بطالب كفيف بالمعهد

الدينى اسمه المختار الحداد ، ويتصادقان، ويساعده الطالب الكفيف على تعلم قواعد اللغة العربية ، ويقرأ له شكرى ما يريد المختار قراءته من كتب ، ويبدأ ذلك بكتاب «مدامع العشاق الثلاثة » للدكتور زكى مبارك، ونكتشف فى شخصية هذا الطالب الكفيف بعد قليل ملمحاً عاطفياً فريداً ، فهو عاشق بالسمع حتى الصبابة لطالبة بالمعهد الدينى اسمها «البتول»، لا تدرى عن حبه لها شيئاً، ولم يفاتحها بحبه ، ولم يتحادث معها ، إلا وسط رفيقاتها بالمعهد فى شئون العلم والدراسة . ويكتشف شكرى غرامه بها فجأة حين كانا يسيران فى درب من دروب بلدة العرائش، فاقتربت منهما ثلاث فتيات ، فإذا بالطالب الكفيف يضطرب ويعرق ويتسارع نبضه ، وترتجف يده التى يمسك بها ذراع صديقه ، ويظل مبهور الأنفاس مضطرباً ، حتى تعبرهما الفتيات الثلاث فى طريقهن. ويسأله شكرى عما أصابه، فيصارحه بحبه لإحداهن! . ويعجب شكرى. . ونعجب نحن معه. . كيف شعر باقترابها منه، وهى بين رفيقتيها، بغير أن يلفت أحد انتباهه لذلك ، فاضطرب نبضه ، وسال العرق من وجهه ؟!، لكن لا عجب فى أحوال المحبين ، ولو حرموا فرصة الرؤية بالعين لمن أحبوا، فلقد غرس الله سبحانه وتعالى حبها فى قلبه، وألهمه الإحساس بوجودها بين رفيقتيها، حين أشار شكرى عرضاً إلى أن هناك ثلاث فتيات قد ظهرن فى أول الدرب .

وفى الأيام التالية يشهد شكرى عن قرب عذابه بحبه الصامت لهذه

الفتاة، وكيف ينفس عنه بأن يطلب منه أن يقرأ له كتاب «ليلى المريضة فى العراق» لزكى مبارك ، أو كتابى « العبرات» و«النظرات» للمنفلوطى . وكلما اشتد به الوجد؛ طلب من صديقه أن يذهب بهما إلى الدرب الذى تقيم فيه «البتول»، فيمر بمنزلها، ويقف أمام بابه ليتأوه للحظات قبل أن يمضى فى طريقه ، بعد أن تشمم رائحة بيتها، ورائحة طيفها ! .

ويسأله شكرى : أهى أيضاً تحبك ؟ .

فيجيبه : لا أدرى .

ـ أتعرف أنك تحبها ؟ .

ـ أعتقد أنها تعرف ، لكنه لا يهمنى أن تعرف، أو لا تعرف ! .

ثم يزوره شكرى فى بيته بعد فترة أخرى، فيجده غارقاً فى الحزن الأليم. ويخرج معه إلى المقهى ، فيصرح له صديقه بسر حزنه الطاغى، ويقول له متألماً :

ـ البتول خطبها أستاذ .

فيجيبه : النساء يفضلن الزواج على الحب ! .

ـ ما فائدة زواج بدون حب ؟ .

ـ إنها مشيئة النساء ! .

ـ اللعنة أيضاً على الزواج . . لأن أوله «نعم» وآخره «لا» ! .

وبعد عشرين عاماً أخرى من هذا الحديث تقريباً ، تنطوى صفحة حياة هذا العاشق العذرى الكفيف ، ويموت أثناء جراحة متأخرة فى قلبه العاشق الضعيف ! .

أما الفتى شكرى، الذى أصبحت القراءة الآن هى عمله وحياته وهوايته ، فإن بصمات من سياحته السابقة فى دنيا الغرائز والبغايا والأعمال الشبيهة بالسرقة ، ترافقه بشكل أو بآخر خلال مرحلته الجديدة أيضاً كطالب علم ، وحين يحصل على الشهادة الابتدائية ، وينتقل إلى القسم الثانوى ، يجد له مأوى آمناً لأول مرة بالقسم الداخلى من المدرسة، ويلتقى فى العرائش بصديق قديم من أصدقاء العالم السفلى فى طنجة اسمه حميد، يقيم ببيت مهجور من بيوت الأوقاف ، وفى هذا البيت نفسه يخزن مقاول إسبانى المواد اللازمة لبناء مسجد مجاور ، ويقبل ببقاء حميد فى البيت، مقابل حراسة هذه المواد ، فتكون تلك هى فرصته الذهبية ، وفرصة شكرى معه للتمتع ببعض الرفاهية فى حياتهما الجافة . . . فحميد يبيع بعض أكياس الأسمنت من حين إلى آخر خلسة؛ «ويوسع» بثمنها الحرام على نفسه وعلى صديقه!. ويجتذب المأوى المجانى فتاتين من البغايا ، فتشاركان حميد وصديقه حياتهما فى هذا البيت شركة «عادلة» ! ، فالفتاتان تخرجان «للعمل» ، وترجعان فى المساء بما كسبتا، فتشتريان الطعام والشراب، وتغسلان ملابس الشابين، وتطهوان الطعام، وتشاركانهما السهرة «الخاصة» كل ليلة ، ومن حين إلى آخر يغادر شكرى وكر الملذات هذا ليرجع للإقامة بضع ليال فى القسم

الداخلى ، حتى لايفقد منحته الدراسية . . فإذا رجع ذات أصيل إلى بيت الأوقاف ، ولم يجد الفتاتين؛ سأل عنهما صديقه ، فيجيبه هكذا :

ـ خرجتا لتُقحُبا ، وستأتيان بطعام العشاء ! .

ومع تحسن ظروفه المادية بعض الشىء، يرجع شكرى من جديد إلى ارتياد البارات واحتساء الأنبذة الشيطانية القوية، ويتعرف «بفاطيمة» البغى التى تربى طفلتها سلوى ، وترغب فى تعليمها؛ فتكلفه بتقويتها فى اللغة العربية ، ويتردد على غرفتها بانتظام ليحظى باهتمامها وعشائها وقهوتها «وأُنسها» من حين إلى آخر ! .

وعلى طول إبحاره فى دنيا البغايا والشهوات، لم يعرف العشق الحقيقى أو ما يشابهه إلا لفترة قصيرة، ولبغى أخرى اسمها « كنزة» تأبت عليه، ورفضت أن تمنحه نفسها. ولعل رفضها العنيد له، هو سر اهتمامه المؤقت بها ، ولولاه لدخلت حياته وغادرتها بلا أثر، كما دخلتها أخريات مثلها .

ويتلقى شكرى رسالة من طنجة تبلغه بمرض أمه ودخولها المستشفى للعلاج من داء الرئة؛ فيرق قلبه لها، وهى المرأة الوحيدة التى أحبها فى حياته ، ويرجع فى إجازة صيف إلى طنجة ليزورها فى المستشفى . . ويتجنب الاقامة فى بيت أبيه الذى لا يزال يكرهه كراهة التحريم، وينزل ضيفاً فى بيت صديق يعاشر بغياً ! (يا إلهى . . كأنما لم يعرف إنساناً فاضلاً فى حياته العجيبة هذه) . وبعد أيام من وصوله إلى طنجة، يتوجه

مع صديقه هذا إلى الكوخ القصديرى الذى تقيم به أسرته، ليرى إخوته الذين لا يكاد يتذكر ملامحهم. ويدقان باب الكوخ، فتفتحه أخته (أرحيمو) التى لم يرها منذ كانت طفلة صغيرة ، فيقدمه لها الصديق قائلاً : هذا أخوك محمد ! . ويتعانقان ! . . ويظهر وراءها طفل صغير فى ثياب رثة، فتشير إليه أرحيمو قائلة : هذا أخوك عبد العزيز !، فيقبله . . وتشير إلى طفلة أخرى لم يرها من قبل، وتقول له : وهذه أختك مليكة ! ، فيقبلها هى الأخرى .

أما أمه التى يقول دائماً أنه قد أحبها بقدر ما كره أباه ، فيزورها فى المستشفى، وتسعد كثيراً بنجاحه فى المدرسة، وبأنه سيصبح معلماً خلال وقت قصير . وبعد عام آخر يستقر فى مدينة طنجة نهائياً ليلتحق بمدرسة المعلمين ، ويستقبل أبوه خبر نجاحه فى الثانوية والتحاقه بمدرسة المعلمين باستنكار شديد، ويقول لجيرانه : « إنه جاهل مثلى وصعلوك . . كيف درس . . ؟. لابد أنهم أخطأوا فى إنجاحه » ! .

أما شكرى، فيسجل هذه اللحظة المهمة من حياته بهذه الكلمات :

«عندما نجحتُ فى امتحان الدخول إلى مدرسة المعلمين ، أحسست كأننى ولدت من جديد، وبأننى قد بنيت جداراً منيعاً بينى وبين الاحتقار الاجتماعى والجهل والبؤس ، لكن يا للغباء . . . إن النحس كان أقوى من فرحتى. ولم يستقبل أبى نجاحى إلا بقدر ما سوف أعطيه له من راتبى الشهرى كطالب بالمدرسة، وبدأ يساومنى على أكلى ومبيتى فى الكوخ القصديرى الذى تمرح فيه الفئران، قبل أن أقبض حوالتى

الأولى من منحة التدريب فى مدرسة المعلمين . إنه يعبد المال أكثر مما يعبد الله، لكنه لا يعمل شيئاً ليكسبه ، وإنما ينتظر من الآخرين أن يكسبوه له . إلى متى سوف أكرس بغضى له؟ !» .

ونتوقف مع هذا الشاب الذى انتشل نفسه من حياة الضياع والجريمة بمعجزة حقيقية ، وهو يضع أقدامه على أعتاب مدرسة المعلمين بطنجة، ليبدأ صفحة ثالثة وجديدة من سيرة حياته الحافلة بكل غريب ومثير . . وجرىء ! .

اعترافات باردة [٣]

هناك نوع من الشعراء كالذباب ، لا تقع عيونهم إلا على كل شيء قذر ! . عبارة قديمة قالها (شيشرون) الخطيب الرومانى القديم ، وتذكرتها مراراً خلال قراءتى السيرة الذاتية لهذا الأديب المغربى محمد شكرى . . . فالرجل لا يحدثنا طوال سيرته ـ التى استغرقت جزءين، أو روايتين ـ عن إنسان واحد فاضل ، أو إنسانة واحدة التقى بها خلال رحلة حياته ، أو عن قيمة واحدة من القيم العليا، كالإخلاص، والاستقامة، والأمانة، والوفاء. . إلخ . ولولا جهاده هو شخصياً مع تعليم نفسه ، والتخلص من أميته ،ولولا قصة الحب العفيف التى شهدها عن قرب بين صديقه «المختار» الطالب الكفيف بالمعهد الدينى لزميلته بالمعهد «البتول» ، وعذابه الصامت بهذا الحب ، لما وجدت شيئاً أتوقف عنده فى هذه السيرة العجيبة ! .

ولولا حبه لأمه التى أحبها بقدر ما كره أباه ـ كما ردد مراراً ـ لخلت السيرة كلها من أى معنى إنسانى أو عائلى جدير بالاحترام . أما فيما عدا ذلك . . . فلسوف تتردد طوال الرحلة كلمات مقززة، من نوع : الصديد . . والبصاق والقيح والقمل والكيف والحشيش والخمر ودار البغاء . .

وغيرها من رموز هذا العالم السفلى العجيب . ولقد توقفنا معه ، وهو يبدأ دراسته بمدرسة المعلمين بعد إبحاره الطويل فى عالم الضياع ، وقد رجع للإقامة مرة أخرى فى كوخ أبيه، وهو يتفادى رؤيته والاحتكاك به بكل وسيلة ، فلا يرجع إلى البيت إلا عند منتصف الليل لينام فى غرفة إخوته، وما إن يشعر الأب الساخط عليه بوجوده ، حتى يبدأ فى همهمته أو زمجرته الغاضبة واللاعنة للأم التى أنجبت هذا «الخنزيز» وإخوته ، وحين يتعب ينام وهو يدمدم ، ويلخص هو موقفه منه فى كلمات مختصرة : هو لا يرضى أن أكون ابنه ، وأنا لا أرضى أن يكون أبى ! .

وفى انتظار بدء الدراسة، ينتقل للإقامة مع سيدة وحيدة شبه مجنونة من جيران أمه . . وهى فتاة أو سيدة لها أحوال متقلبة . . فإذا انهارت عصبياً خلعت ملابسها فى الطريق ورقصت عارية ، وإذا استقرت حالتها العصبية بدت حزينة وخائفة وطيبة . ولقد دعته للإقامة لديها فى غرفتها ، واشترطت عليه ألا تخرج علاقتهما عن حدود «الأخوة» ، فقبل ذلك راغماً ، وهو الذى لايتصور وجود علاقة أخوية أو بريئة أو عفيفة بين رجل وامرأة فى الوجود ! .

وخلال دراسته أو تدريبه بمدرسة المعلمين، يتوسع شكرى فى قراءاته فى الأدب الفرنسى والعربى ، ويلتقى فى المقهى بأديب اسمه محمد الصباغ، فيقرأ كتبه ، ثم يسعى للتعرف عليه ، ويقدم له بعض تجاربه فى الكتابة، فيقرأها الأديب المغربى ، ويعيدها إليه بعد أيام ، مبديا إعجابه المبدئى بها ، ويطالبه بالاستمرار فى الكتابة والقراءة بنهم أكبر ،

وتنشأ علاقة صداقة من نوع ما بينه وبين هذا الأديب محمد الصباغ ، ويصحبه إلى بيته فى الحى القديم من مدينة طنجة، فيرى فيه جواً آخر من الفن، لم يألفه هو فى بيته، ولا فى بيوت البغايا التى دخلها من قبل ، ولا يعجب لذلك . . . لأنه كما يقول « من طينة، وأنا من طينة ، فهو لم يقتت من زبل «قمامة» المرفهين ، ولم يقمّل - أى لم يسرح فى شعره القمل مثله - وليس عرقوباه مشقوقين مثلى » .

وتغيب الفتاة شبه المجنونة من مسكنها بضع ليال، فيعرف شكرى أنها قد بدأت قصة حب جديدة ، وينتقل للإقامة فى فندق حقير ، لكنه لا يقطع صلته بها ، ويتردد عليها من حين إلى آخر ليتناولا العشاء ، ويشربا النبيذ معا فى سهرة «بريئة»! . . ويرجع من جديد للطواف بالمقهى الذى كان يتجمع فيه أصدقاء الضياع فى الزمن القديم ، فيجد من أصبح منهم غنياً بأعمال التهريب وما يشبه النصب ، ومن لا يزال يتكفف أسباب الحياة مثله ، وأيضاً من لم يحتمل عقله ضغوط الحياة وآلامها فجأة ؛ فانفرط من عقاله وجن ، أو تعرض لنوبة طارئة من المرض العصبى أو العقلى .

وسوف نكتشف بعد قليل أن شكرى نفسه قد انهار بعد عمله بالتدريس تحت وطأة هذه الضغوط ، ومع الإسراف فى احتساء الخمر مرتين خلال رحلة حياته ؛ فدخل مستشفى الأمراض العقلية بطنجة، وخضع للعلاج الطبى ، وقدم لنا صوراً أخرى عجيبة عن الحياة فى دنيا مرضى العقول ! .

وها قد بدأ عمله الآن مدرساً للفصل الابتدائى، الذى يضم أربعين تلميذاً وتلميذة ، وتواجهه أول مشكلة «أخلاقية» فى الفصل ، حين يُقَبِّل طفل صغير زميلته الطفلة فى الفصل ؛ فتبكى، فيحل المعلم الجديد المشكلة بأن يأمرها بأن ترد عليه قبلته؛ فتفعل وتستريح، وتنتهى المشكلة ! .

ولأن تقارير مثل هذا المعلم لايمكن أن تكون مرضية، فإنه فى أول تقييم سنوى لعمله ، يكون من بين مَنْ يوصى المفتشون بإيقافهم عن التدريس .

ويرجع للعمل بمدرسة أخرى بعد فترة الإيقاف ، ويواصل كتابة تجاربه وخواطره الأدبية ، والقراءة بنهم ، واحتساء الخمر بإسراف؛ فيواجه الانهيار النفسى الأول وهو فى إحدى حانات المدينة ، فلقد أسرف ذات ليلة فى الشراب، ثم انفجر صاخباً ولاعناً كل شىء، وهدد صاحب المقهى بتكسير الواجهة الزجاجية ، إن لم يستدع على الفور رجال المطافىء! . ويأتون إليه، فيرفع آخر كأس له ويتجرعها ، ثم يخرج معهم ويشيعه النادل بنظرة آسفة وهو يقول : مسكين . . لقد جننته الكتب! . . ويقول أحد الرواد : رأيته ذات ليلة نائماً أمام باب الحانة متوسداً بعض كتبه ! .

وفى مستشفى الأمراض العقلية يتم احتجاز الأديب الشاب لعدة شهور، ويصحبنا معه إلى هذا العالم الغريب، ويكشف لنا من أسراره ما

نتراوح معه بين الإشفاق على سكانه . . والتقزز مما يجرى لهم وبينهم فيه، وبلغته الجريئة جرأة الشيطان هذه لا يتوقف أمام أية محاذير، ولو كانت من محاذير الذوق الأدبى، فيحدثنا عن كل شىء بلا تحفظ ولا تورية ولا ترفق بالقارىء مما قد يصيبه من غثيان وهو يقرأ صوره الأدبية لسكان هذا العالم البائس .

وبعد أربعة أشهر يطلب منه الطبيب مغادرة المستشفى، والعودة إلى عمله، لأنه قد شفى من مرضه، وليس المستشفى فندقا للإقامة به إلى مالا نهاية . ويغادره شكرى آسفاً ، بعد أن كانت الحياة قد طابت له فيه وبين نزلائه ونزيلاته ! .

ويندمج بعد ذلك فى صحبة اثنين من الأدباء الأسبان يعيشان فى طنجة ، وتتخذ أحاديثه معهما شكلاً آخر من التأملات الحزينة والأمنيات الأدبية يختلف كثيراً عن طبيعة أحاديثه مع كل من يعرفهم من النساء ورواد البارات والمقاهى ، لكنه لا يكف رغم ذلك عن تعريفنا بمن يلتقى بهم من نماذج بشرية منحطة ، رجالاً كانوا أم نساء . . وقد رجع للإفراط فى الشراب من جديد، وتشوشت أفكاره وذاكرته من جديد. وخلال سهرة «مقززة» أخرى فى مسكنه، يفقد زمام عقله بتأثير كل ذلك؛ فيمسك بسكين ويطعن بها رفيق السهرة ، ويصف هذه اللحظة الرهيبة قائلاً : تلقى الطعنة بجماع قبضة يده . . يبدو أننى سددت السكين إلى بطنه ، ورحت أضرب عشوائياً بجنون . . لم أكن أنا، كان الوحش القابع فى كل إنسان هو الذى يطعن .

وفى الصباح جاءت الشرطة ، ونقلته مرة أخرى إلى مستشفى الأمراض العقلية ! .

وبعد الشفاء يخرج صاحب السيرة الذاتية العجيبة ، ليواصل حياته كما كانت، ويصحو من نومه الثقيل ذات صباح على زوج أخته يدعوه للحضور لبيت الأسرة ، لأن أمه قد ماتت، ولم يكن قد رآها منذ سنة . وحين يصحبه إلى هناك، يكتشف أيضاً أن أباه قد مات قبلها ببضعة شهور. ويتساءل :

ـ لماذا لم تخبرونى بموته فى حينه ؟ .

ويكون الجواب : لأننا نعرف أنك لم تكن تحبه أبداً ! ويشهد الابن مراسم الوداع الحزينة لأمه ، ويرجع إلى حياته البوهيمية من جديد ، فيواصل العمل بالتعليم، ولا أعرف كيف كان يؤدى عمله هذا ، وهو لا يفيق كل ليلة من السكر ، ثم يبدأ الكتابة الأدبية ، ويحيا حياة أديب صعلوك يعيش الحياة ولا يشارك فيها . . ويتأمل البشر ولا يشاركهم حياتهم . . فهو المتوحد الأبدى ولو أحاط به الزحام ، والمنفرد بنفسه وسلوكه ورغائبه ، ولو تشارك أو تجاور فى المكان مع غيره من البشر ، وهو لا يحتاج إلا إلى المأوى والكأس . . والمخدر . . ورفيقة الفراش العابرة، بلا أية علاقة إنسانية حقيقية . ويسمى النقاد فيما بعد ما كتبه فى هذه السيرة الجريئة بجزءيها : « الخبز الحافى » و « الشطار » ، وفى مؤلفاته الأخرى القليلة ، نوعاً من أدب المعايشة والحلول، وهو نوع يختلف

عن نمط الكتابة السردية التفيدية ، لأنه ينبض بحيوية المعايشة والحياة و « الخبرة » التى لا تتوافر للكاتب، إلا إذا عاش تجربته قبل أن يحكى عنها، أما اسم « الشطار » كعنوان للجزء الثانى من هذه السيرة ، فلقد قصد به كاتبها الإشارة إلى « أدب الشطار » فى التراث العربى، وهو نوع من السير الذاتية، ينفرد بنوعية الشخصيات الخارجة على الأعراف التى يتحدث عنها ، وبتجارب القاع الاجتماعى التى يحكيها بصراحة تثير الدهشة . . والذهول .

ولقد عاش محمد شكرى حياة . . كحياة هؤلاء « الشطار » الذين كانوا لا يتورعون عن شىء، ما دام يحقق لهم إشباع الغرائز ، ومتعة الإثارة والمغامرة ، واكتشاف الجديد ، وهو لا يعتذر فى سيرته الذاتية عن هذه الحياة ، ولا ينتظر منا أن نعجب بها أو ندينها ، لكنه يرويها لنا فحسب ونقرأها . . فندهش للكثير مما جاء فيها . . ونتقزز أيضا من كثير مما لم تقع عينه على سواه من صور الحياة ومشاهدها ، ونتأمل القليل مما يستحق التأمل فيها، ونتفكر، ثم نتساءل فى النهاية : ما هو هدف الكلمة التى يسطرها الكاتب على الورق ليقرأها غيره . . إن لم يكن إعلاء المثل العليا . . وزيادة مساحة الحب والعطف والحق والجمال فى دنيا البشر ؟

خائف من الأمل

فُجعَتْ باكتشاف خيانة فتاها ، فأسرعت هاربة .. ورجعت إلى بيت أمها تجرّ أذيال الخيبة وتقتلها الحسرة . سألت نفسها وهى تمضى الساعات صامتة لا تتجاوب مع ثرثرة أمها : لماذا يخون الإنسان أحياناً من يخلص له الحب والمشاعر ؟.

إنها فتاة فى الرابعة والعشرين من عمرها .. رقيقة .. هادئة الطبع .. حلوة العشرة .. عيناها طفلان شقيان ، يبثان فى نفسك البهجة ، وروح التسامح معهما .. أما الجمال ، فهى ليست جميلة فقط .. وإنما باهرة الجمال .. فماذا ينقصها إذن لتنعم براحة القلب والأمان ؟! ، وماذا يفتقده فيها فتاها لكى يبحث عنه لدى غيرها ؟!.

أسئلة محيرة ومؤلمة .. ولا جواب لها .. لكنها تشغلها منذ الصباح وهى تجلس تتصفح فى ملل صحيفة الصباح بذهن شارد . ثم وقعت عيناها فجأة على إعلان مثير للاهتمام :

ـ مطلوب فتاة جميلة ، لها بعض الإلمام بشئون التمريض ، والمرتب مجزا.

وبغير تردد .. نهضت من مجلسها لتتجه إلى العنوان المذكور فى

الإعلان ، فهو فرصة مناسبة لها ، للابتعاد عن عملها السابق ، الذى قد يجمعها مرة أخرى بفتى القلب الخائن .

وبأمل جديد فى التغيير والبعد عن ذكريات الماضى ، اتجهت إلى العنوان ، ودخلت بيتاً من بيوت الأثرياء . وقادها مدبر البيت العجوز إلى غرفة مكتب صاحبه . . ووجدت فى الغرفة رجلاً مهما يتحدث فى التليفون ، وأمامه سيدة متوسطة العمر تملأ استمارة ببياناتها . . وجاء دورها . . فتحدث إليها صاحب البيت المحامى الكبير فى عجلة ، وعرف منها أنها ليست ممرضة مؤهلة ، فاعتذر لها باقتضاب عن عدم قبولها ، ومدت إليه يدها بالإعلان الذى لا يطلب ممرضة مؤهلة ، وإنما فتاة لها بعض الإلمام بالتمريض ؛ فأجابها بجفاء بأنه ليس مسئولاً عن هذا الإعلان . . فانصرفت غاضبة مبتعدة عن البيت ، وقد ازدادت اكتئاباً . . ففوجئت بمدبر البيت العجوز يهرول خلفها ، راجياً منها العودة من جديد ، ورفضت مستاءة من جفاء صاحب البيت ، لكن الرجل العجوز أكد لها أنه لا يستدعيها لمقابلته . . فلقد غادر البيت فى رحلة عمل خارجية إلى اليابان ، لكنه يستدعيها لمقابلة ابنه الشاب الذى نشر الإعلان ، والذى كان يرقبها من خلف الباب خلال المقابلة . . وترددت للحظات فى القبول ، ثم رجعت معه . . والتقت بالشاب ؛ فرحب بها واعتذر لها عن جفاء أبيه معها ، لأنه لم يكن يعرف فعلاً بأمر الإعلان الذى نشره بغير إذنه . ولاحظت الفتاة ـ خلال حديثه معها ـ

شيئاً غريباً فى ملامحه ! . . إنه شاب وسيم ، رقيق ، لكنه شاحب الوجه ومكدود ، ويلف رأسه بمنديل ملون على طريقة الغجر ، وقال لها الشاب أنه فى الثامنة والعشرين من عمره ، وأنه يحتاج إلى فتاة لديها بعض الإلمام بشئون التمريض ، لأنه يتلقى علاجاً مكثفاً ومرهقاً ، ويحتاج لمن تصاحبه إلى جلسته الأسبوعية معه ، ومن تهتم بأمره بعده ، لأنه يعيش وحيداً فى هذا البيت الكبير .

وتكتشف الفتاة أن هذا الشاب الوسيم مريض بالمرض اللعين منذ عشر سنوات . . وتتردد قليلاً فى رفض العمل ، تقديراً لظروفه ، ورقته ، ورغبته الواضحة فى مساعدتها له .

ثم تقبل الفتاة الجميلة العمل الجديد . . وتصبح مهمتها رعاية شئون هذا الشاب الوحيد الوسيم ، ويجىء موعد الجرعة الأسبوعية المكثفة يوم الاثنين ، فيأتيه شاب ليقود سيارته ، وتخرج معه إلى المستشفى . وفى الطريق إليه ، يطلب منها الشاب الوسيم ـ فى تردد ـ ألا تنزعج لأى رد فعل قد يصيبه بعد الجرعة المكثفة . . فهى ـ كما قال لها ـ سموم تقتل سموماً بداخل جسمه . . لكنها ترهقه وتؤذيه ، وتعرضه لبعض المتاعب .

وتذهب معه إلى المستشفى ، ويتلقى جرعته المعتادة ، وترجع معه إلى البيت ، فيهولها ما يعانيه هذا الشاب الرقيق من آلام تهد الجبال بعد العلاج ، فهو يرتعش بشدة ، ويتصبب العرق الغزير منه ، ويهرول كل بضع دقائق إلى الحمام ليفرغ معدته ، وهو يتمزق من الألم . . وتفزع الفتاة

لما تراه . . وتحاول ـ قدر جهدها ـ تخفيف آلامه . . وتقضى الليل مستيقظة بجواره ، إلى أن تهدأ الآلام بعض الشىء فى النهاية ، ويستسلم لنوم قلق .

وفى الصباح تتصل بأقرب صديقاتها ، لتروى لها ما حدث ، وتقول لها أنها تشفق عليه مما يعانيه ، لكنها لابد أن تتركه ، لأنه يحتاج إلى ممرضة مؤهلة ، تعرف كيف تخفف آلامه .

ويرقبها الشاب خفية وهى تتحدث إلى صديقتها ، وقلبه يخفق بالأمل فى ألا تتركه ، بعد أن ارتاح إليها ، ويطلب منها البقاء ، حتى ولو لم تكن تدرى شيئاً عن التمريض ، لأنه يحتاج إليها . . فتضعف الفتاة عن تنفيذ قرارها ؛ وتقرر الاستمرار .

وتذهب إلى المكتبة لتقرأ عن تمريض المرضى بأمراض خطيرة . . وتواصل العناية به والاهتمام بأمره ، وتكتشف أنه يحتاج إلى صحبة إنسانة مريحة ، يتحدث إليها، وتتحدث إليه ، أكثر من حاجته إلى ممرضة ، فهو وحيد تماماً إلى حد الموت . . ماتت أمه وعمره ٩ سنوات ، وفاجأه المرض وهو طالب بالمدرسة الثانوية، عمره ١٨ عاماً . . فلم تتح له الأقدار أن يعيش حياة الشباب . . ولا أن يمرح مرحهم ، أما الفتاة الوحيدة التى أحبها ، فقد عرفته فى فترة من فترات ترفق المرض به ، وحين اشتد عليه المرض؛ هجرته ، نائية بنفسها عن مأساته .

وتعمق الأيام من معرفتها به . . وتكتشف فيه إنساناً طيباً مثقفاً

ودوداً، يتلهف إلى الحنان . . وقادراً على العطاء من نفسه ومشاعره للآخرين . وتواصل مصاحبته إلى جلسة العذاب الأسبوعية ، وقد اكتسبت الآن خبرة جديدة فى التعامل مع معاناته بعدها .

ويفاجئها ذات يوم ـ وأبوه مازال فى رحلته الخارجية ـ بخبر سعيد ! . لقد انتهت جرعات العلاج المكثف الرهيب ، . وآن له الآن أن يلتقط أنفاسه ، ويستمتع ببعض متع الحياة التى حرم منها . . واحتفالاً بهذه المناسبة السعيدة ، فإنه يدعوها إلى مصاحبته فى رحلة إلى الشمال لقضاء أجازة على شاطىء البحر . . ويحسم ترددها فى القبول بمصارحتها بأنه لم يخرج فى رحلة مماثلة منذ بضع سنوات، بسبب اشتداد المرض عليه . . ويترقب موافقتها فى خوف . . فلا تملك إلا القبول .

وتنطلق بهما السيارة فى الرحلة السعيدة . . ويستقرّان فى بيت صيفى جميل على شاطىء البحر البعيد . . ويتبدّى الشاب الوسيم سعيداً مرحاً ومقبلاً على الحياة . . ويذهبان إلى مقهى القرية الساحلية فى المساء . . فتلحظ عليه تردده فى الدخول ، خوفاً من تساؤلات الفضوليين عن رأسه التى تساقط شعرها بسبب جرعات السموم ، فتشجعه على مواجهة العيون . . بلا خوف ! .

ويتعرفان على بعض شخصيات القرية الساحلية ، ويتبادلان الزيارات معها ، وتكتشف فى حقائبه بعض الأمبولات الدوائية ؛ وتسأله عنها ، فيجيبها بأنها مسكن قوى للألم ، كان يتناولها عند اشتداد آلامه ، لكنه لم يعد فى حاجة إليها الآن ، ويحتفظ بها من باب الاحتياط .

وتمضى الحياة بهما فى هذا البيت الجميل . . وكل يوم يمر عليهما يزيدهما اقتراباً وتفاهماً وارتباطاً .

وتعرف أنه طالب دكتوراه ، كان يعد رسالة جامعية عن تاريخ الفن ، لكنه توقف عن استكمالها ، بسبب اشتداد المرض عليه ، وسيعود الآن لإكمالها . . كما سيقوم أيضاً بتدريس تاريخ الفن لها ، لتكتسب ثقافة مفيدة لم تتحها لها ظروفها . . ويشجعها بالفعل على قراءة كتب مختصرة فى تاريخ الفن خلال انشغاله بإكمال رسالته ، ويناقشها فيها . .

وتمضى الحياة هادئة . . ووادعة . . وواعدة بكل شىء جميل . . وقد نما شعره من جديد بعد توقف العلاج ؛ فزاده سحراً ووسامة ، ولم يعد مظهره يختلف فى شىء عن الآخرين ، لكن ماذا طرأ على الشاب الوسيم فى الفترة الأخيرة ؟. لقد عاوده بعض شحوب الوجه مرة أخرى ، وصحت من نومها فى الليل ذات مرة ، فخيل إليها أنه يتلوى من الألم ، ويجاهد لكيلا تحس به . وما إن شعر بها ، حتى ابتسم ، وشكا لها من تقلصات بسيطة بالمعدة من أثر الإفراط فى الطعام !

لكن قلبها لم يطمئن لمحاولاته التظاهر بأن كل شىء على ما يرام . . وفتشت عن أمبولات مسكن الآلام . . فاكتشفت أنه قد استهلك معظمها ، ولم يبق منها سوى اثنين، فحملتهما ووضعتهما أمامه . . وواجهته بما يحاول إخفاءه عنها .

ـ إنك لم تشف من المرض كما أوهمتنى . . فلماذا كذبت على ؟ ولماذا فعلت ذلك بنفسك وبى ؟ .

وبانكسار مؤلم . . يعترف لها بالحقيقة التى أخفاها عنها . إنه لم يشف بالفعل من المرض . . ولم تنته جرعات العلاج المكثف ، كما ادعى لها . . لكنه أراد ألا تنتهى علاقتهما ، وألا تتركه . . وأراد أيضاً أن يستمتع ببعض متع الحياة ـ التى حرم منها ـ إلى جوارها .

وبإصرار شديد تعلن له أنهما لابد أن يرجعا الآن إلى المدينة ، ليواصل علاجه . . لكنه يتوسل إليها ألا تفعل ذلك به . . ويرتجف صوته ، وهو يقول لها : لقد كان من الضرورى أن أوقف هذا العلاج . . فقد كان يقتلنى . . ويكفينى ما احتملته منه طوال عشر سنوات ، وليس هكذا يعيش الإنسان حياته . . أرجوك ابقى معى ، وساعدينى بأن تدعينى أموت سعيداً بقربك منى ! .

وترفض الفتاة هذا الحل الانتحارى وهى مضطربة وخائفة وتعيسة . . لقد خدعها . . لقد أوهمها بأنه قد أنهى العلاج . . فكيف يتكشف لها ذلك عن سراب ، بعد أن وصلت معه إلى ما تصورت أنه قصة العمر الحقيقية ؟ ، وكيف يخذل نفسه ويخذلها على هذا النحو ؟ . إنها لا تستطيع الاستمرار معه بلا علاج ، لكى تعانى ما عانت منه من قبل ، وهى تصحو من نومها فى الصباح ، خائفة من أن تكون قد فقدته خلال الليل . . ولا تستطيع أيضاً أن تبقى إلى جواره فى هذا البيت الساحلى ، لكى ترقبه وهو يموت أمامها بلا مقاومة . . ولا علاج ! . نعم ، لا تستطيع . . ولابد أن يعودا لاستكمال العلاج ، فإنْ لم يقبل بذلك راضياً ، فلن تبقى معه لحظة واحدة .

وغادرت البيت منهارة وباكية ، واتصلت بأبيه فى المدينة ، وأبلغته بأن ابنه قد عاوده المرض .

وهرول الأب إلى القرية الساحلية . . فوجد ابنه وحيداً حزيناً ، وقال له الأب عاتباً : لقد بحثت عنك فى كل مكان ، وأبلغت الشرطة بغيابك . . فلماذا فعلت بى ذلك يا ولدى ، وهل تكرهنى إلى هذا الحد ؟! .

ويجيبه الابن المعذب بصوت خافت : لا يا أبى . . لست أكرهك . . بل إنى أحبك لأنك أبى الذى يحبنى ويرعانى ، لكنى أردت فقط أن أعيش حياتى مرة واحدة لفترة من الوقت مسئولاً عن نفسى وعن أقدارى .

ويتفهم الأب عمق آلامه . . فيصمت قانطاً ، ثم يطلب منه بعد قليل أن يرجع معه إلى المستشفى . . لكن الإبن يطلب منه طلباً أخيراً ، هو أن يؤجل ذلك للغد ، لأنه سيقام حفل فى المساء بالقرية ، ستذهب إليه فتاته ، وهو يريد أن يراها للمرة الأخيرة ، كما أنه يريد أيضاً أن يقضى ليلته الأخيرة وحده فى هذا البيت الذى شهد هدنة الراحة الوحيدة فى حياته ، فيقبل الأب ذلك فى فهم، ويقول له أنه سيقضى الليل فى فندق القرية ، ثم يعودان لمدينتهما فى الصباح .

وفى المساء يذهبان معاً إلى الحفل . . وتأتى الفتاة ، فيتسلل الشاب مبتعداً وسط الزحام ليراها عن بعد ، بحيث لا تراه .

ويتقدم منها الأب ليشكرها على اتصالها به، وإنقاذها لحياة ابنه .

وتتلفت هى باحثة عنه ، فتراه يتسلل من الحفل فى هدوء ، وتلحق به فى شرفة البيت، وتقول له أنها سترجع إلى المدينة بعده بأيام ، وسوف تزوره فى المستشفى، فهل يرحب بذلك ؟. . فيطلب منها ألا تفعل ، لأن العلاقة ينبغى أن تتوقف عند هذا الحد . ويدعها وينصرف ، فترجع إلى الحفل، وتسأل أباه عن موعد عودتهما إلى المدينة ، فتعرف منه أنه قد طلب من أبيه أن يقضى الليلة وحيداً فى بيت الذكريات ، فتنزعج لهذا الطلب ، وتتنبه لما غاب عن الأب إدراكه . . إنه لن يعود مع أبيه غداً، كما وعده . . وإنما سوف يهرب الآن إلى مكان مجهول، ليقضى فيه أيامه يائساً من الحياة . إنها تعرفه جيداً ، وتعرف أنه فقد الأمل فى الشفاء والحب ولهذا . . فلن يعود إلى المستشفى .

وتغادر الحفل مهرولة ، تسابق الوقت لتلحق به فى البيت الصيفى ، قبل أن يختفى منه . . وتدخل عليه ، فتجده كما توقعت. . يجمع ملابسه ، ويهمّ بالرحيل .

وتسأله عاتبةً : هل تهرب الآن مرة أخرى ؟، وإلى أين تذهب . . ؟، ولماذا تيأس من العلاج ؟. . فيرقبها فى صمت للحظات، ثم يجيبها : لأننى خائف من الأمل فى الحياة ، وخائف من الأمل فيك . . إن وجودك بجوارى قد أصبح الآن يؤلمنى ، لأنه يجعلنى أتعلق بالحياة بشكل لم أحس به من قبل ، ولست أريد إيذاءك ، ولم أرد أبداً ذلك ذات يوم ، فأنت الإنسانة الوحيدة ـ طوال عشر سنوات ـ التى لم تشعرنى لحظة بأننى إنسان مريض. لهذا. . فأنا خائف من الأمل فيك . . وخائف من كل شىء .

وتسيل دموع الفتاة وهى ترجوه ألا يهرب بعيداً عنها . . وعن أبيه . . وعن العلاج .

وتنهمر دموعه بغزارة ، وتتساقط على وجهه ، وهو يقول :

ـ ولماذا تفعلين ذلك ؟ . . لماذا تعيشين مع إنسان محكوم بأقداره ؟ انظرى إلى نفسك . . إنك شابة صغيرة، وساحرة الجمال ، والحياة ممتدة أمامك ، وتستطيعين أن تفعلى أى شىء تريدينه . . فلماذا تريدين أن تحكمى على نفسك بالعذاب ؟! .

وتجيبه الفتاة من بين دموعها ، وهى ترتجف من شدة التأثر : لأننى أحبك أيها الغبى ! . فإذا رجعت معى وقاومت المرض ، وقاتلت من أجلنا ، فلن أتركك أبداً ، وسوف نعيش معاً فى سعادة .

و إذا . . و إذا مت . . فسوف أمسك بيدك وأنت تغيب عن الحياة ، وأكون آخر من تراه من هذه الدنيا .

ألا يستحق ذلك أن تقاوم من أجله . . ألا يستحق ؟

وتمتزج دموعهما معاً . . حتى يشعر كل منهما وكأنه يشرب من دمع شريكه فى الحب . . والعذاب .

ثم يستسلم الشاب الوسيم فى النهاية لإرادة فتاته الجميلة المخلصة . . وينقاد ليدها التى تأخذ بيده إلى الأمل . . والحب . . والكفاح من أجل الشفاء .

وآسف . . إذا كنت قد آلمتك بهذه القصة الحزينة التى كتبها مارتى

ليمباخ فى رواية عاطفية ، وزعت ملايين النسخ ، أسماها : «الموت شاباً» ، وأوجعتنا بها مؤخراً وبدموعها الحقيقية الصادقة فى مشهدها الختامى المؤلم : الجميلة جوليا روبرتس مع الفتى المعذب كامبل سكوت .

وعفواً لأننى قد تذكرت ـ بعد أن شاهدت هذا الفيلم الناعم الجميل ـ أننى قد اشتريت هذه الرواية نفسها منذ شهور خلال رحلتى لأوروبا فى مايو الماضى ، لكننى نسيتها تماماً للأسف ، فلم أقرأها ، وأريد الآن أن أبحث عنها وسط أكوام الكتب فى مكتبتى غير المنظمة ، لكى أعيد قراءتها ، ومعايشة أحداثها . . وأحزانها من جديد ! .



طعام الأحزان !

« أن تكون وحدك . . .

هذه نعمة كبرى ،

بشرط أن يكون لديك ما يكفيك

من طعام الأحزان ،

أو من العظمة والسمو فوق اهتمامات الإنسان » .

هكذا كتب الشاعر الألمانى «ريلكه » ، الذى عاش بين عامى ١٨٧٥ و ١٩٢٦ .

والمؤكد أن هذا الرجل الوحيد كان لديه ما يكفيه من طعام الأحزان ، الذى يعينه على وحدته ، ويساعده على تقبلها، والتواؤم معها . . فهو يعيش فى بيت قديم بضاحية المعادى بالقاهرة مع زوجته وحيدين ، لايكاد يغادر بيته إلا إلى حديقة البيت ، حيث يجلس على المقعد تحت ظل شجرة تمرحنّة ، فيتأمل الفراشات الطائرة من حوله ، ويراقب أشعة الشمس التى تتخلل فروع الشجرة ، فترسم على الأرض دوائر بيضاء متذبذبة ، ويكلم أشجار الحديقة فى باطنه ، ويتخيلها شخوصاً حية

تشاركه حياته ووحدته ، فشجرة الليمون اسمها لديه «زهيرة» ، اشتقاقاً من كلمة «بنزهير» ، وشجرة «التمرحنة» اسمها عنده «تمارا» ، وشجرة «الكازورينا» اسمها «رينا» ، وهو يرقب العصافير التى تحط فوق أغصان «زهيرة» ، ويتأمل مشاغباتها لبعضها البعض ، وحوارها فيما بينها بلغتها غير المفهومة . . ويحكى أنه كان فى البداية يظن كل عصفورين يتناجيان، إنما يتبادلان الغزل وكلمات الحب بلغة العصافير السرية ، لكن طول الجلوس تحت ظل الشجرة علّمه أنهما ـ فى حقيقة الأمر ـ يتشاجران ويتبادلان أقبح الشتائم ! .

وكل يوم يجلس تحت ظل شجرة التمرحنة يحتسى الشاى فى الكوب المصنوع من الخزف البنّى . . وتحت قدميه ترقد القطة العجوز التى يختلط فيها اللونان الأسود والأبيض ويستسلم الرجل لتأملاته ، واجترار ذكرياته ، ولا يخفف كثيراً من إحساسه بالشجن الدائم مشاركة «أمينة» له ـ من حين لآخر ـ جلسته لبعض الوقت ، قبل أن ترجع إلى داخل البيت ، وتنشغل بأعمالها وواجباتها المنزلية ، فكل ما حوله يوحى بالشجن والأسى، حتى أمينة نفسها !، وحتى القطة العجوز التى تبلغ من العمر عشرين عاماً ، والتى كان اسمها فى البداية بوسى ، ثم غيره «حماده» الابن الغالى ـ وهو طفل صغير فى الخامسة من عمره ـ إلى «مونى» . وحين سئل عن سبب اختياره لهذا الاسم الجديد لها ، أجاب ببراءة بأنه اسمها الحقيقى ، وقد «أخبرته» به القطة بنفسها ! .

ومستغرقاً فى تأملاته وأشجانه . . يكاد يسمع همس الأشجار

بعضها لبعض ، ويحس «بحسرة» القطة العجوز التى ترقب عصفوراً يقف على فرع الشجرة ، وتشتهى أن تلتهمه؛ فلا تسعفها القدرة، ولا السن، فيكاد يسمعها تتشكّى حظها قائلة :

ـ يارب ! خلقت لنا العصافير لكى نأكلها ونسبح بحمدك ، فلماذا يارب . . لماذا خلقت لها أجنحة تهرب بها منا ؟ .

وتظهر أمينة فى شرفة البيت فى فستانها الرمادى ، تتدلى من يدها مسبحة طويلة . لقد كانت قبل ذلك لا تخلع الثوب الأسود ، لكنه أقنعها على مر الأيام بأن اللون الرمادى لا يقل بلاغةً فى التعبير عن الحزن الكامن ، فيراها من مجلسه وهى تقترب آخذة فى الامتلاء ، حتى توشك أن تصبح سيدة بدينة . ويتساءل الرجل صامتاً : أين منها غزال زمان الأسمر الرشيق، الذى طالما دللها بكل الأسماء فى أيام زواجهما الأولى ؟ . وإلى مجلسه تجىء ، فتتشكى من آلام الروماتيزم ، وتشكو من تأخر خطابات الابن الذى هاجر إلى أمريكا منذ شهور ، بعد أن فشلت كل محاولاتها لإرجاعه عن نيته ، فلم يبق لها ولأبيه منه سوى ترقب خطاباته، والحديث الدائم عنه تحت ظل هذه الشجرة فى جلسة الضحى من كل يوم .

عجيبةٌ هى الحياة . . تتساءل أمينة . . ما الذى يدعوه للسفر والاغتراب والبهدلة ، وقد كان يعيش بينهما معززاً مكرماً ؟! .

وتكرر السؤال الحائر كل يوم على زوجها ، فلا يجد الرجل العجوز

مفراً من أن يحدثها عن طموح الشباب ، وحقهم فى الاستقلال بحياتهم . . فلا تعترض على الحديث، ولا تقتنع به ! .

وفى جلستهما اليومية يجيء إليهما «جمعة» حارس الشونة المجاورة ، ليشترى لهما الخضر والطعام ، فلا تخلو جلستهما من حديث عن بعض شئون حياته العائلية ، فهو الجار القريب منهما ، الذى يعيش مع زوجته فى كوخ صغير ، يحرس أكياس الأسمنت وأسياخ الحديد فى الأرض المملوكة للمقاول .

وعبر الحاجز النباتى الفاصل بين البيت وهذه الأرض ، يرى الرجل الجالس تحت ظل شجرة التمرحنة ، فروع شجرة الجازورينا المزروعة فى أرض الشونة . . ويشعر «بصداقته» لها على البعد . أما أفرع الياسمين التى تمتد فوق شرفة البيت المفتوحة على الحديقة ، فتذكّره دائماً بابنه الغائب فى أمريكا «حماده» ، فهو الذى جذب فروعها ، وثبتها بالمسامير فى الشرفة ؛ فصنع بذلك مشروع خميلةٍ جميلةٍ ، ثم بقيت خميلة الياسمين فى موقعها . . أما الابن الغالى ، فقد غاب فى بلاد بعيدة! . . وحتى جمعه حارس الشونة تزيد أحواله من الشجن المخيم على حياة هذين الزوجين . . فلقد مات له طفلان من قبل ، ورزق بالثالث ؛ فأسماه «شحاتة» عسى أن تكتب له الحياة ، أو كأنما «يشحذ» له النجاة من ربٍ رحيم . والطفل ـ رغم ذلك ـ مريض ، وتؤرقهما فى الليل دائماً آهاته وتأوهاته وسعاله .

ويجيء الشتاء؛ فيحرم الرجل العجوز من جلسته تحت ظل الشجرة

فى شمس الضحى ، ويكتفى بجلسته الآمنة وراء زجاج باب الشرفة ، يرقب «صديقاته» من أشجار الحديقة ، ويتمنى لها الصمود أمام برد الشتاء وعواصفه ، ويغبط أمينة على وقفتها الدافئة أمام فرن البوتاجاز فى المطبخ .

ويحط هدهد جميل على سور الشرفة ، فيتمنى الرجل أن يطول وقوفه ليرقب حركته وألوانه المزركشة من وراء الزجاج ، ويتخيل ماذا يمكن أن يدور فى رأسه المتوج بالريش من أفكار وأحلام ، لكن الهدهد يطير بعد قليل إلى جدار مشقوق فى البيت الحجرى ، ويتعلق بمخالبه بأحد الشقوق التى تبنى فيها العصافير أعشاشها ، ويروح معلقاً فى الهواء ينبُش بمنقاره الطويل أحد هذه الأعشاش ، ويُخرج ما فيه من ريش وأوراق شجر وأغصان صغيرة . . والعصافير تحوم حوله فى فزع ، والرجل يتأمل المشهد ويتساءل : هل هى عدوى «بشرية» طارئة للتدمير . . أم أن الهدهد يتناول إفطاره اليومى من بيض وأفراخ العصافير ؟ .

ويأسىَ لأن أمينة مشغولة فى المطبخ ، ولم تشهد معه هذا المنظر المأساوى . . وإلا لكذَّبته حين يحكيه لها ، وقالت له أن ذلك الطائر «المبروك» صديق سيدنا سليمان، لايمكن أن يرتكب هذه «الجريمة»، ولابد أنه هو الذى يتوهم أشياء لا حقيقة لها، من طول معاشرته للأشجار والطيور فى وحدته بالحديقة ! .

وفى برد الشتاء تنتقل جلسة الحديقة إلى جلسة داخلية أمام المدفأة

المشتعلة ، وبنفس نظام الجلسة تحت ظل تمارا . . مقعدان متقابلان ، يجلس الرجل على أحدهما ناحية اليمين ، وتجلس أمينة ناحية اليسار تغزل «بلوفراً» من الصوف لابنها الغائب فى أمريكا . . ويتساءل الرجل متعجباً : أيحتاج الابن الغالى إلى بلوفر من صنع يدها ، وفى مقدوره أن يشترى ـ حيث يعيش ـ عشرات من البلوفرات ؟ ، فتجيبه فى إصرار بأن صنع يدى الأم يشعره بالدفء أكثر ! .

ويتأملها الرجل راثياً لحالها ، وباحثاً فيها عن فتاة القلب القديمة التى تسللت الآن التجاعيد إلى وجهها ، ومازالت لمسة من اللون الأخضر القديم فى عينيها . . وا أسفاه . . فقد هدمها السن وآلام الروماتيزم ، وهجرة الابن الذى أصبح «وحيداً » . . أما مأساتها الكبرى التى زلزلت حياتها ، فكانت فى «الآخر» الذى ذهب ولم يعد ، فيقول الرجل لنفسه وهو يتأملها منحنية على خيوط التريكو : ما كان أحد ليلومها ، أو يطلب منها أن تظل أمينة القديمة ، إذ لو أنهم قالوا لها أنه اسْتشهد ، لكان ذلك أرحم بها من تلك الكلمة الجافة المقتضبة : مفقود! . . لكنهم قالوا لها ذلك فقط عن إبراهيم . . ولم يشرح لها أحد كيف تحول ابنها الأكبر من «موجود» إلى «مفقود» ، ولا تَقَبَّل عقلها وقلبها أى شرح أو تفسير ؛ فكانت أسابيع مريرة قضتها فى المستشفى ، ورجعت بعد زمن عصيب إلى عالم الأحياء ، ممتثلةً للقضاء .

وما كان يمكن أن تكون هى نفسها أمينة التى رجعت من هذه المحنة . . فلقد بقيت منها هناك أشياء ، حيث كانت وعادت منها أشياء بلون

مختلف ، فتحوّل شعرها من اللون الأسود إلى الأبيض ، وشيئاً فشيئاً بدأت تتعلم الابتسام من جديد . ومن حين لآخر توجه إليه نفس الكلمات التى سمعها منها مئات المرات : لا أدرى ماذا كان يمكن أن يحدث لى ، لو كان «حمادة» قد ذهب هو الآخر ؟! .

ومن فوق خيوط التريكو يتأملها من جديد فى عطف ورثاء ، ويقول لها :

ـ أحبك يا أمينة .

فتنظر إليه باستغراب للحظات ، ثم تبتسم قائلة : أحبّتك العافية! .

وتنتهى نوبة البرد والمطر . . فينتهى معها الحبس الاضطرارى للزوجين الوحيدين ، ويرجع الرجل إلى حديقته متحسراً على ما أصبح يشعر به من إجهاد ، لهبوط وصعود الدرجات الأربع ، التى تصل الشرفة بالحديقة . . ومتفادياً فى سيره أن يدوس طابور النمل المنهمك فى أداء واجباته اليومية ، فيتفقد الحديقة ، ويفاجأ بوجود كلب غريب يرقد على الأرض ، مستمتعاً بأشعة الشمس ، ويكاد يسمعه يقول له : أرجوك يا «بك» دعنى أستمتع بدفء الشمس فى حديقتك بعض الوقت .

وهو لا يعارض فى ذلك . . لكن أمينة تكره الكلاب ، وتعتبرها نجسة ، ولا تسمح لها بدخول الحديقة ، فلا مانع إذن من بقائه بعض الوقت إلى أن ترجع أمينة من عند البقال . وما إن تدخل من باب الحديقة ، حتى يفزع الكلب راجعاً إلى أرض الشونة .

ويأتى البريد حاملاً ـ لأول مرة منذ فترة طويلة ـ بشرى طيبة للقلوب الحزينة . إنه خطاب من حمادة ، يحمل أنباء سعيدة ، تقول أنه قد استقر فى عمل مناسب بشركة طيران فى لوس أنجيلوس ، ومع الخطاب تذكرة طائرة ذهاباً وعودة إلى هناك ، ليأتى بها أحد أبويه لزيارتها . . وتبتهج الأم الحزينة . . وتردد بتأثر :

ـ يحميك ربى يا حمادة . . يحميك ربى .

وترقب فى غرفة نومها الصورتين الأخريين لشقيقه المفقود إبراهيم ، وتتذكر كيف أراد زوجها أن يرفعهما من جوار فراشها رحمة بها ؛ فغضبت عليه غضبة هائلة . . وأصرت على بقائهما ، إلى أن يجمع الله بينه وبينها فى العالم الآخر .

وتتكدر القلوب مرة أخرى برحيل طفل جمعة (حارس الشونة) فى نفس السن التى رحل فيه طفلاه السابقان . ويشارك الزوجان الوحيدان جارهما وزوجته مشاعرهما ، وينزعج الرجل العجوز بشدة لقرار مالك الشونة المجاورة بقطع صديقته الشجرة «رينا» ، لأنها تعوق دخول سيارات النقل إلى الأرض ، ويحاول بكل جهده منعه من ارتكاب هذه الجريمة فى حق «صديقته» العزيزة ، أما أمينة ، فتواجه متاعب صحية جديدة . . وتتعرض لنوبات متكررة من الشعور بالدوخة كلما نهضت من جلستها .

ويتضح ارتفاع ضغطها بشدة ؛ ويُلْزِمُها الطبيب بالراحة التامة فى

الفراش لمدة أسبوع ، ويلازمها شريك عمرها فى حجرة النوم ، لكنها تطلب منه بإصرار أن يرجع إلى أشجاره وطيوره وفراشاته التى يتسلّى بمراقبتها ، لأنها ستكتب خطاباً إلى «حبيبها» المهاجر لأمريكا ، ويمتثل لرغبتها ، ويرجع للجلوس تحت ظل تمارا . . يراقب ضفدعة تقفز بين أشجار الورد ، وسحلية تزحف فى هدوء ناحية سياج النبات ، فتنقض عليها القطة «مونى» ، بينما تسقط زهرة ياسمين فجأة فى كوب الشاى الخزفى ! .

وفى جلسات الحديقة تحت ظل الشجرة ، يتجادل الزوجان الوحيدان حول تلك الحشرة الخضراء ذات الرأس المثلث المسماة «بفرس النبى» ، فترى فيها أمينة ـ كعادتها مع حشرات وطيور وحيوانات كثيرة ـ حشرة «مبروكة» ، لأنها تشبه البراق الذى امتطاه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى بيت المقدس فى ليلة الإسراء . ويرى فيها الرجل الوحيد أنها حشرة وضيعة ، تنهش رأس الذكر فى نفس اللحظة التى يكون فيها ممتطياً ظهرها فى لحظة التواصل ، ثم ترديه بعد ذلك أرضاً ، وتشق بطنه وتلتهم ما فيها .

ويأسى الرجل لمقتل كلب جمعة على أيدى بعض اللصوص ، ويشمئز لسقوط طائر «وروار» بين أنياب القطة العجوز «مونى» .

ويختلف الأطباء حول حالة أمينة الصحية ، فتسأل زوجها فى حياء :

ـ أتغضب منى كثيراً لو سافرت إلى حمادة فى أمريكا لأراه وأطمئن عليه ، وأعرض نفسى على الأطباء هناك؟ .

فلا يجد الرجل العجوز مفراً من تشجيعها على السفر .

وفى غرفة نومه الصامتة ـ بعد سفرها ـ يشعر بخوف هائل ، كأنه طفل صغير . . ويخيّل إليه أن ابتسامة ابنه المفقود فى صورته تتسع فى غموض وتسأله : لماذا أنت حزين يا أبى لأن أمى ستأتى إلى ؟ ، فيجيبه مذعوراً : لكنها لم تذهب إليك أنت ، ولكن إلى حمادة . . فتزداد الابتسامة غموضاً ، ويحلّ الصمت! ، ويعجز الرجل الوحيد عن النوم.

وينفذ المقاول قراره القاسى بقطع الشجرة . . ويبدأ فى قطعها ، فيخيل للرجل الجالس تحت ظل تمارا أن كل ضربة فى جذعها تهوى فوق رأسه . . ويصاب جمعة بكسر لسقوط جذع الشجرة عليه ؛ ويقضى فى المستشفى أسبوعاً ، يتم خلاله تجبيس ساقه قبل أن يرجع إلى كوخه ، فيزوره الرجل الوحيد ليطمئن عليه .

وتموت فجأة القطة العجوز ، فيدفنها الرجل تحت حوض الورد ، ويتذكر كلمة أمينة التى كانت ترددها كثيراً فى الأيام الأخيرة عن أنها ستلقى ربها قبل هذه القطة العجوز . ويقول : كذَّبت الأيام ظنونك ياأمينة . . لكن أين أنت الآن . . وكيف تمضى الحياة بدونك؟ .

وتتواصل الأيام خاليةً من كل أثرٍ لأنفاس الحياة فى البيت القديم والحديقة العتيقة . . ولا يبقى للرجل الوحيد فى وحدته سوى صدى صوت أمينة، وكلماتها التقليدية ، وصدى «قراءة» القطة الذى كانت تسجع به دائماً حين تتكوّر تحت قدميه ، وصوت حفيف الأشجار مع

لفح الهواء ، ونقيق الضفادع فى حوض الزهور ، وصوصوة العصافير فى الفضاء المحيط ، فيخيل للرجل الجالس وحيداً فوق مقعد متهدم تحت ظل شجرة عجوز فى حديقة كابية . . أن كل هذه الأصوات تتداخل فى معزوفة جماعية حزينة ، تشاركه الصمت والوحدة ، وفقدان الرفيق ، وبُعد الأعزاء ! .

***

لقد حدثتك من قبل عن افتتانى برواية جميلة شبه مجهولة ، اسمها «ترانيم فى ظل تمارا» للأديب الساحر المبدع الذى لم ينل حقه من الشهرة والتكريم، الراحل محمد عفيفى . . وقد عثرت على هذه الرواية الجميلة التى حاولت ـ عبثاً ـ تلخيصها لك هنا بالصدفة فى إحدى المكتبات، وعجبت : كيف لم أسمع بها من قبل ، بالرغم من أنها صادرة فى عام ١٩٨٤ كما قرأت على ظهر غلافها ، وتحدَّثت عنها ذات يوم بإعجاب شديد مع صديقى الأديب أسامة فرج ـ مدير تحرير مجلة علاء الدين ـ فإذا بى أكتشف أنه قد قرأها قبلى ، ويشاركنى الافتتان بها .

وتحدثنا طويلاً عن جو الشجن الشفيف ، الذى يخيم على أجواء الرواية من أول سطر فيها ، حتى نهايتها ، رغم لغتها البسيطة ، ولفتات عفيفى الساخرة فيها . واختلفنا حول مصير «أمينة» الغامض فى نهاية هذه الرواية ، التى لا تكشف عنه بوضوح ، فرأى صديقى أنها قد رحلت عن الحياة للأسف ، متأثرةً بأمراضها وحزنها العظيم على ابنها المفقود فى الحرب ، لكن إبداع الكاتب لم يشأ له التصريح بذلك ، فتركه

لاستنتاج القارىء ، فى حين تمسكت أنا ـ رغم اقتناعى العقلى بتفسير الصديق ـ بالأمل فى ألا تكون غيبة أمينة عن الرجل الوحيد الجالس تحت ظل الشجرة غيبةً أبديةً . . وبأن تكون غيبة مؤقتة، تزور خلالها الابن الباقى لها على قيد الحياة، ثم ترجع إليه لتشاركه وحدته وذكرياته وأشجانه .

واعترفتُ لنفسى بأن تفسير صديقى هو الأقرب للتصور ، لكنى أتمسك ـ رغم ذلك ـ بتفسيرى العاطفى هذا ، إشفاقاً على هذا الرجل الذى يكلم الأشجار والعصافير والورود .

ولا عجب فى خلافنا أو اختلافنا حول هذا الأمر . . فهكذا الفن الأصيل الصادق دائماً . . يقول فيه الفنان كلمته ، فيفهمها القارىء ، ويفسرها كما يحلو له ، وبما يتفق مع تفكيره الخاص ، وحالته النفسية وقت القراءة ورؤيته للحياة .

وهذه الرواية البديعة التى يصفها كاتبها بأنها «ملاحظات فى حديقة مشمسة على نماذج من الحيوان والطير والشجر وبعض بنى البشر» قطعة من هذا الفن الأصيل الصادق الذى يهمس لك بأفكاره ، ويدع لك أنت أن تفكر فيها ، وتستنتج منها ما تشاء .

فكيف لم تحظ هذه الرواية الجميلة ـ التى كانت آخر ما كتب محمد عفيفى ـ ببعض شهرة روايات أخرى أقل منها كثيراً فنّاً ومتعة ؟! .

نداء الخريف

لماذا تتغير الدنيا فجأة حول الإنسان ؟ .

ولماذا يفقد أسباب قوته عاماً بعد عام ، وينهزم تدريجياً أمام الزمن ؟ .

وأين هذا الوجه الحزين الخائف من ذلك الوجه الآخر الباسم الناطق بنضارة الشباب والثقة فى النفس الذى كان حتى بضع سنوات؟. تساءلت السيدة متوسطة العمر فى صمت وهى تتأمل وجهها بإشفاق فى غرفه نومها بتلك المدينة الغريبة عنها .

لقد تغيرت الدنيا حقاً خلال السنوات الخمس الأخيرة كما يتغير كل شىء من حال إلى حال ، وبعد أن كانت عقود العمل تلاحقها فى كل مكان ، ولا تدع لها وقتا للتساؤل عن بصمات الزمن ، تراجعت عروض العمل كثيراً ، وطالت أوقات فراغها ، واكتشفت للمرة الأولى ـ بعد عشرين عاماً من الحياة تحت الأضواء ـ أنها امرأة وحيدة تتخطى سن الخامسة والأربعين ، بلا زوج ، ولا أبناء ، ولا صحبة دافئة للقلب الحزين . . فماذا يجديها ما جمعته من مال خلال رحلة النجومية والأضواء؟ ، وهل يعوضها ذلك عن فراشها البارد كل ليلة ،



وأمسياتها الطويلة المملة ، وهى تترقب التليفون ، وتأمل أن يتذكرها أحد الأصدقاء القدامى بالسؤال ؟

لقد قال لها وكيلها الفنى ـ الذى لم يعد يلاحقها الآن بعروض العمل ـ أن لكل زمان نجومه .. وأنها لم تعد تصلح لأداء دور البطلة الجميلة فى المسرحيات والأفلام ، وأنه قد يحسُن بها أن تتفرغ للعناية بصحتها ، وتسافر فى أجازة طويلة خارج البلاد لتستمتع بحياتها ، فهل كانت هذه النصيحة المؤلمة إعلاناً محزناً لانتهاء الدور وإنزال الستار ؟! .

لقد فشلت فى زواجها ، ولم تتوقف وقتها عند أحزانها طويلاً .. فقد كان العمل يشغلها ، والأصدقاء كثيرين ، والدعوات الاجتماعية تنهال عليها من كل مكان ؛ فلم تشعر بالوحدة ، ولا بالفراغ ، لكنها الآن تشعر بهما بقسوة .

وقد استسلمت للنصيحة المؤلمة .. وركبت الطائرة من أمريكا إلى إيطاليا ، واستأجرت بيتاً جميلاً فى روما ، واعتزمت أن تقضى فيه كل شهور الصيف ، وربما أيضاً بعض الشتاء .. مع اعترافها لنفسها بأنها قد بدأت رحلتها الطويلة هذه ، والأمل يراودها فى أن تجد ـ خلال إقامتها بروما ـ شريكاً للقلب الخائف من المستقبل ، إلا أنها تأنف من أن تضطرها وحدتها لأن تفعل ما تفعله بعض العجائز الثريات ، حين يسافرن إلى أوروبا فى الصيف ، ويشترين الصحبة والحب والاهتمام بالمال والهدايا ، فهى لم تتدهور بعد إلى هذا الحضيض ..

ومازال اسمها معروفاً فى بلادها ، وتنشر المجلات صورتها من حين لآخر . . كما أنها أيضاً لم تبلغ الخمسين بعد . . ولا يرضيها إلا أن تكون مرغوبة لنفسها ، وليس لمالها . . نعم . . لقد تخطت الخامسة والأربعين بعام ، أو عامين ، أو ثلاثة ، وتسللت التجاعيد إلى وجهها . . وهى تفهم جيداً حقائق الحياة ، وتعرف أنه قد آن الأوان لأن تتوسل هى بالهدايا والمجاملات لتظفر باهتمام الآخرين ، بعد أن كانوا هم الذين يتوسلون إليها بنفس الطريقة . . لكن تقبُّل حقائق الحياة شىء . . وشراء الحب بتلك الطريقة المبتذلة شىء آخر ، لا يمكن أن تسمح لنفسها به .

وهكذا عاشت أيامها الأولى فى روما وحيدة ، تشغل نفسها بما يشغل به السياح أنفسهم . . ثم تعرفت فى إحدى المناسبات على كونتيسة إيطالية عجوز ومفلسة ، وهبطت معها الخطوة الأولى فى سلم الكرامة والاعتزاز بالنفس حين قبلت أن تقدم إليها الكونتيسة العجوز شاباً إيطاليا وسيما ، لم يبق له من ثراء أسرته العريقة إلا المجد القديم . . ولا يملك من أسباب الحياة سوى وسامته ، وخبرته فى إغراء السيدات العجائز . . وقالت لنفسها حين قبلت ذلك : لابأس بما يحدث ، مادام يتم فى إطار « الاحترام » .

وبدأت تخرج إلى الحياة الاجتماعية فى روما مع الشاب الوسيم «باولو» ، وتدعوه مع أصدقائه والكونتيسة العجوز إلى بيتها ، وتصحبه إلى المطاعم الفاخرة ، وتدفع عنه الحساب ، وتأخذه إلى أشهر ترزى فى

العاصمة الإيطالية ليخيط له بدلتين فاخرتين . . وتقدم له بعض الهدايا الصغيرة ، وكلما أرّقها إحساسها بالتدهور ، التمست لنفسها العزاء فى أنها لا تدفع له مالاً صريحاً ، ولا تسمح له بابتزازها وطلبه منها .

والكونتيسة العجوز ترقب الموقف بعين خبيرة مجربة ، وترقب بصبر نافد أن تنال نصيبها من الثمرة ، فلا تجد من باولو أى تجاوب ، وتتصور أنه قد بدأ ابتزاز الممثلة الأمريكية المعتزلة، لكنه لا يعطيها «مستحقاتها » عن تعريفها به ، فتضمر له الغدر ، وتذهب إلى المرأة الأمريكية ، وتحذرها من ألاعيب باولو ، الذى سبق له أن سرق مجوهرات سائحة أمريكية عجوز ،نسيتها فى حمامها فى الصيف الماضى ، ونبهتها إلى أنه سيحاول أن يقترض منها مبلغاً كبيراً ، مستخدماً فى ذلك قصته « المجرَّبة » من قبل مع غيرها من السائحات الأمريكيات ، فيروى لها عن صديقه الحميم الذى اقترض ١٠ ملايين ليرة إيطالية ، وسلمها لأحد قساوسة الفاتيكان ليتاجر له بها فى السوق السوداء ، فإذا بالكاهن يستولى على المال لنفسه . . وإذا بصديقه يواجه خطر دخول السجن ! .

وصدقت توقعات الكونتيسة الخبيرة ، فلم تمض أيام حتى جاء باولو إلى الفنانة المعتزلة ،وهو مهموم بأمره ، وجلس صامتاً بين يديها ينتظر منها أن تسأله عما يحزنه ،فلا تخيب ظنه ، وتسأله . . فيعيد عليها القصة بتفاصيلها ، وينهض متجهما ، ومعلنا أنه لابد له أن

يجد هذا المبلغ بكل وسيلة لينقذ صديقه ، وتسأله السيدة الأمريكية بمرارة : ولماذا ينبغى عليك أن تفعل ذلك ؟ ، فيجيبها «بنبل» : لأن الصداقة عندى أهم من كل شىء ! فلا تملك إلا أن تبتسم ساخرة، وتواجهه بما عرفته من الكونتيسة؛ فلا يضطرب ولا يخجل ، وإنما يسألها فى جرأة : ولماذا طلبت منى إذن سماع تفاصيل القصة ، مادمت تعرفينها ؟ .

وتتجاوز السيدة ـ التى علمتها ظروف الزمن أن تتقبل مثل هذه الألاعيب ـ عن هذه المحاولة الخائبة ، وتخرج معه للعشاء ، كأن شيئاً لم يكن . وفى طريقها إلى السيارة ترى الآخر واقفاً فى نفس المكان تحت المسلة المصرية فى الميدان . إنه شاب إيطالى آخر ، شديد الوسامة ، رث الملابس ، يجىء إلى هذا المكان ، وينظر إليها حين تكون فى شرفة بيتها نظرات طويلة فى صمت ورجاء . . فماذا يريد منها؟ ! . إن مظهره يؤكد أنه من أبناء الريف الإيطالى فى الجنوب، ولابد أنه رحل إلى العاصمة ليبدأ حياته فيها ؛ فسمع عن العجائز الثريات اللاتى يجئن إلى روما فى الصيف ، فداعبه الأمل فى أن يجد لديها فرصته الأولى . . فأى هوان تدهورت إليه ، وأين المفر ؟!

راودها هذا التساؤل ، وهى تنظر إلى هذا الشاب الغريب من السيارة ، كما راودها من قبل حين التفتت إلى وجوده أمام شرفتها باستمرار ، وتشاغلت عنه بالحديث مع فتاها الذى لا يخفى طمعه فى مالها . وفى المطعم الذى توجها إليه ،راقبت بألم أفراد الشلة التى

فرضها عليها باولو ، وكلهم من الشباب العابث . وشعرت بغربتها وسطهم . . وراقبت بأسى مداعبات قدم باولو تحت المائدة لقدم الفتاة الجميلة التى يتبادل معها مشاغبات الغزل بلا حياء ، وازداد إحساسها بالمهانة ، فنهضت عن المائدة ، ووقفت وحيدة خلف زجاج المطعم المطل على الشارع ، فإذا بها تجد نفس الشاب الوسيم البائس واقفاً على الرصيف ، يرقبها بنفس الصمت والأمل . . وفقدت السيطرة على نفسها ؛ فقربت وجهها من زجاج المطعم، حتى التصق به ،وقالت له بصوت متألم لم يسمعه : ماذا تريد منى . . ألا ترى هذه التجاعيد فى وجهى ؟ ! .

ووجَّهَ إليها الشاب بضع كلمات لم تسمعها ، كأنما يدعوها للحاق به ! .

وجاء «باولو» يسأل عما أغضبها . . فطلبت منه أن يعيدها إلى البيت. وفى طريق العودة تعاتبه على عدم مراعاته لشعورها خلال السهرة . . ثم تتدارك فتقول له ، كأنما تعزى نفسها : إنه على أية حال . . لا مكان للكرامة فى الحب بين شاب صغير ، وامرأة تكبره بعشرين سنة .

وتمضى بها الأيام ، ويواصل باولو محاولاته لاستنزافها وإهانته لها بمغازلة الأخريات بلا احتراس أمامها ، وكلما ضاقت بظروفها وخرجت إلى الشرفة فى الليل تتنسم الهواء ، وجدت نفس الشاب الوسيم الفقير

مازال فى موقعه تحت المسلة المصرية ، يثبت عينيه عليها ، وينتظر فى صبر ! .

وتبلغ بها المرارة قمتها حين يفاجئها باولو وهى معه بأحد المطاعم بضرورة عودتها إلى بيتها ، لأنه قد دعا بعض الصديقات لمشاهدة فيلم سينمائى فى ضيافتها . وترجع معه مضطره ، فتجد الكونتيسة العجوز ومعها فتاتان جميلتان إحداهما ممثلة شابة . وتستسلم للأمر الواقع . . وتصطحب ضيوفها إلى الحجرة المخصصة لآلة العرض الصغيرة . وبعد نصف ساعة يضيق باولو بمشاهدة الفيلم ؛ فيطلب وقفة ، ويدعو الممثلة الشابة ليريها روما من شرفة البيت ، ويخرج معها ، ويغيب بضع دقائق ، ثم يرجع وحده . . وتسأله عن الضيفة الشابة ، فيجيبها بأنها تذكرت موعداً مهماً ، فانصرفت من باب الشرفة ! . وتفهم الفنانة المعتزلة الموقف على حقيقته ؛ فتزداد ضيقاً واكتئاباً . وتنصرف الكونتيسة والفتاة الأخرى ، وتنتظر اللحظة التى سيعتذر فيها باولو عن قضاء الليل معها لكى يلحق بالممثلة الشابة حيث تنتظره . . فلا يطول انتظارها ، ويشكو كالمتوقع من صداع قاتل ، ويستأذن فى الانصراف للنوم مبكراً ، فيبلغ بها إحساس المهانة ذروته ، وتواجهه بما سيفعل ، وتصرخ فيه . . فيسد فمها بيده . . وتعضه فيها ، فيصفعها ، ثم ينصرف غاضباً . . ويتركها وراءه تبكى فى حسرة .

وفى قمة انكسارها ، تخرج إلى الشرفة ، كأنها تبحث فى سماء روما المرصعة بالنجوم عن مخرج لنفسها من كل هذه الأحزان .

وتفكر للحظات فى أنه قد يحسن بها الآن أن تنهى زيارتها إلى إيطاليا ، وترجع لبلدها ، بعد أن حملت لها محاولتها تقليد العجائز الثريات ما لم تكن مؤهلة لأن تتحمله من جراح النفس والأحزان .

وفى غمرة أحزانها . . تهبط بنظـرها من السماء إلى الميدان الذى يطل عليه بيتها . . فتجد نفس ذلك الشاب البائس الوسيم واقفاً فى مكانه ، ورافعا إليها عينيه فى انتظار وترقب .

وفى لحظة يأس من استرداد الشباب الذى ولَّى وضاع ، ومن عودة الإحساس المفقود بالكرامة والأمان ومن كل شىء ، وجدت نفسها تلفّ مفتاح البيت المعدنى فى منديل أبيض ، ثم تلقى به إلى الشاب البائس الذى يقف فى نفس المكان كل ليلة منذ شهر ، مترقباً فى صبر مرير هذه الدعوة .

ولقد جاءته أخيرا . . فكانت إشارة حزينة إلى أن تلك السيدة متوسطة العمر قد فقدت آخر ما كانت تتجمّل به أمام نفسها من مظاهر الادعاء بأنها لا تفعل ما تفعله العجائز الثريات فى رحلات الصيف ! .

وتنتهى رواية «خريف امرأة أمريكية» للأديب الأمريكى المبدع تنيسى ويليامز ، التى عثرت عليها فجأة منذ أيام وأنا أعيد ترتيب مكتبتى ، فلم أدعها تلك الليلة ، حتى فرغت من قراءتها للمرة الثانية بعد عشرين عاماً أو أكثر من آخر مرة رأيتها فيها .

ولست أدرى هل قدمتها السينما الأمريكية فيما قدمته من أعمال

تنيسى ويليامز الشهيرة ، كوشم الوردة ، وعربة اسمها الرغبة ، وقطة فوق سطح من الصفيح الساخن ، والزوجة العذراء ، أم لم تفعل .

لكنى على أية حال قد خرجت من قراءتها الثانية بنفس تلك العبارة التى استوقفتنى بشدة حين قرأتها للمرة الأولى ، والتى لخصت أزمة بطلتها «مسز ستون» ومعاناتها مع هذا الشاب حين قالت :

ـ إن أسوأ ما فى الحب بين شاب صغير وامرأة تكبره فى السن . . أنه لا مكان فيه للكرامة ! .

صحيح تماما . . والله العظيم . . وهو أسوأ أيضاً مافى الحب بين فتاة صغيرة ورجل يكبرها فى السن بكثير ، وفى كل ارتباط أو علاقة زوجية ، يحاول أحد طرفيها أن يقفز فوق حاجز الزمن ، ويطلب لنفسه مالا تسمح له به طبيعة العمر . . ولا حقائق الزمن ! .

أنا .. «وثروتى» الكبيرة !

هل تكتم السر ؟ .

إذن فاعلم أننى أحتفظ فى بيتى « بثروة » يسيل لها لعاب اللصوص، إذا علموا بها ، وأدركوا قيمتها الحقيقية ! .

أما ثروتى . . فليست من المجوهرات ، ولكن من « الجواهر » التى لا يعرف قيمتها إلا المضروبون بالأدب والفن مثلنا. لهذا . . فإنى أتوقع أن يأتى يوم فى المستقبل ، يختلف فيه الأحفاد والورثة بشأنها ؛ فيرى منهم من انتقلت إليهم عدوى الفكر والأدب من «جدِّهم» الأعلى ـ وهو محسوبك ـ أن يحتفظوا بها ، وألا يفرطوا فيها بأى ثمن ، ويرى منهم من نجوا من «خزعبلات» هذا الجد وأفكاره أن يبيعوها فى المزاد العلنى، ويحققوا من ورائها ثروة لا بأس بها ، كما حدث كثيراً مع مثيلاتها فى أوروبا وأمريكا .

ولأن هذه المشكلة ستكون مشكلتهم هم ، وليست مشكلتى، فدعهم فى نزاعهم وصراعهم على حطام الدنيا . . وتعالَ أحدثك عن هذه الثروة الثمينة التى جمعتها خلال عشرين عامًا ، أو أكثر .

فالحكاية أننى ممن لا يفرطون فى أية أوراق أو رسائل أتلقاها من الآخرين بسهولة ، وإنما أحتفظ غالباً بكثير مما أتلقاه من رسائل عديدة، حتى ليضيق مكتبى ومسكنى بتلال من الأوراق ، تمثل سبباً دائماً للنزاع العائلى حول وجودها ، وشغلها لكل فراغ متاح فى بيتى . . مع محاولات مستمرة من جانب « أعداء الورق » من أفراد أسرتى للتخلص منها . . وصمود بطولى من جانبى فى وجه هذه المحاولات ... فإذا كان هذا هو حالى مع رسائل الأصدقاء والقراء والأشخاص العاديين . . فكيف يكون حالى مع هذه « الجواهر » التى تلقيتها من بعض الأدباء والمفكرين والكتاب والفنانين المشاهير خلال رحلة العمر ؟ ! .

لقد أفردتُ لها ملفاً خاصاً ، أحتفظ به فى الدرج الأوسط إلى اليمين من مكتبى بالبيت ـ اكتم السر من فضلك ـ خوفاً من اللصوص واعتدت كلما سئمت الكتابة والقراءة ، أن أخرجه ، وأعيد قراءة رسائله . . وأتأمل خطوط أصحابها من المشاهير . . وأستعيد أفكارهم فيها ، وأحاول الربط بين شخصياتهم المعروفة . . وبين ما توحى لى به خطوطهم من تطابق أو تنافر مع صور هذه الشخصيات فى مخيلتى .

ومنذ أيام . . ونفسى تراودنى أن أشركك معى فى « ثروتى » هذه ـ على خلاف عادة بعض « الأثرياء » الآخرين ، الذين لا يحبون غالباً أن يشاركهم أحد فى مقتنياتهم . . ـ فهل تحب ذلك ؟ .

فى ملفى مثلاً . . بضعة رسائل قصيرة بخط يد أديب نوبل العظيم ، الأستاذ نجيب محفوظ ، متَّعه الله بالصحة والعافية وطُول العطاء ـ

تلقيتها منه فى مناسبات مختلفة، وكلها مكتوبة بالقلم الجاف ، وبخط واضح جميل على ورق « الدشت » الذى يستخدمه محررو الصحف .

ولإحدى هذه الرسائل قصة تستحق أن تروى ، فلقد نشرت فى بريد الأهرام ذات يوم من عام ١٩٨٨ ـ وقبل فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل ـ رسالةً لصحفى مصرى مقيم فى الإمارات ـ على ما أذكر ـ هو الأستاذ هلال السعيد ، وفيها يتعجب من أنه قد قرأ فى حوار صحفى مع نجيب محفوظ أن الأديب الكبير لا يملك جهاز فيديو . . ويبدى رغبته فى إهدائه جهاز فيديو حديث . ونشرت الرسالة تعبيراً عن تقدير قراء نجيب محفوظ له . . وأرسلت إليه أصل رسالة القارىء ، تأكيداً لذلك . . وانتظاراً لرأيه فى قبول الهدية ، فلم يمض يومان ، حتى تلقيتُ منه هذه الرسالة ، التى تعتبر آيةً فى الرقة والتواضع :

الأستاذ ... ...

الشكر لك لتفضلك بإرسال خطاب الأخ الكريم هلال السعيد، والشكر له على سماحة نفسه ، وسخاء طبعه . وأود أن يعلم الأخ أننى قد ابتعت مؤخراً جهاز الفيديو ، ولا داعى لإزعاجه ، بالرغم من أنه لم يحل مشكلة السمع عندى ، ولكنه كان ذا فوائد للأسرة . وبالمناسبة . . اسمح لى بأن أهنئك على التقدم الذى تحققه مجلة الشباب ـ التى ترأس تحريرها ـ يوماً بعد يوم ، حتى أصبحت فى مقدمة مجلاتنا ، متعة، وفائدة . ولك منى أزكى التحية .

المخلص نجيب محفوظ ١٤/ ١/ ١٩٨٨ .

فهل لاحظت أدباً وتواضعاً وسخاء فى المجاملة كهذا السخاء ؟ . لقد سعدت برسالته كثيراً . . وكتبت إليه أستأذنه فى نشر سطور الرسالة الأخيرة فى مجلة الشباب فى عيدها ، فإذا به يرد علىَّ برسالة أخرى ، يرحب فيها بنشر كلمته ، تحية لمجلة الشباب « وكتابها المحبوبين » ، كما قال فى الرسالة ؛ فأضفت الرسالة الجديدة إلى ثروتى مع زميلاتها ، ورجوت الله أن يأتى يوم يُهدى فيه ورثتى رسائل نجيب محفوظ القصيرة هذه إلى متحفه الذى ستقيمه له الأجيال التالية بكل تأكيد ذات يوم .

أما هذه الرسالة ، فمن أديب كبير ، ومفكر ، وكاتب ساحر الأسلوب والفكرة ، أثرى المكتبة العربية حتى الآن بـ ١٨٥ كتاباً ، ومازال عطاؤه الأدبى مستمرا ومتدفقاً . وقد تعمدت أن أذكِّرك بذلك فى البداية ، لأنك ستُدهش معى حين تعرف قصة هذه الرسالة . . فالأديب الكبير هو الأستاذ أنيس منصور ، الذى لم أغبط أحداً فى حياتى على تدفق أفكاره ، وغزارة إنتاجه ، ومطاوعة قلمه الساحر له فى أية لحظة ، كما غبطته . . فإذا برسالته هذه تكشف لى عن جانب آخر فى شخصيته، هو قلق الفنان الدائم ، وعذابه المستمر مع الكلمة . والحكاية أنه بعث إلىَّ ذات يوم بمقاله الشهرى لمجلة الشباب ، وكان مقالاً فلسفياً عن أفكار الشباب ، وأرفق بالمقال رسالةً شخصية لى ، يطلب منى فيها أن أعطى مقاله قبل النشر لأى شاب أختاره لكى يقرأه، فإذا فهمه بيُسر ؛ دفعتُ به إلى المطبعة . . أما إذا غمضت عليه بعض أفكاره ، فإنه يطلب منى إعادة المقال إليه ؛ ليعيد صياغته ، وتوضيح أفكاره فيه .

وقرأت المقال ، واستمتعتُ به ، وأعطيته لقارىء شاب ، طلبت منه قراءته . وسألته عما فهمه منه . . واطمأننت إلى وضوح رسالة الكاتب فى مقاله ؛ فأرسلته إلى المطبعة ، وكتبت له كلمة تمهيدية ، قلت فيها أن أنيس منصور قد « سرقنى» هذا الشهر مرتين : مرة بقراءة مقاله الممتع . . ومرة بقراءة رسالته المرفقة معه ، التى أثارت خواطرى وتأملاتى . وأرفقت كلمتى برسالته ،وأرسلتها للنشر ، لكى يعرف الشباب كم ذا يعانى الكاتب لكى ينقل أفكاره لقرائه ، وكيف يتعامل مع قلمه بجدية وقلق دائم لا يهدأ ، رغم طول التجربة ، وسخاء العطاء .

واتصلت بالأستاذ أنيس منصور ، واستأذنته فى نشر رسالته الشخصية لى مع مقاله لهذا السبب . ووافق بعد تردد ، لكنه عاد فى اليوم التالى ، وأرسل لى رسالة ، يطلب فيها عدم نشر رسالته الأولى ، فإذا برسالته الثانية ـ فى حد ذاتها ـ مقالاً ممتعاً ، تتمثل فيه كل خصائص أسلوب أنيس منصور المميز ، وكل عذاب الفنان مع الكلمة .

واحترمت رغبته ، وسحبت الكلمة التمهيدية لمقاله الشهرى ، وأسفتُ كل الأسف لضياع أصل رسالته الشخصية التى كانت مرفقة بها فى المطبعة ، ولم أغفر هذه « الجريمة » حتى الآن لسكرتير التحرير الفنى المسئول عنها . أما الرسالة الثانية ، فقد ضممتُها ـ بحرص شديد ـ إلى ملف « الجواهر » ، وكثيراً ما أرجع إليها كلما عصانى القلم . . أو ضاقت نفسى بعذاب الكلمة ومعاناتها . وفيها يقول :

عزيزى الأستاذ ... ...

أخشى أن يُسىء الشبان فهم هذه الوسوسة الفنية التى صارحتُك بها فى خطاب شخصى ، فهى ملازمة لحياتى كلها ، ولا أذكر أننى رضيتُ قط عن شىء كتبته ، على كثرة ماكتبت ، وأنا مستعد دائماً أن أعيد صياغة أى شىء كتبته . هل تعلم أن كتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم» بعد أن فاز بجائزة الدولة التقديرية ، قلَّبتُ فيه ، فلم يعجبنى ؟ ! ، فجلستُ وأعدت صياغته كله فى ٨٠٠ صفحة ! . ولو اتسع عمرى ، لفعلت ذلك مع جميع كتبى (١٢٧ كتابا) . . « كان عددها كذلك فى تاريخ كتابة الرسالة فى ١٨/ ١/ ٩٠ ، والآن أصبح ١٨٥ كتاباً » .

وكل الذى أخشاه ، هو أن يجد الشبان لأنفسهم مبرراً ـ إذا قرأوا بسرعة ولم يفهموا ـ أن يكون العيب فى الكاتب ، وليس فى القارىء ، ولن أقول ما قاله أبو تمام عندما سألوه : لماذا لا تقول ما يُفهم ؟ ، فأجاب : ولماذا لا تفهمون ما أقول ؟ . ولا أقول أيضا ما قاله الفيلسوف الألمانى (شوبنهور) عندما شكا الناس من صعوبة فلسفته ... قال : لماذا فى كل مرة يفتح أحد كتاباً من كتبى ، ثم يسمع صوت نهيق حمار ، يكون هذا الصوت هو صوت المؤلف دائماً ؟ .

إننى كنت أطلب إلى الساعى أمام مكتبى أن يحاول قراءة مقالاتى ، فإذا وجد شيئاً غامضاً ؛ وضع إصبعى عليه . . وكنت أعيد صياغة ذلك . ولازلت مستعداً فى أى وقت .

إنها مشكلتى أنا وحدى .

أرجو أن تعذرنى ، وأن تجدنى منطقياً ، ولا داعى لأن تنتقل عدواى إلى القراء ، فمن أجل أن أكون واضحاً ، فإننى أحكى الشىء الواحد ألف مرة ، وبألف صورة ، فأنا أول قارىء لى ، وأنا قارىء فى غاية القسوة على الكاتب ، الذى هو أنا ، فأنا لم أستطع أن أرحم نفسى ، فلا تنقل عذابى للآخرين ، فما أغناهم وأغناك ، وشكراً .

أنيس منصور

وليس بين « جواهرى » للأسف سوى هذه الرسالة بخط يد أنيس منصور ، الذى يكتب رسائله دائما على ورق فولسكاب أبيض بالحبر الأزرق ، وبخط يصعب على كثيرين قراءته . ومازلت أحاول افتعال المناسبات المختلفة « لابتزاز » رسائل أخرى منه . . وأحزن دائما حين يجيب على هذه المحاولات الفاشلة عن طريق التليفون ، وليس عن طريق الكتابة ! .

أما هذه الرسالة القصيرة بالحبر الأسود ـ وبالخط الواضح ـ فمن الأديب العظيم الراحل الدكتور يوسف إدريس ـ رحمه الله . وكان قد نشر فى الأهرام مقالا ، أثار بجرأته الفكرية مشاعر بعض المتشددين دينياً، فأرسل إلىّ كثيرون منهم رسائل يعلقون فيها على مقاله ، ويعارضونه ، فنشرت ما تضمن رأياً موضوعياً منها ، وحجبت عن النشر رسائل الهجوم الشخصى والاتهامات غير الموضوعية ، وأرسلتُ إليه هذه الرسائل ليطلع عليها ، ويعرف صدى مقاله لدى أصحابها ، ويتحاور معهم إذا أراد ؛ فتلقيت منه بعد يومين هذه الرسالة :

عزيزى الأستاذ ... ...

شكراً لك على إرسالك لهذه الخطابات ، التى أعتقد أن مضمونها واحد ، وإن كانت قد كتُبت بخطوط مختلفة ، وبأسماء مختلفة ، ومن جهات مختلفة ، وأشكُّ كثيراً فى صدقها . أحييك ، وأتمنى لك كل صحة وتوفيق .

المخلص يوسف إدريس

١٩٨٨/٨/٧

وقرأت الرسالة فى حينها ، وابتسمت لنبرة الشك فى صدق هذه الرسائل ، وفى أنها جميعاً من مصدر واحد ، رغم اختلاف الخطوط والأسماء والجهات المرسلة منها . . فلقد كان الشك وتحسس « المؤامرة » والتدبير فى بعض ردود الأفعال التلقائية أحيانا من سمات شخصية ذلك الفنان العظيم ، رغم طيبة قلبه ، ورقة مشاعره ، وتلقائيته . . وقد كان مفتاح التعامل السليم مع يوسف إدريس ، هو أن يستشعر حبك له . . فإذا أوصلت إليه هذه « الرسالة » بوضوح ؛ تقبل منك كل شىء ، حتى النقد والمعارضة ؛ واطمأن إليك ؛ ووثق فيك . . أما إذا لم تفعل ؛ فإنه سوف يتشكك فى دوافعك لما تقول له ، ويتصور غالباً أنك ضده ، وتتحامل أو « تتآمر » عليه .

ولقد كنت أحب يوسف إدريس بصدق كإنسان وكأديب مبدع ، ويبدو أننى قد نجحت فى توصيل هذه الرسالة إليه خلال تعامل

معه؛ فاستمتعت بودّه وثقته وتشجيعه عشرين عاماً ، أو أكثر . يرحمه الله .

أما هذه الرسالة القصيرة بالحبر الأزرق من القطع الصغير ، فمن الأديب الساخر اللاذع ، الذى ينتزع ابتسامه قارئه كل صباح ، الأستاذ أحمد رجب . . وقد بعث إلىّ بها مع بعض الأدوية فى مناسبة حزينة ، بعد أيام من رحيل زوجته وشريكه عمره ، وفيها يقول :

أخى العزيز :

تحية طيبة . . أرجو أن توزع هذا الدواء على من يحتاجه . هو دواء للقلب ، غير موجود فى مصر ، وكانت تستعمله المرحومة زوجتى . أشكر لك فضلك ، مع مودتى .

أحمد رجب

١٩٩٢/١/١٩

ولقد نشرت فى بريد الأهرام وقتها أننى قد تلقيت بعض أدوية القلب النادرة من كاتب كبير ، ودعوت من يحتاجون إليها إلى الحضور لاستلامها . وسلَّمتها إليهم ، ورجوتُ الله أن يستجيب لدعائهم الصادق لمن كانت تستعمله ، وللكاتب الكبير الذى تبرع بها .

وبجوار هذه الرسالة الحزينة . . يتضمن ملفى الثمين رسالتين ضاحكتين من الفنان الأصيل سيد مكاوى ـ رحمه الله . . فلقد أرسل إلىّ شكوى لنشرها فى بريد الأهرام من ضجيج الترام أمام شقته التى

يقضى بها شهور الصيف بالإسكندرية ، وأرفق بالشكوى رسالة شخصية، يقـول لـى فيهـا أنـه يتابـع بانتظـام بريـد الأهرام ، وأنه من كبار «مستمعيه»! .

وضحكت للقفشة الذكية ، وبراعة التورية فيها ، وعلمت فيما بعد أن السيدة قرينته تقرأ عليه بانتظام بريد الأهرام اليومى، وبريد الجمعة الأسبوعى ، وأنها تكتب له رسائله التى يمليها عليها كلمةً كلمةً . وقد نشرتُ الشكوى والقفشة المصاحبة لها ؛ فأثارت ابتسامات القراء ؛ واستجابت محافظة الإسكندرية لشكواه .

وبعد عام من نشرها، تلقيت منه شكوى يقول فيها أنه قد بنى مسجدا فى منطقة الهرم ، لكن ظروفه الصحية لا تسمح له بمواصلة الإشراف عليه . . ويطلب من وزارة الأوقاف أن تضمّه إلى مساجدها، وتعيّن له خطيباً وإماماً . ونشرتُ شكواه ، وعلقت عليها داعياً الوزارة للاستجابة لهذا المطلب العادل ، مذكراً إياها بأنه كان يستطيع ـ بدلاً من بناء المسجد ـ أن يبنى استوديو للتسجيلات، يدر عليه دخلاً كبيراً . لهذا . . فمن واجبنا ـ مراعاة لظروفه الشخصية ـ أن نرفع عنه عبءالإشراف على هذا المسجد . ولا أعرف هل استجابت الوزاره لهذا النداء ، أم لا .

لكن ملف الجواهر انضمت إليه رسالة جديدة ـ بعث بها مع هذه الشكوى ـ تعدّ بصدق قطعة أخرى من الأدب الساخر . . فقد كتب لى يقول :

الأخ الأستاذ ... ...

تحية . . وشوقاً إلى « رؤياك » . . حلوة دى ؟ .

وما العين إلا وسيلة ، والقلب أقوى منها ، وإلا لما قال (يعقوب) ـ وهو الذى ابيضّت عيناه من الحزن ـ : « إنى لأجد ريح يوسف». وشكراً لاحتضانك ما أبعث به من رسائل للبريد ، وهذا هو المرجو منك .
ودمت لأخيك

سيد مكاوى .

هذه هى بعض « جواهرى » الأدبية الثمينة . . ومازال فى ملفى كثيرات غيرها ، تحمل أسماء : الدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » ، وفضيلة الشيخ محمد الغزالى ، والدكتورة نعمات أحمد فؤاد ، والأساتذة : رجاء النقاش ، وصلاح منتصر ، ولطفى الخولى ، وحلمى سلام ، والدكتور أحمد كمال أبو المجد ، وهناك غيرهم كثيرون وكثيرون .

قلتَ . . بكم تشتريها ؟

ـ ولا بمال الدنيا كلها ، لكن شكراً لإحساسك بقيمتها الأدبية التى «لا تُكَيَّل بالبدنجان » ! .

الفهرس

رقم الإيداع : ٩٥٩٤ / ٩٩
I.S.B.N: 977 - 01 - 6224 - 8